

إمبراطورية الشمس

ج. ج. بالارد

- Author : J –G- BALLARD
 - Title: EMPIRE Of THE SUN
 - Translated by: Mahmoud Masoud
 - Afaq's first edition: 2019
 - Cover Design by: Amr El Kafrawy
 - Publishing Consultant: Sawsan Bashier
 - General Manager: Mostafa Alsheikh
- ♦ المؤلف: ج. ج. بالارد
 - ♦ العنوان: إمبراطورية الشمس
 - ♦ ترجمة: محمود مسعود
 - ♦ طبعة آفاق الأولى 2019
 - ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
 - ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
 - ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ٢٠٥٨١

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 191 - 2

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٨٧٤٣

ج. ج. بالارد

إمبراطورية الشمس

رواية

ترجمة

محمود مسعود

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

بالارد، ج.ج.

ج.ج. بالارد : إمبراطورية الشمس - ترجمة: محمود مسعود

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

384 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20581 / 2018

الترقيم الدولي 2 - 191 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - بالارد، ج.ج.

القسم الأول

(١)

عشية بيرل هاربر

جاءت الحروب مبكرة إلى شنغهاي، متلاحقة مثل أمواج المد التي تتسابق عبر نهر (يانجتسي) ثم تعود أدراجها حاملة إلى هذه المدينة المبهرجة كافة نعوش الموتى التي يقذفها تلاطم أمواج المد من أرصفة الجنائز لدى النهر الصيني العظيم.

كان جيم قد بدأ يحلم بالحروب... في لياليه كانت الأفلام الصامتة تتراءى له وكأنها منعكسة فوق حائط غرفة نومه في (أمهرست أفينو) حتى تحيل عقله النائم إلى دار عرض مهجورة لنشرات الأخبار المصورة... ففي غضون عام ١٩٤١ كان كل إنسان في شنغهاي يعرض أفلام الحرب... وكانت شذرات أحلامه تتبع جيم في طوافه بأرجاء المدينة... وفي ساحات المتاجر والفنادق كانت صور دنكر ك وطبرق وبار باروسا واقتحام ناتكين تتوالب من رأسه المكتظ بها متلاحقة.

بل شد ما جزع جيم عندما وجد عميد كاتدرائية شنغهاي يزود نفسه بآلة عرض عتيقة... وبعد انتهاء مراسم صلاة الأحد في السابع من شهر

ديسمبر - عشية الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربر الأمريكي - أوقف صبيته الإنشاد الديني قبل أن يتمكنوا من العودة إلى بيوتهم وسير بهم إلى قبو الكاتدرائية حيث جلسوا وهم لا يزالون مرتدين زيهم في صف من الكراسي جيء بها من نادي اليخت في شنغهاي وجعلوا يشاهدون نسخة من جريدة (مارش أف تيم) المصورة عمرها عام.

وفي تدبر جيم لأحلامه المشوشة وحيرته من عدم اقتران العرض بالصوت المعبر راح يشد على ياقته وهو يستعيد عزف الأرغن الذي كان يطن كصداع خلال سقف القبو الأسمتي بينما وقائع العرض تهتز مع الصور المعهودة لمعارك الدبابات والاشتباكات الجوية... غير أن جيم كان تواقاً للاستعداد لحفل عيد الميلاد الذي سيقام بعد ظهر هذا اليوم في منزل الدكتور لوكوود نائب رئيس رابطة المستوطنين البريطانيين... فستكون هناك رحلة ركوب السيارة خلال خطوط الجيش الياباني إلى ضاحية (هانججاو)، ومن ثم يشهد طوائف الحواة الصينيين والألعاب النارية والمزيد من عرض نشرات الأخبار، ولكن جيم كانت له دوافعه الخاصة لرغبته في الذهاب إلى حفل الدكتور لوكوود.

ومن خلف منافذ القبو الكنسي كان السائقون الخاصون ينتظرون قرب سيارات الباكار والبويك وهم يتحاورون فيما بينهم بأسلوب مضجر، حتى وصل إلى سمع جيم صوت سائق أبيه (يانج) الصيني وهو يجادل الأسترالي حامل الصولجان الكنسي... ومهما يكن من شيء فإن مشاهدة نشرات الإخبارية المصورة أصبحت واجباً وطنياً على كل مغترب من البريطانيين في الخارج، تمامًا كواجب جمع الاكتتابات

المالية في شتى النوادي... والواقع أن المراقص وحفلات الحدائق وما كان يستهلك من زجاجات الويسكي الإسكتلندي التي لا عداد لها مساعدة للمجهود الحربي (وإن كان جيم مثل سائر الصبيان تراوده الأشربة الكحولية ولكنه لا يجدها على نحو مبهم) - كل أولئك سرعان ما أثمر أموالاً كافية لشراء طائرة (سبتغاير)، ولعلها فيما يرجح واحدة من تلك الطائرات التي أسقطت في أولى طلعاتها بعد أن فقد قائدها وعيه بتأثير ما احتسى من ويسكي جوني ووكر، فيما قدر جيم لنفسه!

وكان جيم في المعتاد يلتهم نشرات الأخبار المصورة تلك، وهي جزء من مجهود الدعاية الذي تضطلع به السفارة البريطانية لمواجهة الأفلام الحربية من جانب الألمان والإيطاليين التي كانت تعرض في المسارح العامة ونوادي (المحور) في شنغهاي... وأحياناً كانت نشرات الأخبار المعروضة من قبل شركة باتيه السينمائية في إنجلترا تولد لديه انطباعاً بأن البريطانيين، على الرغم من سلسلة هزائمهم المتواصلة، إنما يستمتعون بالحرب... وكانت نشرات جريدة (مارش أف تيم) المصورة أشد إثارة للغم، رغم ما فيها من استهواء لجيم.. والواقع أنه لم يتمالك أن شعر باختناق في ردائه الكنسي وهو يراقب طائرة من طراز (هاريكان) تهوي في الفضاء في صولاتها مع قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (دورنير) فوق المروج البريطانية التي لم يتح له قط أن يعرفها إلا مصورة في كتب الأطفال... وطائرة أخرى من طراز (جراف سبي) شاهدها مغرقة في نهر بلات، وهو نهر كالح مثل نهر يانجتسي، وأعمدة الدخان تتصاعد من مدينة قاتمة في أوروبا الشرقية - تلك البلاد الغائمة

التي فرت منها (فيرا فرانكل) مربيته البالغة من العمر سبعة عشر عامًا
لائذة بسفينة لاجئين منذ ستة شهور.

والحق أن جيم تملكه السرور عندما انتهى عرض نشرة الأخبار في
قبو الكاتدرائية، فانطلق مع أترابه من الصبية المنشدين إلى ضوء النهار
الباهر وإلى حيث وقفت سياراتهم الخاصة تنتظر مع سائقها... إن
صاحبه الحميم باتريك ماكستيد قد أبحر مع أمه من شنغهاي إلى حيث
الأمان في سنغافورة القلعة البريطانية المنيعة، وشعر جيم كأنما يتعين
عليه أن يشهد أفلام الحرب نيابة عن باتريك، بل حتى نيابة عن نساء
روسيا البيضاء اللاتي أصبحن يبعن مجوهراتهن وحليهن فوق درجات
الكاتدرائية إلى جانب المتسولين الصينيين المنتشرين عن كذب وفيما
بين المدافن.

وكان صوت معلق الفيلم لا يزال يدوي في دماغ جيم وهو في
طريقه إلى البيت خلال شوارع شنغهاي المزدهمة، مستقلًا سيارة والديه
الباكار... إن يانج السائق الطلق اللسان اشتغل مرة (كومبارسا) في أحد
الأفلام المحلية التي كانت بطلتها النجمة تشيانج تلك النجمة التي
هجرت سيرتها الفنية لكي تنضوي تحت لواء الزعيم الصيني ماوتسي
تونج... وكان يانج يستمتع بإبهار راكمه الفتى البالغ من العمر أحد
عشر عامًا بحكاياته المفخمة عن عالم السينما وما فيه من المبتكرات
والخدع الفنية... أما اليوم فإن يانج تجاهل وجوده في السيارة وأقصاه
في المقعد الخلفي وعكف على أعمال نفير السيارة القوي متفرغًا
لمناوشاته مع سائقي عربات (الريكشة) العدوانيين الذين يعمدون إلى

مزاحمة السيارات الأجنبية... بل إن يانج ذهب يلسع بسوطه الجلدي المشاة الغافلين وحتى فتيات البارات المتسكعات بحقائب أيديهن الأمريكية الصنع، فضلاً عن الحمّالين المسنين الذين كانوا يرزحون تحت أحمالهم من الدجاج المذبوح المدلى من عيدان البوص.

وانحرفت أمامهم سيارة نقل صغيرة تقل جلادين محترفين في طريقهم إلى ساحة المشانق العمومية في المدينة القديمة... وانتهر متسول صغير جاف هذه الفرصة فجرى إلى جانب السيارة الباكار وأخذ يدق بقبضتين على أبوابها ماداً راحته إلى جيم صائحاً بنداء الشوارع في كل شنغهاي:

– لا (ماما)! لا (بابا)! لا ويسكي صودا!

فأهوى عليه يانج بالسوط حتى سقط الصبي أرضاً ثم استجمع نفسه أمام العجلات الأمامية لسيارة كريزلر قادمة وأخذ يجري بجانبها مردداً:

– لا (ماما)! لا (بابا)!

كان جيم يكره السوط، ولكنه يحب نفير الباكار.. فهو على الأقل يغطي هدير الطائرات المقاتلة ذات المدافع الثماني وعويل صفارات الإنذار المتجاوبة في لندن ووارسو... إنه قد شبع من مجريات الحرب في أوروبا تمام الشعب... وانتقل بنظره الآن إلى واجهة المبنى الكبير للمتاجر الذي كانت تعلوه صورة ضخمة لشيانج كاي تشيك وهو يعتصر الشعب الصيني لمزيد من التضحيات الكبرى في كفاحه ضد اليابانيين، وكان ضوء يسير منعكس من أنبوب نيون مخلخل يهتز فوق وجه الزعيم القائد وفمه الرقيق، وهو نفس الضوء الكليل الذي كان

جيم يراه في أحلامه... إن شنغهاي كلها كانت تتحول إلى شريط أخبار ينضح من ثنايا دماغ جيم.

ترى هل سرى العطب إلى دماغه بتأثير كل هاتيك الأفلام عن الحرب؟ لقد حاول جيم أن يخبر أمه عن أحلامه تلك... بيد أنها كانت مثل كافة الكبار في شنغهاي، ذلك الشتاء، أكثر انشغالا من الإصغاء إليه... لعلها كانت هي الأخرى تراودها أحلامها الخاصة... وعلى نحو غامض غريب كانت تلك الصور المشوشة للدبابات وقاذفات القنابل المنقضة صامته تمامًا، وكأنما كان عقله النائم يحاول فصل الحرب الواقعية عن الصراعات الإيحائية التي تخترعها أفلام باتيه وموفيتون!

لم يكن لدى جيم شك في أن الحرب الواقعية هي كل شيء رآه رؤية العين منذ الغزو الياباني للصين عام ١٩٣٧: من ساحات المعارك القديمة في هانجباو ولانجهاو، حيث كانت عظام الموتى غير المدفونين تبرز إلى سطح الحقول المعشوشبة كل ربيع... وكانت الحرب الواقعية هي ألوف اللاجئين الصينيين الذين حصدتهم الكوليرا في المعتقلات المطوقة بالأسلاك الشائكة في بوتانج، والرؤوس الدامية للجنود الشيوعيين مرفوعة فوق أعالي الحراب المنصوبة على امتداد النهر... في الحرب الواقعية ما كان لأحد أن يعرف في أي جانب هو قائم، وما كان ثمة رايات ولا معلقون ولا منتصرون في الحرب الواقعية، ما كان ثمة أعداء.

وعلى النقيض من ذلك كان الصراع القائم بين بريطانيا واليابان - وهو الذي كان كل إنسان يتوقع أن ينشب في صيف عام ١٩٤٢ - ينتمي إلى عالم الشائعات... وكانت المدمرة الألمانية في بحر الصين

تزور شنغهاي جهازًا وترباط في النهر حيث تتزود بالوقود من عديد من المحطات، وكثير منها كان على حد قول والده متذمرًا، مملوكًا لشركات البترول الأمريكية... وكان معظم النساء والأطفال الأمريكيين قد تم إجلاؤهم عن شنغهاي... وأصبح جيم في فصله بمدرسة الكاتدرائية محوطًا بتخت خالية... فإن أكثر أصحابه وأمهاتهم قد ارتحلوا إلى حيث الأمان في هونج كونج وسنغافورة، في حين أغلق الآباء بيوتهم وانتقلوا للإقامة في الفنادق القائمة على امتداد الميناء.

وفي مستهل شهر ديسمبر، في نهاية اليوم المدرسي، كان جيم ينضم إلى أبيه فوق سطح مبنى مكتبه في طريق ششوان ويساعده في إشعال النار في لفائف السجلات التي كان الموظفون الصينيون يجيئون بها في المصاعد... وكانت آثار الدخان المتصاعد من الأوراق المحترقة تسري في الفضاء مختلطة بالدخان المنبعث من مداخن السفن الأخيرة المتحفة للإبحار ومغادرة شنغهاي... وكان المسافرون يتزاحمون فوق المعابر المؤدية إلى السفن من أوروبيين وصينيين ومخلطين متقاتلين لاعتلاء السفن بحقائبهم ولفائفهم، متأهين للمجازفة بحياتهم في مواجهة الغواصات اليابانية المتربصة في مصب نهر يانغتسي... وبالمثل كانت النيران تتصاعد من أسطح أبنية المكاتب في حي المال والأعمال، تحت مراقبته بمناظير الميدان من جانب الضباط اليابانيين القائمين في تحصيناتهم عبر النهر عند بوتانج... وكان أكثر ما يقلق جيم، ليس هو غضب اليابانيين، بل طول صبرهم.

* * *

وما إن وصل جيم إلى بيته في (أمهرست أفينو) حتى ارتقى السلالم وثبًا لتغيير ملابسه... كان جيم يحب (الشبشب) الإيراني والقميص الحريري المطرز والبنطلون المخملي الأزرق وهو الزي الذي كان يبدو فيه وكأنه شخصية سينمائية في فيلم (لص بغداد)، وكان متلهفًا للذهاب إلى حفل الدكتور لوكوود... وقد وُطن نفسه على احتمال مشاهد الحواة وأشرطة الأخبار المصورة، ومن بعدها يتهيأ له أن ينطلق إلى مواعده السري، ذلك الموعد الذي حالت شائعات الحرب بينه وبين المحافظة عليه طوال شهور كثيرة.

وكان من معالم حسن الحظ في نظر جيم أن يوم الأحد يوافق عطلة نصف اليوم عند (فيرا فرانكل)، عندما تذهب لزيارة والديها في الحي الخاص بأبناء جلدتها في هونجكيو... إن هذه المربية التي كانت بذاتها لا تكبر إلا قليلًا عن صبية، قد درجت على أن تكون له ألزم من ظله وتتبعه إلى حيثما يذهب مثل كلب حارس... ولكنه كان في ساعات عطلتها ما إن يعود به (يانج) إلى البيت وحده إذ يتخلف والداه للعشاء لدى أسرة لوكوود - حتى يستمتع بحريته المطلقة للطواف وحده في أرجاء البيت الخاوي، وهي متعته الكبرى... صحيح أن الخدم الصينيين التسعة كانوا يبقون في المنزل، غير أنهم كانوا في نظر جيم وفي نظر غيره من الأطفال البريطانيين يلتزمون الجمود والسلبية وهم أقرب إلى قطع الأثاث... إذ ذاك كان جيم يعتمد إلى استكمال طائرته المصنوعة من خشب البالزا الأمريكي، ثم استذكار فصل آخر من كتاب (كيف تتقن لعبة البريدج) التي كثيرًا ما ألح على أمه لكي تعلمه أسرارها بعد

أن شهدها تلعبها مع ضيوفها وفي مختلف الحفلات الخارجية.

ومع ذلك، كان بوسعه إذا ثقل عليه هذا وذاك أن يمتطي دراجته ويقوم بجولة في (الحي الفرنسي) مزودًا ببندقته الهوائية احتمالاً لملاقاة عصابة الصبية الفرنسيين البالغين من العمر اثني عشر عامًا والذين كانوا يشكلون عصابة (أفينو فوش)... وتكون عودته إلى البيت في موعد المسلسل الذي يذاع من محطة (إكس-إم) ثم يعقبه البرنامج المسجل الذي يتصل فيه هو وأترابه بالمحطة لكي تلقبهم بالأسماء المستعارة التي يستملحونها مثل (الرجل الخفاش) و(السوبرمان) وغير ذلك مما يثير خيالهم ويهز أعطافهم.

وبعد أن خلع جيم الرداء الكنسي وطوح به إلى الخادم وارتدى الزي التنكري للحفل الوشيك، ألغى كل هذا مهددًا بما سمعه من عدول مربيته فيرا عن الذهاب لزيارة أبويها تأثرًا بشائعات الحرب، إذ قالت له وهي تزرر قميصه الحريري:

- سوف تذهب إلى الحفلة يا جيم... وسأتصل بأبوي تليفونيًا لكي أخبرهما عنك.

- لكن يا فيرا... إنهم يريدون رؤيتك! أعرف أنهم يريدون هذا فعلاً... يجب عليك أن تفكري فيهما يا فيرا!

شعر جيم بالحيرة، وتردد في الإمعان في الشكوى والتذمر... فقد أوصته أمه أن يكون رفيقًا لفيرا وألا يضايقتها كما فعل مع المربية السابقة... وكانت فيرا فتاة هادئة وإن كان وجهها لا يعرف الابتسام وقد وجدت كل شيء غريبًا في نظرها حتى جيم ووالديه وشغها ذاتها

- هذه المدينة العدائية الضيقة التي تبعد عن موطنها في كراكاو بعدًا شاسعًا... إنها فرت مع أبويها على متن إحدى السفن الأخيرة من أوروبا التي سيطر عليها هتلر، وهي تعيش الآن مع ألوف اللاجئين اليهود في هونجكيو، ذلك (الجيتو) الكئيب ذي الوحدات السلوكية الكالحة خلف منطقة الميناء في شنغهاي... وما كان أشد ذهول جيم إذ علم أن أبويها يقطنان غرفة واحدة.

- غرفة واحدة!؟

كان هذا شيئًا لا يصدق في نظر جيم، بل كان أغرب من أي شيء كان يشاهده في أفلام السوبرمان والرجل الخفاش الفكاهية، حتى لقد مضى يقول:

- وما سعة هذه الغرفة؟ أهني في سعة غرفة نومي؟ أهني في سعة هذا البيت؟

- هي في سعة غرفة ملابسك يا جيمس... فبعض الناس ليسوا سعداء الحظ مثلك!

كان جيم في روع حقيقي مما سمعه، حتى إنه بعد أن أفلح في إقناع فيرا بالذهاب لزيارة أبويها، فكر في أن يعرض لموضوع هذه الغرفة الواحدة التي يعيش فيها الأبوان، في حديثه مع أمه وأبيه، بيد أنه ألفاهما، كشأنهما دائمًا، مشتتي الفكر بأخبار الحرب إلى حد أنهما لا يكادان يلاحظان وجوده... فقد وجدهما بملابس الحفل الوشيك في غرفة مكتب أبيه يستمعان إلى النشرة الإخبارية على الموجة القصيرة من إنجلترا.. كان أبوه راكعًا أمام جهاز الراديو الكبير وهو بزي قرصان

تعلو جبينه رقعة من الجلد وعلى عينيه المكدودتين نظارة وكأنه قرصان مثقف... وفوق خريطة لروسيا مبسوطة على السجادة راح يؤشر على الخط الدفاعي الجديد الذي تراجع إليه الجيش الأحمر... وكان يحدق إليه في عجز بين وحيرة بالغة من ضخامة روسيا مثلما كان حال جيم وهو يتدبر ضالة حجم غرفة والدي مربيته (فيرا فرانكل).

وسمع أباه يقول:

- إن هتلر سوف يكون في موسكو بحلول عيد الميلاد...

كانت أمه واقفة في زيتها لمهرج فرنسي قرب النافذة، تحديق في سماء ديسمبر المكفهرة، وقد ردت عليه قائلة:

- لا بد أن الثلوج تهطل في موسكو... ربما تؤدي حالة الطقس إلى وقف الزحف الألماني.

- مرة كل قرن؟! وحتى هذا ربما كان أكثر مما ينتظر... لا بد لتشرشل من إشراك الأمريكيين في الحرب.

وحانت من الأب التفاتة إلى الباب حيث لمح جيم يقترب، يتبعه أحد الخدم ببندقية الهوائية، فابتدره قائلاً:

- لا للبندقية هذا اليوم يا جيمي... خذ طائر تك بدلاً منها.

التفت جيم إلى الخادم منتهراً بغلظة:

- لا تتحرك! وإلا قتلتك!

- جيمي!

استدار والده عن جهاز الراديو متحفزاً لكي يضربه... لكن جيم

وقف بجانب أمه هادئًا منتظرًا أن يرى ما يمكن أن يحدث.

إن جيم على الرغم من هوايته الطواف في شنغهاي فوق دراجته، كان يبقى قريبًا من أمه بالبيت، تلك المرأة الرقيقة النابضة التي كان أهم مقاصدها في الحياة هو الذهاب إلى الحفلات ومساعدة جيم في أداء واجباته المدرسية في اللغة اللاتينية.. وكان إذا غابت عن المنزل يمضي ساعات هائلة في مخدع نومها، يخلط عطورها بعضها ببعض، ويتفرج على (ألبوم) صورها خصوصًا في فترة ما قبل الزواج.

- جيمي! لا تقل شيئًا كهذا أبدًا! إنك لن تقتل الخادم ولا أي أحد آخر!

وبسط والده قبضتيه المتحفزتين، وأدرك جيم إلى أي حد كان والده مجهدًا... فكثيرًا ما بدا له وكأنه يحاول أن يلتزم الهدوء بأكثر مما ينبغي، وهو مثقل بالتهديدات الموجهة إلى مصنعه الكبير من جانب اتحادات العمال الشيوعية، وبنشاطه الدائب لخدمة روابط المستوطنين البريطانيين، وبمخاوفه من أجل جيم وأمّه... وكان كلما استمع إلى أخبار الحرب زادت مخاوفه وتشتت أفكاره... والواقع أن وشائج المحبة قد تعمقت جذورها بين والديه على نحو لم يعهد له جيم مثلاً من قبل... ثم كان والده يملكه الغضب من جيم، لفرط اهتمامه بكافة تفاصيل حياته حتى أصغر أفاعيله شأنًا، وكأنما كان إشرافه على مساعدة جيم في إتمام صنع طائرته الخاصة مثلاً هو أهم لديه من مجريات الحرب... وكان والده إلى جانب هذا يسبغ اهتمامًا أكبر على تزويد جيم بأقصى قدر من المعلومات عن موضوعات غريبة مثل كيمياء مواد

الصباغة الحديثة، وعنايته بتوفير أسباب الرفاهية للعاملين الصينيين في مصنعه الكبير، بل كان يمتد اهتمامه إلى المدرسة والجامعة في إنجلترا التي يمكن أن يلتحق بهما جيم بعد الحرب، وما إذا كان يمكن أن يصبح طبيباً إذا رغب في ذلك!

من أجل هذا كله انحاز جيم إلى التعقل والرزانة وقرر ألا يثير أباه، فلا يذكر حكاية الغرفة الواحدة الغريبة التي تسكنها أسرة المربية (فيرا فرانكل) في هونجكيو، وألا يتجه إلى الوعيد والتهديد حيال خدمه مرة أخرى... إنهم موشكون على الذهاب إلى الحفل، وعليه أن يسعى إلى إدخال السرور على قلب أبيه، وأن يفكر في طريقة لوقف الزحف الألماني عند أبواب موسكو!

وهكذا اتخذ جيم مجلسه إلى جانب يانج في السيارة (الباكار) وقد طاف بخياله حديث الثلوج الصناعية التي كان السائق يصفها له في حكاياته عن استوديوهات السينما في شنغهاي، ذلك وقد أبهجه بصفة خاصة أن يرى طريق أمهرست أفينو وقد اكتظ بسيارات الأوروبيين المتجهين لشهود حفلات عيد الميلاد... ففي كل مكان من الضواحي الغربية كانوا جميعاً مرتدين أزياءهم التنكرية، حتى لكأن شنغهاي قد استحوطت كلها إلى مدينة بهلوانات ومهرجين!



(٢)

متسولون وبهلوانات

في زي بهلوان وقرصان جلس والداه صامتين في الطريق إلى (هنججاو)، وهي منطقة ريفية تبعد خمسة أميال إلى الغرب من شنغهاي... وكانت والدة جيم في المعتاد تحذر يانج السائق لاجتتاب المتسول العجوز الذي يتمدد عند نهاية ممر السيارة... ولكن عندما انحرف يانج بالسيارة الضخمة من خلال البوابة وهو لا يكاد يتوقف قبل الاتجاه بسرعة في طريق أمهرست أفينو، رأى جيم أن العجلة الأمامية قد سحقت قدم المتسول... كان هذا الرجل قد وصل منذ شهرين وهو أقرب إلى لفافة من الخرق الحية وكل مقتنياته حصيرة من الورق البالي وعلبة سجائر (كرافن) معدنية فارغة يلوح بها للمارة... وكان هذا المتسول لا يتحرك عن الحصيرة، ولكنه كان يدافع بشراسة عن رقعته الضئيلة خارج البوابة... وحتى خدم البيت جميعاً عجزوا عن زحزحته قيد أنملة.

وعلى أي حال فإن هذا الوضع لم يجلب للمتسول العجوز إلا النزر اليسير... فقد كانت الظروف صعبة عسيرة في شتغهاي ذلك الشتاء، وبعد أسبوع سادها البرد غدا الرجل من التعب والضعف بحيث لا يقوى على رفع علبته للمتصدقين... وكان جيم قلقاً لحال المتسول، وقد أخبرته أمه أن أحد الخدم حمل إليه مرة وعاء من الأرز... وبعد هطول الثلوج بكثافة ذات ليلة في أوائل ديسمبر، شكلت الثلوج غطاءً كثيفاً شمل المتسول العجوز حتى لم يبد منه سوى وجهه وكأنه وجه طفل تحت غطاءه الزغبى الوثير... وقد عزى جيم نفسه بأن الرجل لم يكن يتحرك قط لأنه كان مستدفئاً تحت الدثار الثلجي.

كان في شتغهاي كثرة من المتسولين... وعلى امتداد طريق أمهرست أفينو كانوا يجلسون خارج بوابات المنازل وهم لا يفتأون يهزون علب السجائر المعدنية الفارغة... ومنهم كثيرون كانوا يكشفون عن جروح قبيحة وتشوهات شتى، ولكن لم يكن أحد يعبأ بهم عصر هذا اليوم... فقد كان اللاجئون من البلدان والقرى فيما حول شتغهاي يتدفقون إلى المدينة، وكانت العربات الخشبية وعربات (الريكشة) التي يجرها الرجال براكبيها تزحم أمهرست أفينو وقد حُملت كل منها بكل ما تمتلكه العائلات الريفية من متاع... وكان الكبار والصغار يسرون منحني الظهر تحت لفائف ثقيل مشدودة إلى ظهورهم وهم يدفعون العجلات بأيديهم، متعاقبين بين الغناء والبصق... وكان صغار الموظفين يدفعون دراجات محملة (بالمراتب) ومواقد الفحم وأكياس الأرز.

وعندما وصلت بهم السيارة إلى نهاية الطريق الغربي السريع عند طرف المدينة الدولية ألفوا صفًا طويلًا من السيارات على جانبي نقطة التفتيش... وكان بوليس شنغهاي قد كف عن كل محاولة للسيطرة على الجموع... ووقف الضابط البريطاني فوق برج سيارته المدرعة يدخل سيجارة وهو يحدق في ألوف الصينيين المتزاحمين مرورًا به... وبين حين وآخر كان ضابط الصف السيخي بعمامته الكاكي يهوي بعصاه البوص على ظهور الصينيين، وكأنما يفعل هذا من قبيل ستر المظاهر والإبقاء على السلطة.

وكان جيم يحدق في رجال الشرطة مبهورًا بأجسادهم المتينة ومسدسات (سام براون) التي يحملونها مدلاة من حواملها اللامعة... كان يريد أن يحمل مثلها ذات يوم ويستشعر ثقله واهتزازه لدى فحذه... في مناسبة سابقة عثر جيم بين قمصان أبيه في دولاب ملابسه على مسدس مطعم بالمجوهرات يشبه كاميرا التصوير السينمائي التي يحتفظ فيها والده بقدر كبير من الفيلم الخام... وكان من العسير أن يتصور أن تلك الرصاصات الصغيرة المحشو بها المسدس يمكن أن تقتل أحدًا، فضلًا عن الشيوعيين الأشداء من مثيري الشغب بين العمال. وعلى النقيض من هذا كانت مسدسات (موزار) التي يحملها ضباط الصف اليابانيون أكثر إبهارًا في نظر جيم... كانت حواملها الخشبية تتدلى حتى الركب... وراح جيم يراقب العريف الياباني الواقف لدى نقطة التفتيش... كان رجلًا قصيرًا ولكنه متين البنية، راح يستخدم قبضتيه لدفع الصينيين إلى الخلف وهو يكاد يغرق في طوفان

الفلاحين المتدافعين بعرباتهم و(ريكشاتهم) ... وجلس جيم بجانب السائق في المقعد الأمامي للسيارة الباكار قابضًا يحرص على طائرته البالزا في انتظار أن يجذب العريف مسدسه الموزار ويرسل طلقة في الهواء... أما اليابانيون فكانوا أكثر حرصًا على ذخيرتهم... وما لبث جنديان أن أفسحا فراغًا حول امرأة فلاحه بعد أن قلبا عربتها اليدوية على الأرض... وعمد العريف وهو شاهر بيده السونكي فشق به كيس أرز بعثره حول قدمي المرأة... فوقفت تهتز وتبكي مولولة وقد حفت بها صفوف من سيارات الباكار والكريز لر الفارهة بركابها الأوروبيين في الملابس التنكرية.

ترى أكانت المرأة تحاول تهريب سلاح من خلال نقطة التفتيش؟ كان ثمة كثير من الجواسيس الشيوعيين وأفراد الكومنتاج بين الصينيين... شعر جيم بالرتاء للمرأة الفلاحه، التي ربما كان كيس الأرز هو كل ما تملكه من حطام الدنيا... غير أنه في نفس الوقت كان معجبًا باليابانيين... كان يحب بسالتهم وبساطتهم، وإن كانت مسحة الاكتئاب التي تبدو منهم لا تروق له وهو لا ينحاز قط إلى الاكتئاب... أما الصينيون الذين كان جيم يعرفهم تمام المعرفة فقد ألفهم باردين قساة، يبدون في ترفعهم مترابطين جنبًا لجنب، في حين كان كل ياباني يبدو وحيدًا متفردًا... وكانوا جميعًا يحملون صور عائلاتهم المتطابقة، وكأن الجيش الياباني كله لا يجند في سلوكه سوى هذه الوجوه المتماثلة.

وكان جيم في رحلاته بالدراجة حول شنغهاي - وهي رحلات لم يكن أبواه يعرفان بأمرها- يمضي ساعات لدى نقط التفتيش

اليابانية، متوددًا إلى بعض الجنود المتضجرين... ولم يكن بينهم قط من يسمح له بمشاهدة سلاحهم، بعكس الجنود البريطانيين المرابطين خلف استحكاماتهم المدعمة بأكياس الرمل على امتداد الميناء، ففي استرخائهم هناك غير عابئين بالحياة الجياشة حول الميناء كانوا يسمحون لجيم بجذب زناد بنادقهم طراز (لي - انفيلد) ومحاولة التسديد إلى الهدف... كان جيم يحبهم، ويستطيع أصواتهم الغريبة المليئة بالحديث عن إنجلترا، الغريبة القاصية.

لكن إذا جاءت الحرب، فهل بإمكانهم هزيمة اليابانيين؟ كان جيم يشك في هذا... يعرف أن أباه يشك في هذا أيضًا... ففي عام ١٩٣٧، في بداية الحرب ضد الصين، هبط مائتان من جنود البحرية اليابانيين عبر النهر واحترفوا لأنفسهم خنادق في الشاطئ ذي الطمي الأسود الذي يشرف على مصنع غزل القطن في بوتانج... وعلى مشهد من أبويه في جناحيهما بفندق بالاس هاجمتهم كتيبة من الجنود الصينيين تحت قيادة ابن أخت مدام تشيانج... وعلى مدار خمسة أيام ظل اليابانيون يقاتلون من خنادقهم التي امتلأت حتى الوسط بالمياه المرتفعة من المد المتعالي، ثم زحفوا شاهرين حراهم وأبادوا الصينيين.

وتابع رتل السيارات طريقه خلال نقطة التفتيش، مقلًا طوائف الأمريكيين والأوروبيين الذين أمسوا الآن متأخرين عن احتفالاتهم بعيد الميلاد... وانحرف يانج بالسيارة الباكار إلى جانب وهو يطلق نفيره متخوفًا... فقد كانت أمامهم سيارة مرسيدس كبيرة يرفرف عليها علم (السواستيكا) -الصليب المعقوف- وهي ممثلة بشبان ألمان

متضجرين... غير أن اليابانيين فتشوا داخل السيارة بنفس الدقة التي يلتزمون بها مع سائر السيارات.

ولم تلبث والددة جيم أن جذبت يده بطائرة البالزا قائلة:

- ليس الآن يا عزيزي... ربما يخاف منها اليابانيون...

- هذه لا يمكن أن تخيفهم!

فكرر الأب قولها:

- ليس الآن يا جيمس...

وأضاف متفكهاً بصورة نادرة:

- بهذه الحركة ربما تشعل الحرب!

استهوت هذه الخاطرة جيم حتى قال:

- هل أقدر على هذا فعلاً؟

ولكنه أنزل طائرته عن النافذة.

ومرر جندي ياباني سونكي بندقيته على الحاجز الزجاجي لسياراتهم وكأنما يشق عنكبوتاً غير مرئي، وتوقع جيم كخطوة تالية أن يطل الجندي برأسه إلى داخل السيارة مرسلاً أنفاسه المكدودة ورائحته التي تنضح بالتهديد مثل سائر الجنود اليابانيين... وهكذا جلس الجميع في السيارة ساكنين، إذ كانت أدنى بادرة من جانبهم يعقبها توقف قصير ثم يتلوه قصاص عنيف... وفي العام الماضي، عندما كان جيم في العاشرة من عمره، كاد يوقف قلب يانج من الفزع، حين سدد طائرته المعدنية (سبيتفاير) إلى وجه جاويش ياباني وهو يتغنى كالمحاربين...

عندها وقف الجاويش مدى دقيقة كاملة وهو يحملق في وجه والد جيم بنظرة جامدة، هازًا رأسه ببطء... ومرت العاصفة بسلام بعد لحظات عصبية.

أما هذه المرة فكان جيم يريد أن يُري اليابانيين طائرته البالزا، لا لكي يعجبوا بها، ولكن لمجرد الاعتراف بوجودها.. فهو الآن أكبر سنًا، وكان فن الطيران محببًا إلى نفسه مثيرًا لاهتمامه، خصوصًا نوع القاذفات اليابانية التي اجتاحت ناتاو وهونجكيو من مناطق شنغهاي في عام ١٩٣٧.. في هذه الغارات سويت البيوت الصينية بالأرض شارعًا بعد شارع، وفي طريق أدوارد السابع وحده قتلت قنبلة واحدة ألفًا من الناس، وهو أكثر ما حصده قنبلة واحدة أخرى من الأرواح في تاريخ الحروب.

ولقد كانت التسلية الكبرى لضيوف حفلات الدكتور لوكوود هي مشاهدة مطار هانججواو المهجور... وعلى الرغم من أن اليابانيين كانوا يسيطرون على إقليم الريف المكشوف حول شنغهاي، فإن قواتهم ركزت دورياتها في محيط المدينة الدولية، وكانوا متسامحين حيال الأمريكيين والأوروبيين القلائل المقيمين في المناطق الريفية، ومن الناحية العملية كان من النادر مشاهدة أحد من الجنود اليابانيين هناك.

وعندما وصلوا إلى منزل الدكتور لوكوود المنعزل شعر جيم بارتياح إذ وجد أن الحفل لن يكون ناجحًا... فلم يكن هناك أكثر من اثنتي عشرة سيارة في الممر، وكان سائقوها منهمكين في إزالة الأتربة عنها وهم أكثر لهفة للعودة بأسرع ما يمكن... وبدأ حمام السباحة وقد نزحت مياهه... وجلس الأطفال الصغار مع مربياتهم في الشرفة يشاهدون

فرقة من البهلوانات الصينيين من أبناء مقاطعة كانتون وهم يتسلقون سلالهم بصورة هزلية ويتظاهرون بأنهم سيختفون في السماء... وبعدها استحالوا إلى طيور وبسطوا أجنحة مضغوطة من الورق وراحوا يرقصون بينما الأطفال يصرخون، ثم قفزوا على ظهور بعضهم البعض، وجعلوا أنفسهم على شكل ديك.

وأدار جيم طائرته البالزا من خلال أبواب الشرفة... وبدأ كثير من الضيوف بغير الملابس التنكرية... وقد توقفت أحاديثهم عندما أدار الدكتور لوكوود الراديو على الموجة القصيرة... فتركهم جيم لشأنهم وانتقل من باب جانبي إلى الشرفة الخلفية للمنزل... فوقع نظره على نحو عشرين امرأة صينية مرتديات سترات مقفلة وبنطلونات وقد جلسن جنباً إلى جنب على مقاعد بغير ظهر وبأيديهن مناجل لتقليم أعشاب الحديقة حتى كانت تبدو بساطاً سندسياً يانعاً، وهن في الوقت نفسه لا ينقطعن عن اللغط.

وسمع صوتاً يخاطبه قائلاً:

- هالو يا جيمي! ما زلت تحب التأمل وحدك!

كان المتكلم هو مستر ماكستيد، والد أعز أصحابه باتريك، وقد خرج إلى الشرفة ويده كأس ويسكي كبيرة مترعة بالصودا، وراح ينظر عبر سيارة إلى النساء المشتغلات في الحديقة قائلاً:

- لو أن كافة الناس في الصين جلسوا جميعاً صفّاً واحداً لامتد طولهم من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي! هل تدبرت هذا يا جيمي؟

- بإمكانهم أن يجزوا أعشاب الدنيا كلها؟

- لو أردت أن تتصورهم هكذا! سمعت أنك استقلت من جماعة الأشبال.

- والحقيقة أن...

وارتاب جيم فيما إذا كان ثمة جدوى من أن يفسر لمستر ماكستيد لماذا استقال من جماعة الأشبال، وهي بادرة تمرد اصطنعها جيم لا شيء إلا لكي يختبر أثرها وعقباها... فكان من دواعي شعوره بالإحباط أن والديه لم يتأثرا قط بهذه الخطوة... وقد فكر جيم أن يخبر مستر ماكستيد أنه لم ينبذ جماعة الأشبال فقط، بل إنه فكر في الانضمام إلى الشيوعيين لاختبار حقيقتهم، غير أنه أمسك، لعلمه أن مستر ماكستيد لن يصدمه شيء كهذا..

كان جيم يكن الإعجاب لمستر ماكستيد، وهو مهندس معماري تحول إلى مقاول واضطلع بتنفيذ إنشاء مسرح متروبول وعديد من النوادي الليلية في شنغهاي... وكثيرًا ما خطر لجيم أن يقلده في حياته الجادة واللاهية معًا عندما يكبر... وكان مستر ماكستيد مثال الرجل الإنجليزي النموذجي الذي كيّف حياته لجو شنغهاي، مستعينًا بكأس الويسكي والصودا الذي عُرف به، وكان في هذا على النقيض من والد جيم الذي كان بطبعه الرصين أبعد عن شيء كهذا.. ومع ذلك فإن جيم كان يستمتع بركوب سيارة مستر ماكستيد في رحلاته المسلية في عالم ما بعد الظهر، بين النوادي الليلية والكازينوهات الخاوية.. في هذه الرحلة كان مستر ماكستيد يقود السيارة طراز (ستوديبكو) بنفسه، وهي

عملية كان جيم يعتبرها مثيرة... وكان هو وصاحبه الحميم باتريك يقومان بإدارة أقراص موائد الروليت التي لا يرتادها أحد بنقود مستر ماكستيد، بين ابتسامات متسامحة من قبل فتيات البار من روسيا البيضاء وهن عاكفات على رتق جواربهن الحريرية مبتسمات - في حين يجلس مستر ماكستيد مع صاحب الملهى في مكتبه يتداولان أموالاً أخرى.

ولهذا كان جيم يفكر أنه في مقابل هذا يجدر به أن يصطحب مستر ماكستيد معه في رحلاته السرية إلى مطار هانججاو... فهل تراه يفعل؟ وقال مستر ماكستيد أخيراً وهو لا يفرط في كأسه المترعة:

- لا تدع العرض السينمائي يفوتك يا جيمي... إنني أعتمد عليك في إطلاعي أولاً بأول على أحدث أخبار الطيران الحربي.

وتابعه جيم بنظراته وهو يتعد محاذياً لحوض الاستحمام المجفف الذي كثيراً ما هوى فيه وهو ممتلىء بالمياه!



(٣)

المطار المهجور

ترك جيم الشرفة وجرى عبر الحديقة ماراً بالنسوة العاملات في تقليم حشائشها، مرسلًا طائرته فوق رؤوسهن.. لقد تجاهلته النسوة، ومناجلهن تعمل في الحشائش، بيد أن جيم كانت تتملكه دائمًا قشعريرة يسيرة عندما يشرد إلى جوارهن، مرتاعًا مما قد يحدث له إذا أغمي عليه بينهن.

وكان في الطرف الجنوبي الغربي لضيعة الدكتور لوكوود تلك، ثغرة مكسورة في السور الخشبي، ما لبث جيم أن نفذ منها إلى حقل منبسّط تناثرت فيه أقصاب برية وآثار مقبرة بدت فيها جثث الموتى في توابعها المكشوفة هياكل عظمية وجماجم كالحة كان يمر بها في طريقه إلى المطار المهجور وهو يتأملها في روع ورناء لأصحابها الفلاحين البؤساء.

وعبر جيم المقبرة إلى حقل قامت فيه بقايا أشجار حور ذابلة، وأفضى منه إلى منطقة مترامية، من حقول الأرز التي جفت زروعها وخوت من كل أثر للحياة البشرية، حتى لكأن كافة الصينيين في حوض

نهر يانجتسي قد هجروها هجرًا لاثنين بشنغهاي ذاتها... وأنشأ جيم يجري عبر هذه الحقول الخاوية رافعًا طائرته البالزا فوق رأسه، متجهًا إلى مبني حديدي فوق ربوة يبعد نحو مائة ياردة إلى الغرب... وعن كشب بدت آثار طريق خرساني كسته الأقصاب البرية ونباتات القراص الحريية الشائكة، وقامت عليه بوابة صخرية امتد فيما وراءها بحر مكشوف مترام من الحشائش البرية.

كان هذا هو مطار هانجباو، وهو المكان الحافل بألوان السحر، المتجاوب هواؤه بالأحلام وبواعث الإثارة في نفس جيم.. كانت هناك الحظيرة المجلجنة، وفيما عداها لم يبق إلا القليل من ذلك المطار الحربي الذي قامت فيه المقاتلات الصينية بمهاجمة طوابير المشاة اليابانيين الزاحفة على شنغهاي عام ١٩٣٧... وتقدم جيم بين طبقات الحشائش التي ارتفعت حتى وسطه.. ولم يلبث أن قذف بطائرته في الهواء ثم استعادها مرة أخرى، لقد بدأ يمل هذا الطراز المتواضع من النماذج الطائرة... فحيثما هو واقف يلهو ويلعب الآن، وقف الطيارون الصينيون واليابانيون في زي الطيران والنظارات الكبيرة فوق أعينهم قبيل الإقلاع بطائراتهم للهجوم.. ومع ذلك فقد مضى يخوض في جوف الحشائش التي ارتفعت إلى كتفيه ونصالها تحتك ببنطلونه المخملي وقمصنه الحريري، وكأنما تحاول أن تتعرف على هوية الطيار الصغير.

كأن ثمة خندق ضحل يحد الطرف الجنوبي للمطار... ورقد بين العواشج المتشابكة جسم مقاتلة يابانية من ذات المحرك الواحد لعلها أصيبت في محاولتها الهبوط فوق المدرج العشبي... وكانت الطائرة قد

نزع منها الجناحان والمحرك وجزء الذيل، غير أن كابينة القيادة بقيت مكانها يعلو الصداً مقعدها المعدني ونالت الأمطار من لوحة القيادة فيها... لكن على الرغم من ذلك ظل جيم طيلة شهور محاولاً ابتكار طريقة لإقناع أبيه بنقل هذا الجزء المتبقي من الطائرة إلى أمهرست أفينو... إذن لكان هذا الأثر يقبع قرب فراش نومه، تنعكس فوقه أضواء نشرات الأخبار التي كانت تموج في رأسه ليلاً!

ولم يلبث جيم أن أسند طائرته البالزا فوق غطاء المحرك، ثم تسلق الغطاء وأدلى نفسه إلى المقعد المعدني الصدى... وجلس حيناً يحدق في لوحة المفاتيح واللواكب والعجلات والروافع ذات الرموز اليابانية.. والواقع أنه أحس بجو غلاب يرفرف في كابينة القيادة، وكأنه ذكرى قائد الطائرة الذي جلس في هذا المكان يتحكم في مقارها... فأين ذلك الطيار الآن.. وتظاهر جيم بأنه يتولى القيادة ويدير الأزرار والمفاتيح، وكأن هذه البادرة العاطفية يمكن أن تستحضر روح الطيار الذي انطوى أجله منذ عهد بعيد.

ولمح جيم شريطاً معدنيًا يعلوه صف من الأحرف اليابانية، فعالج نزعه من مكانه ودسه في جيب بنطلونه المخملي، ثم نهض عن المقعد وارتقى غطاء الكابينة وقد سرى الارتعاد إلى ذراعيه وكتفيه بتأثير كافة الأحاسيس والانفعالات التي ابتعثتها هذه الطائرة المعطوبة في نفسه، وفي أوج انفعالاته تلك أمسك بطائرته البالزا وأطلقها في الهواء.. لقد حملتها أجنحة الرياح فترة في محيط المطار، ثم هبط بها على سطح معقل دفاعي صغير وانزلت منه إلى الحشائش الممتدة فيما بعده...

ولم يتمالك جيم، الذي أخذ بسرعة الطائرة البالزا، أن وثب من فوق غطاء الطائرة المعطوبة وأخذ يركض في اتجاه المعقل الخرساني، باسطاً ذراعيه كمدفع رشاش يسلطه على الحشرات المشتتة!

وكان يجاور أرض المطار المهجور ساحة قتال شهدت معارك عام ١٩٣٧... في تلك الساحة قام الصينيون بعدة محاولات فاشلة لصد الزحف الياباني على شنغهاي، وتخلفت عنها خنادق مهدمة ومقابر لصرعى الحرب... وما يزال جيم يتذكر تلك الزيارة التي قام بها مع والديه إلى هانجباو في أعقاب تلك المعارك... في ذلك العهد كان الأوروبيون والأمريكيون يتوافدون جماعات من شنغهاي تاركين سياراتهم الليموزين على جوانب الطرق المغطاة بصناديق الذخيرة.. وأنداك بدا مسرح القتال في نظر جيم مهوى خطرًا بما خالطه من مخلفات الذخائر والأسلحة ومختلف آلات الدمار، تتخلله جثث الجنود الصينيين الصرعى بين ملقاة على حوافي الطرقات وطافية في القنوات المائية التي تشق المنطقة.. وفي الخنادق القائمة بين المدافن شاهد جيم مئات من الجنود القتلى جالسين متلاصقين ورؤوسهم موسدة فوق الثرى الذي دكته القذائف، وكأنهم هجعوا جميعاً في سبات حلم عميق من أحلام الحرب الطاحنة.

ووصل جيم إلى المعقل الخرساني الذي تخللته فتحات المدافع الرشاشة، فارتقى إلى سطحه وأرسل نظره باحثاً عن طائرته البالزا في أطواء الحشائش الفارعة والأقطاب الجافة، فأبصرها مشتبكة على بعد نحو عشرين قدمًا في الأسلاك الشائكة المحيطة بأحد الخنادق... وبدأ

ورق الطائرة ممزقاً من الجناحين، غير أن هيكلها ظل سالمًا.

وفيما هو يهيم بالقفز من فوق المعقل إذ لمح وجهًا يتطلع إليه من الخندق.. كان وجه جندي ياباني كامل السلاح جالسًا فوق حائط الخندق المهدم، لا يتجاوز الثامنة عشرة من العمر، ذا طلعة ساكنة مستديرة كالقمر، وراح يحدق في جيم دون أن تعرفه الدهشة من ظهور هذا الصبي الأوروبي ذي البنطلون المخملي والقميص الحريري.

راح جيم يسرح عينيه على امتداد الخندق.. شاهد جنديين يابانيين آخرين جالسين فوق عارضة خشبية بارزة من الأرض وقد استقرت بندقية كل منهما بين ركبتيه.. وبدا الخندق مليئًا بالرجال المسلحين.. فعلى بعد حوالي خمسين ياردة جلس أفراد سرية أخرى مستندين إلى جرف ترابي يدخلون السجائر ويقرأون الخطابات... وشاهد جيم فيما بعدهم جماعات أخرى من الجنود كانت رؤوسهم لا تكاد تبدو من بين الحشائش والأقصاب المتطاولة.. هكذا كانت كتيبة كاملة من المشاة اليابانيين تستريح في ميدان القتال القديم هذا، وكأنهم أشباح رفاقهم السابقين نهضوا من القبور وتزودوا بعتاد ومؤن عديدة.

وعاد جيم بنظره إلى بقايا الطائرة المقاتلة المعطوبة وكأنه يتوقع أن يبصر قائدها الراحل واقفًا في كابينة القيادة... ثم وقع نظره على عريف ياباني يسير بين الحشائش الفارعة فيما بين المعقل ومثوى الطائرة الهالكة وقد فرغ لتوه من تدخين سيجارة امتص بقية دخانها في رثيته.. ورغم أن العريف تجاهل جيم، فإنه عرف أن الياباني قد استقر رأيه على ما سيفعله بهذا الصبي الصغير.

- جيمي! كلنا منتظرون! هناك مفاجأة لك!

صدر هذا النداء من أبيه.. شاهده جيم واقفًا في وسط المطار، وكان بوسعه أن يرى مئات الجنود اليابانيين الرابضين في الخنادق.. وكان واضحًا نظارته فوق عينيه وقد رفع شارة وزى القرصان اللذين ذهب بهما إلى الحفل... وعلى الرغم من أنه كان يلهث متقطع الأنفاس بعد أن جاء يجري من بيت الدكتور لوكوود، فإنه ألزم نفسه بالوقوف ساكنًا، بكيفية جعلت الرقيب الياباني يتردد على الأقل.. إن الجنود الصينيين الذين اعتادوا الصراخ في مثل هذه المواقف ما كان لهم أن يفهموا هذا المسلك.

ومع ذلك دهش جيم من أن هذه البادرة من جانب أبيه قد أرضت الرقيب.. فما لبث أن طوح بعقب سيجارته ووثب فوق حافة الخندق والتقط طائرة البالزا من حيث كانت مشتبكة، في السلك الشائك، ورماها إلى ما بين الحشائش الكثيفة.

ثم تقدم والده بهدوء قائلاً:

- جيمي! جاء وقت الألعاب النارية... يجب أن نذهب الآن..

فيمم جيم شطر أبيه قائلاً:

- إن طائرتي هناك... أظن أن بإمكانني أن أذهب وأخذها.

كان الأب يراقب الجندي الياباني وهو يتعد.. وبدا لجيم أن والده يجد صعوبة في اختيار الكلمات التي تلائم الموقف... فقد كان وجهه مكدودًا وشاحبًا مثلما كان يحدث عندما كان عمال مصنع الغزل

المتمدرون يهددونه بالقتل... وأخيراً قال له وهو مشغول البال بالتفكير في شيء:

- ستركها للجنود.. من يجد شيئاً له أن يحتفظ به.

- إنه لم يكن غاضباً إلى هذا الحد.

- الظاهر أنهم ينتظرون حدوث شيء.

- الحرب القادمة؟

- لا أظن هذا.

وسارا عبر المطار متشابكي اليدين.. ولم تبد حركة حولهما سوى حفيف الحشائش الذي لا ينقطع... وعندما وصلا إلى الحظيرة المهجورة عانقه أبوه بقوة وكأن جيم رد إليه بعد ضياع... وبدأ أنه لم يغضب من تصرفاته في زيارة المطار المهجور خفية عن أبويه.. غير أن جيم ساوره الإحساس بالذنب والنقمة على نفسه... فقد أضاع طائرته البالزا، واستدرج والده إلى مواجهة خطيرة مع الجنود اليابانيين... إن الأوروبيين الفرادى الذين تسوقهم أقدامهم إلى طريق اليابانيين، كانوا عادة يلاقون حتفهم وتترك جثثهم على قارعة الطريق.

وعندما عادا إلى منزل الدكتور لوكوود كان الضيوف ينصرفون... فقد جمعوا أطفالهم وخدمهم مسرعين واستقلوا سياراتهم لا يلوون على شيء، عائدين في قافلة جماعية إلى المدينة الدولية.

جلس جيم بين والديه في المقعد الخلفي للسيارة الباكار وما زال محزوناً لفقد طائرته البالزا... فهل تملكهما الجزع من أن ينبعث إلى

«شقاوة» جديدة إذا تركاه يجلس إلى جانب يانج في المقعد الأمامي؟
ها هو ذا قد أفلح في إفساد سهرة الدكتور لوكوود مع ضيوفه وبات
من غير المحتمل أن تتاح له زيارة مطار هانججاو مرة أخرى... وذهب
به الفكر إلى الطائرة المقاتلة المحطمة التي أنفق الكثير من تخيلاته
بصدها، وفي ذكرى طيارها الصريع الذي استشعر وجوده في كايينة
قيادتها الصدئة المعطلة.

وعلى الرغم من هذه النكسات فإن جيم قد طرب حين أخبرته أمه
أنهم سيغادرون بيتهم في أمهرست أفينو للإقامة بضعة أيام في جناح
الشركة في فندق بالاس... إن نهاية امتحانات الفترة الأولى في مدرسة
الكاتدرائية ستكون غداً بامتحان مادتي الهندسة والدين... ولما كانت
الكاتدرائية لا تبعد إلا بضع مئات الياردات عن الفندق، فسيكون أمامه
وقت كاف صباح الغد لمراجعة عناصر المادتين التعليميتين.

وجلس جيم في المقعد الأمامي للسيارة الباكار ريثما صعد أبوابه
لتغيير ملابسهما وتم نقل حقائبهم إلى صندوق السيارة... وعند مرور
السيارة من البوابة الخارجية ألقى جيم نظرة على المتسول العجوز الذي
لم يبرح مكانه فوق حصيره البالي وقد غطى رأسه بقصاصات الصحف
والخرق، خالجه الرثاء مرة أخرى لحال هذا المخلوق التاعس... ولم
يلبث أن أدار مفتاح راديو السيارة لكي يتجاوز هذه الخوارج.. وفي الحق
أنه كان يهفو دائماً إلى أمثال هذه الجولات الليلية بالسيارة في قلب
شنغهاي، تلك المدينة المكهربة المثيرة أكثر من كل مدينة أخرى في
العالم... وعندما وصلت بهم السيارة إلى طريق «بابلنج ويل» الرئيس

أسند جيم وجهه إلى الحاجز الزجاجي الأمامي وراح يحدق إلى الأرصفة التي اصطفت عليها النوادي الليلية وأوكر المقامرة وازدحمت بفتيات البار وأفراد العصابات والمتسولين والأغنياء المصحوبين بحرسهم الخاص... وعلى بعد ستة آلاف ميل عبر خط التوقيت الدولي كان الأمريكيون في هونولولو مستسلمين للنوم خلال الساعات المبكرة من صباح الأحد، أما هنا - حيث التوقيت أسبق بمقدار يوم فإن شغهاى كانت متأهبة لابتداء أسبوع جديد.. وهكذا كانت أفواج المقامر ينشقون طريقهم إلى أوكر اللعب متسارعين.. وسبقت سيارة بوليسية مدرعة - رُكب في برجها الفولاذي فوق السائق مدفعان رشاشان - سيارة الباكار وأخذت تفسح الطريق المتراص بالسيارات والمارة.. ومر بجانب سيارة الباكار موكب جنازى لطفل غُطي تابوته بالورود الصناعية وتشابكت سواعد المشيعين من ذويه حتى تلاصقوا بجانب السيارة وامتدت أيديهم تدق على زجاجها صارخين شاتمين... ووقف خارج فندق بارك موكب مئات من فتيات البار الآسيويات في عربات «الريكشة» وهن مدثرات بمعاطف الفراء يطلقن الصفير من خلال أسنانهن إلى نزلاء الفندق عند ظهورهن من الأبواب الدوارة، في حين راح تابعوهم من السماسرة يساومون اللاجئيين من البولنديين والتشيكيين لشراء ما تبقى مع نسائهم من المجوهرات... وعن كذب شوهده جمع من شبان يهود أوروبا مشتبكين بين زحف السيارات في تضارب مع جمع آخر من الشباب الألماني الملتفة سواعدهم بشارات «السواستيكا» النازية... ومرت السيارة الباكار بمسرح كاثاي أكبر دار سينما في العالم حيث توافدت

جموع الصينيين من فتيات المحال التجارية والعاملات على الآلة الكاتبة ومن المتسولين والنشالين للتفرج على الوافدين لحضور العرض المسائي... وكانت النساء يهبطن من سيارات الليموزين ممسكات بأذيال ملابس السهرة الفضفاضة، ويسارعن بشق طريقهن بين حرس الشرف المؤلف من خمسين رجلاً أحذب في ملابس العصور الوسطى.. وقد تذكر جيم ما كان منذ ثلاثة شهور عندما صحبه أبواه لمشاهدة حفلة العرض الأولى لفيلم «أحذب نوتردام» الشهير وقد جندت إدارة السينما مائتي رجل في هيئة الأحذب جمعتهم من كافة حوارى شنغهاي... وفي الحق كان المشهد خارج دار العرض يفوق كل ما يعرض في الداخل، ولهذا كان جيم تواقاً للعودة إلى أرصفة المدينة بعيداً عن نشرات الأخبار المصورة وما تذكره به من أنباء الحرب.

وفيما تمدد جيم بعد العشاء في غرفة نومه في الطابق التاسع من فندق بالاس، حاول ألا يستسلم للرقاد.. فأخذ ينصت إلى أزيز طائرة بحرية يابانية رأسية على النهر في قاعدة نانتاو البحرية... وسرح به الفكر إلى طائرة القتال المحطمة في مطار هانججاو، وإلى قائدها الياباني الذي احتل هو مكانه في كابينة القيادة عصر ذلك اليوم... لعل روح الطيار الراحل قد تقمصته هو ذاته، ولعله ينضم إلى جانب البريطانيين في الحرب... وذهب جيم يحلم بالحرب القادمة، وبنشرة أخبار مصورة يقف فيها هو نفسه في ملابس الطيران على ظهر حاملة طائرات مرابطة، متأهباً لأخذ مكانه، إلى جانب أولئك الطيارين الفرادى في بحر الصين، لكي تقلهم عبر المحيط الهادي على متون الريح المقدسة!

(٤)

الهجوم على السفينة بتريل

قبل دقائق قليلة من الفجر جلس جيم عند نافذة غرفة نومه في فندق بالاس... وكان مرتدياً زيه المدرسي متهيئاً لمراجعة دروس الامتحان مدى ساعة قبل الإفطار... غير أنه كان من الصعب عليه، كعادته دائماً، أن يبعد عينيه عن التطلع إلى ميناء شنغهاي، حيث كانت السفن الشراعية الصينية وغيرها من القوارب الصغيرة تكاد تغطي صفحة المياه بين مصطفى على الشاطئ أو ماخرة عبابه رائحة وغادية... وما إن بزغت الشمس حتى انعكست أشعتها على هيكـل كل من السفينة البريطانية «بتريل» ونظيرتها الأمريكية «وايك» الراسيتين في الميناء.

كانت السفيتان المزودتان بالمدافع راسيتين في وسط المياه في مواجهة دور البنوك والفنادق في منطقة الميناء... وراقب جيم زورقاً بخارياً يقل اثنين من الضباط البريطانيين عائدين إلى السفينة بتريل بعد تمضية السهرة على الشاطئ.

ومن ناحية أخرى كان ثمة سفينة حربية يابانية راسية قرب الحدائق العمومية عند الشاطئ، في مواجهة القنصلية البريطانية، بصورة استفزازية.. ولاحظ جيم أن بحارتها وضباطها كانوا يتحركون فيما حول قنطرة القيادة، وأن مصباح إشارات بدأ يرسل رسائل عبر النهر.. عجب جيم من مدلول هذه الإشارات، حتى خيل إليه لأول وهلة أنها إشارات استغاثة ترسلها السفينة الحربية العتيقة لتعرضها للغرق... وعلى الرغم من أن جيم كان يكن احتراماً شديداً لليابانيين، فإن سفنهم لم تكن تضارع السفن البريطانية في شنغهاي.. ومع ذلك فإن الطراد الياباني «أيد زومو» المرابط أمام القنصلية اليابانية على بعد نصف ميل عند هونجكيو كان يبدو أكثر مهابة من السفينة البريطانية «بتريل» ونظيرتها الأمريكية وايك... ثم استرعى نظر جيم إنزال زورق من السفينة الحربية اليابانية أخذ يشق المياه في اتجاه السفينة الأمريكية «وايك»... وكان الزورق يقل نحو اثني عشر من جنود البحرية اليابانيين جلسوا في الزورق متواجهين رافعين بنادقهم كأنها مجاذيف، ووقف في مقدمة الزورق ضابطان بحريان في كامل زيهما الرسمي وقد أمسك أحدهما بوقاً بيديه المكسوتين بقفازين.

دهش جيم من أن يكون اليابانيون يقومون بزيارة رسمية في مثل هذا الوقت المبكر، ولهذا ارتقى حافة النافذة والتصق بزجاجها... فأبصر زورقين كبيرين يقومان من الطراد «أيد زومو» يقل كل منهما خمسين من مشاة البحرية التابعين للبوليس الحربي... وقد تلاقت الزوارق الثلاثة في وسط النهر وأوقفت محركاتها... وما لبث الضابط الياباني

حامل البوق أن وجه نداء من خلاله إلى السفينة «وايك».

إن هذه البادرة جعلت جيم يضحك في سره - فإن أحدًا من الضباط الأمريكيين لم يكن في السفينة كما يعرف كل إنسان في شنغهاي، لأنهم كانوا جميعًا مستغرقين في النوم في غرفهم بفندق بارك... وفعلاً لم يظهر سوى بحار صيني خرج إلى مقدمة السفينة وهو بالبنتلون القصير والصدرية، وهز رأسه نحو زورق البوليس الحربي الذي حاذى السفينة وانهمك في تلميع حاجز السفينة النحاسي، فيما ارتقى أفراد البوليس الحربي السلالم وصعدوا مسرعين إلى السطح... وبنادق مشرعة مزودة بالسونكي جروا على امتداد السطح باحثين عن أي أفراد من البحارة الأمريكيين.

وما لبث زورق السفينة الحربية اليابانية أن اقترب من السفينة البريطانية «بتريل» يتبعه الزورق الثاني المقل للبوليس الحربي... وقد دار حوار محتدم مع الضابط البريطاني الشاب العامل فوق القنطرة، الذي صد اليابانيين بعجرفة كما يفعل زملاؤه عندما يعرض عليهم الباعة سلعهم السياحية في المناسبات المعتادة... فهل كان اليابانيون يحاولون حقاً أن يبيعوا شيئاً للبريطانيين والأمريكيين في السفيتين؟ ولكن قطع عليه تفكيره رؤية الضابط في الزورق يرسل إشارات من المصباح عبر المياه إلى السفينة الحربية المواجهة للحدائق العمومية... وعلى الأثر لاحظ جيم أن مئات من الصينيين أخذوا يترأضون مبتعدين عن القنصلية البريطانية... وأخذت موجات من الدخان والبخار تنبعث من مدخنة السفينة الحربية وكأنها توشك على الانفجار.

ثم انبعث من فوهة المدفع الأمامي وميض قاصف أعقبه انفجار مدوّ عندما أصابت القذيفة هيكل السفينة البريطانية «بتريل»، وارتد القصف إلى الفنادق القائمة على الشاطئ فحطم زجاجها حتى أصابت الشظايا أنف جيم... وعندما أطلقت قذيفة ثانية من البرج الخلفي للسفينة الحربية وثب جيم مرتدًا إلى فراشه باكياً، وما لبث أن تمالك واختبأ خلف دعائم السرير.

وعزز الطراد الياباني «أيد زومو» المرباط قرب القنصلية اليابانية الهجوم وفتح النار بالمثل، وأخذت مدافعه تتوهج من خلال الدخان الذي كان ينبعث من مداخنه الثلاث منعقدًا فوق المياه بحركة أفعوانية سوداء، واحتجبت السفينة «بتريل» خلف غمامة كبيرة انبعثت من تحتها ألسنة النيران المضطربة ينعكس وهجها في المياه... وشوهدت طائرتان مقاتلتان يابانيتان تحلقان فوق الميناء على ارتفاع منخفض حتى استطاع جيم أن يبصر الطيارين في كابيتي القيادة... وانتشرت جموع الصينيين عبر خطوط الترام يحتمون بالأرصفة أو يلجأون إلى مداخل الفنادق.

- جيمي! ماذا تفعل؟

هكذا سمع جيم صوت أبيه الذي اندفع حافيًا إلى غرفة النوم.. وراح يحرق متحيرًا إلى الأثاث وكأنه لا يستطيع أن يتعرف على شيء في هذه الغرفة من جناحه الخاص.. ومضى ينادي:

- جيمي! ابتعد عن النافذة! البس ملابسك ونفذ ما تقوله لك أمك! سترك الفندق خلال ثلاث دقائق!

وبدا أن الأب لم يلاحظ وجود ولده بالزي المدرسي والسترة

الرياضية... وبينما حجبوا عن أعينهم وهج القذائف الذي يخطف الأبصار، وقع انفجار هائل من منطقة وسط النهر... وفي مثل صواريخ تتقاذف من ألعاب نارية، حلقت في الهواء كتل محترقة من السفينة «بتريل» ثم هوت في المياه في «تشيش» شديد، حتى لقد أحس جيم بجمود في أطرافه من فرط الدوي والدخان... واندفع نزلاء الفندق يتراكمون في الأروقة... ووقفت إنجليزية عجوز تصرخ في تجويف المصعد... وجلس جيم فوق الفراش وأخذ يتابع المعركة الحامية... كانت لا تمر إلا ثوان معدودة ثم ينبعث وميض متصل... فإن بحارة السفينة البريطانية «بتريل» أخذوا يردون على الهجوم... فقد دعما أحد المدافع على ظهر السفينة، وبدأوا يوجهون قذائفهم إلى الطراد «أيد زومو».. وما لبث جيم أن سمع صوت أمه تهتف إليه وهي جاثية قرب الباب الموصل بينهما:

- جيمي! تمدد على الأرض!

وفي خطفة بين توالي القصف جذبته بعيداً عن النوافذ المرتجة وأجلسه فوق السجادة.. فقال لها:

- هل سأذهب إلى المدرسة؟ اليوم امتحان الدين.

- لا يا جيمي... سيكون اليوم عطلة مدرسية... سنرى إن كان يانج يمكنه أن يذهب بنا إلى البيت.

إن جيم قد تأثر بما بداله من هدوئها... وما إن ارتدى أبواه ملابسهما حتى تأهبوا لمغادرة الفندق... وكان جمع من النزلاء الأوروبيين والأمريكيين محتشدين حول المصاعد... إنهم رفضوا النزول في السلالم، ووقفوا يدقون على أبواب المنافذ المشبكة ويصيحون في

تجويف المصاعد... وكانوا يحملون حقائب الأمتعة ويلبسون القبعات والمعاطف، وكأنما اعتزموا الإبحار بأول سفينة إلى هونج كونج... وقد انضمت والدته إليهم، ولكن والده أخذ بذراعها وشقوا طريقهم إلى السلاالم.

وسبقهما جيم في الوصول إلى ردهة المدخل، فوجد الطهاة الصينيين ونزلاء الأدوار الأدنى وموظفي الفندق من روسيا البيضاء جالسين القرفصاء خلف الأثاث الجلدي وأصص النخيل الزخرفية، غير أن والد جيم سبقهما إلى الأبواب الدوارة في المدخل.

لقد توقف إطلاق المدافع... وأخذت أفواج الصينيين تتراكم على امتداد النهر فيما بين مركبات الترام والسيارات الواقفة... وكانت سحب الدخان تغطي النهر، لا يبرز من ثناياها سوى الصواري العلوية، للطراد «أيد زومو» والسفينة الأمريكية «وايك»... ومن جوار الحدائق العمومية كانت مدخنة السفن الحربية اليابانية العتيقة تنفث دخاناً أقرب إلى السناج.

أما السفينة البريطانية «بتريل» فقد كانت تغرق وهي في مرساها... وشاهد جيم بحارتها مصطفين على السطح في مقدمة السفينة، منتظرين دورهم في النزول إلى زورق النجاة الملحق بها... أخذت دبابة يابانية تتقدم بحذاء النهر واحتكاكها بخطوط الترام يذكي الشرر فيما حولها... ولاحت طائرتان مقاتلتان تحلقان على ارتفاع منخفض... وبدأت كتيبة مشاة البحرية اليابانية تزحف على امتداد الشاطئ، فيما أسرعت سرية البنادق المشرعة السونكيات شطر القنصلية البريطانية يتقدمها ضابط

مسلح بطبنجة موزار.

- ها هي ذي السيارة هناك! علينا أن نجري!

قال والد جيم هذا وهو يأخذ بيده ويد أمه يدفعهما إلى الشارع، وفي الحال صدمه حمال كان يمر عن كثر وأوقعه على الأرض... فتمدد جيم مشدوهاً بين الأقدام المتلاحقة، متوقعاً أن يعود الحمال الصيني العاري الصدر ويعتذر له... ثم ما لبث أن استجمع نفسه ونهض قائماً ينفذ التراب عن سترته الرياضية وقلنسوته وتبع أبويه إلى مكان السيارة التي كانت مرابطة أمام نادي شنغهاي... وكان جمع من النساء الصينيات اللاتي أدركهن الإغواء جالسات على درجات المدخل يتفقدن حقائب أيديهن مختنقات الأنفاس بدخان وقود الديزل الذي كان يهب عبر النهر من هيكل السفينة الجانحة «بتريل».

وعندما اتجهوا إلى طريق النهر كانت الدبابة اليابانية قد وصلت إلى فندق بالاس... لقد تجمع حوله موظفو الفندق ونزلاؤه الأوروبيون ممسكين بقبعاتهم وحقائبهم.. واندفعت أمام الدبابة دراجتان بخاريتان بصندوقين جانبيين بكل منهما جندي مسلح، راحتا تحاولان إفساح الطريق في خضم عربات اليد وعربات «الريكشة» وعربات الخيل وطوائف الحمالين الثقيلين ببالات القطن الخام المحمولة على عواتقهم.

وعندما انحشرت السيارة الباكار في وسط هذا الخضم المائج ما لبث والد جيم أن فتح الباب المجاور له قائلاً لذويه:

- انتظروا هنا! خذ بالك من أمك يا جيمي!

وسمعت أصوات المدافع الرشاشة آتية من مكان مشاة البحرية اليابانيين الذين أسروا السفينة الأمريكية «وايك»... وأخذ الجنود القائمون فوق القنطرة يطلقون النار على البحارة البريطانيين الذين راحوا يسبحون إلى الشاطئ من السفينة البريطانية «بتريل»... وبدأ زورق النجاة من هذه السفينة يغوص في المياه الضحلة التي كانت تغطي مسطحات الطمي أسفل أرصفة المستوطنة الفرنسية... وكان البحارة ينزلون حتى أفخاذهم في الوحل الأسود والدماء تسيل من سواعدهم مدراة... وسقط ضابط صف جريح في المياه، وأخذت المياه تجرفه شطر القواعد المظلمة في الميناء... وارتمى البحارة مغلوبين على أمرهم في الوحل فيما كان المد المتسارع يحتويهم... وفي نفس الوقت أخذت الورود الصناعية الجنائزية التي تمتلئ بها المنطقة تزحف عليهم وتكاثر من حولهم.

وشاهد جيم أباه يدفع الحمّالين الذين ازدحم بهم الرصيف البحري، حيث خف إليه جمع من البريطانيين خارجين من نادي شنغهاي وهم يخلعون ستراتهم ومعطفهم ويشمرون عن سواعدهم، ثم أخذوا يقفزون إلى المياه الموحلة التي غاصوا فيها حتى أفخاذهم... وكان مشاة البحرية اليابانيون على ظهر السفينة الأمريكية «وايك» لا يزالون يطلقون النار على زورق النجاة، غير أن اثنين من البريطانيين المدنيين استطاعا الوصول إلى بحار جريح... فأمسكا به من تحت الإبطين وسحبا إلى مسطحات الوحل... وأما والد جيم فقد خاض في الوحل بيديه... وارتفع المد إلى صدره عندما استطاع أن يمسك بضابط

الصف الجريح المنجرف في شطر القواعد المظلمة... فسحبه إلى المياه الضحلة وركع بجانبه فوق الوحل اللزج وهو منهوك القوى... وتمكن المنقذون الآخرون من الوصول إلى الزورق الغارق وانتشال بقية البحارة الجرحى حتى سقطوا معهم في المياه، ثم أنشأوا يسبحون بهم إلى الشاطئ حيث امتدت إليهم سواعد غيرهم من المواطنين البريطانيين تجذبهم إلى مسطحات الوحل.

ذلك وقد انعقدت سحب الدخان المنبعث من الزيوت المحترقة في السفينة «بتريل» حتى غطت حركة المرور المتشابكة والزحف الياباني... وفيما فتح جيم نافذة السيارة الباكار أحس بالسيارة تدفع إلى الأمام ثم تهتز بعنف على الجانبين، وهوى زجاج الحاجز الأمامي محطماً متناثراً فوق المقاعد... ووقع جيم على أرضية السيارة واصطدمت أمه في رأسها بسناد الباب وهي تهتف به قائلة:

- جيمي! اخرج من السيارة!

وفي ذهول فتحت الباب وخرجت إلى الطريق وهي تتناول حقيبة يدها من المقعد المتأرجح... ومن خلفهم كانت الدبابة اليابانية تشق طريقها بقوة حتى صدمت سيارة لنكولن كان بها راقصتان صينيتان مما أدى إلى اشتباك السيارة بسيارتهما الباكار... وهنا قالت له أمه مرة أخرى:

- أسرع يا جيم! علينا أن نذهب إلى المنزل!

وقفز جيم من السيارة إلى الطريق وأخذ يروغ بين «الريكشات» المحملة بأكياس الأرز... وتقدمت الدبابة إلى الأمام والدخان يندفع

نفثاً من فتحات محركاتها... ولمح جيم أمه وهي تدفع دفعاً بين زحام الصينيين والأوروبيين الذين كانوا مشاة البحرية يسوقونهم في طريق النهر... وجاءت دبابة ثانية تتبع الدبابة الأولى... وأعقبهما صف من الشاحنات المكتظة بالجنود اليابانيين.

وبدأ الجنود اليابانيون على الشاطئ يدفعون جموع الجماهير بعيداً عن رصيف الميناء، مجبرين الصينيين والأوروبيين على النزول من «ريكشاتهم» وسياراتهم... واختفت والددة جيم عن نظره بعد أن حجبها طواير السيارات الحربية... ولم يلبث جيم أن اندفع إلى ناحية الرصيف اللزجة متجهاً إلى مكان أبيه.

وقال أبوه وكان قاعداً في مجرى المياه وبجانبه جسد ضابط الصف:

- إننا أنقذناهم! هذا شاب كريم يا جيمي!

لقد فقد أبوه نظارته وفردة من حذائه، وبدا بنظونه مسوداً من الزيت، بيد أنه كان لا يزال بياقته البيضاء وربطة عنقه... وقد أضاف:

- إنها تغرق!

فقد دوى انفجار عنيف عبر النهر صدر من السفينة البريطانية الجانحة «بتريل»، مقترناً بانفداع بخار شديد من سطحها، وتصاعدت سحابة من الدخان الكثيف انعقدت فوق المياه وأخذت تنتشر والسفينة تغيب عن الأنظار.

لم يتمالك والد جيم أن تمدد فوق الوحل، وقرص جيم بجانبه... وتباعدت أصوات قعقة محركات الدبابات وصيحات الأوامر الصادرة

عن ضباط الصف اليابانيين وأزيز الطائرات المحلقة... وبدأت طلائع
حطام السفينة تصل إليهم، فيما سرى وميض ضوء متراقص على امتداد
أرصفة الميناء كأنه لهب مدفعية صامت.. وتتابع من فوقهم زحف مئات
الجنود اليابانيين شاكي السلاح يكملون احتلال المدينة المائجة.



(٥)

هروب من المستشفى

- متسويشي! زيوين! آه! ناكاجيما! آه!

رقد جيم في سريريه الصغير في عنبر الأطفال منصتاً إلى الجندي الياباني وهو ينادي أسماء الطائرات المحلقة فوق المستشفى... كانت السماء فوق شنغهاي مليئة بالطائرات... ومع أن الجندي لم يكن يعرف سوى نوعين فقط منها، إلا أنه عجز عن متابعة هذا النشاط الجوي الذي لا ينتهي.

لقد أمضى جيم ثلاثة أيام وهو في راحة تامة في الطابق العلوي بمستشفى سان ماري في القسم الفرنسي بالمدينة... ولم يكن يقلقه سوى دخان سيجارة الجندي وهو يدخن خلصة ومتابعة هوايته في عد الطائرات المحلقة تباعاً... وفي وحدة جيم في هذا العنبر كان يفكر في أمه وأبيه، متوسلاً أن يشخصاً إليه عاجلاً لزيارته... وفي خلال ذلك لم يكف عن الإنصات إلى الطائرات البحرية المحلقة من القاعدة الجوية البحرية في نانتاو.

وفي الردهة التي تحت هذا العنبر سمع أصوات ممرضات الإرسالية الفرنسية وهن يتجادلن مع أفراد البوليس الحربي الياباني الذين احتلوا هذا الجناح من المستشفى... وعلى الرغم من صلابة المرتبة التي رقد جيم فوقها ونصاعة الجدران البيضاء التي علفت فوقها الأيقونات الدينية وكذلك روائح المطهرات الطبية النفاذة فقد كان من الصعب عليه أن يسلم بأن الحرب قد بدأت أخيراً فعلاً... إن جواً من الغرابة قد شمل كل شيء، وكل سحنة كانت تنظر إليه بدت له مستغربة.

كان بوسعه أن يتذكر حفل الدكتور لوكوود في هانججواو، والحواة الصينيين الذين كانوا يتحولون إلى طيور.. غير أن تدمير السفينة «بتريل»، والدبابة التي هشمت سيارة الباكار، ومدافع الطراد «أيد زومو» الضخمة، كل ذلك بدا له وكأنه من عالم غير واقعي، حتى ليكاد أن يتوقع دخول يانج سائق سيارة الأسرة إلى العنبر ليقول له إن كل ذلك كان في حلقة سينمائية دارت في فيلم باستوديوهات شنغهاي!

إنما الذي كان حقيقة واقعة دون شك، هو: مسطحات الوحل التي ساعد والده في سحب البحارة الجرحى إليها، حيث جلسوا مدى ست ساعات قرب ضابط الصف البريطاني الذي قضى نجه... ويبدو كأن اليابانيين قد دهشوا كل الدهشة من سرعة هجومهم إلى حد أنهم اضطروا إلى الانتظار قبلما استوعبوا تماماً مغزى انتصارهم... ففي غضون ساعات قلائل من الهجوم على ميناء بيرل هاربر الأمريكي، استطاع اليابانيون بجيوشهم التي كانت تطوق شنغهاي الاستيلاء على المدينة الدولية... وقام مشاة البحرية الذين أسروا السفينة الأمريكية

«وايك» واحتلوا منطقة الميناء بالاحتفال بانتصارهم في صورة عرض عسكري في مواجهة منطقة الفنادق ودور البنوك.

وفي خلال ذلك فإن الجرحى الناجين من النار في السفينة «بتريل» وكذلك المدنيين البريطانيين الذين ساعدوا في إنقاذهم قد بقوا حيث هم فوق مسطحات الوحل قرب مصب المجاري... ثم جاءت قوة مسلحة من البوليس الحربي وشقت طريقها بينهم... فاعتقلوا الكابتن «بولكنهون» ربان السفينة المصاب بجرح في رأسه وضابط السفينة الأول وذهبوا بهما، تاركين الباقيين تحت لفح الشمس.

ولما وافت الساعة العاشرة فتح اليابانيون طريق الميناء، وسمح للألوف من الصينيين المتخوفين والأوروبيين المحايدين بالمرور في منطقة الأرصفة، حيث توقفوا لمشاهدة بحارة السفينة «بتريل» الجرحى، فيما كانت راية «الشمس المشرقة» ترفع فوق صاري السفينة الأمريكية «وايك»... وراح جيم الذي كان يرتعد من البرد بجانب أبيه في شمس ديسمبر الفاترة يتطلع إلى الأعين الواهجة للصينيين المحتشدين على الأرصفة، فرأى فيها الإذلال المطبق لقوات الحلفاء على أيدي إمبراطورية الشمس.

ثم كان من حسن الحظ بعد ساعات قلائل أن وفد فريق من السفارة الألمانية وسفارة حكومة فيشي الفرنسية المتعاونة وشقوا طريقهم بين الجموع.. وإذ ذاك أعربوا عن احتجاجهم الشديد على معاملة الجرحى البريطانيين، فانهاز اليابانيون إلى اللين، ومن ثم نقل الأسرى إلى مستشفى سان ماري.

ومنذ حل جيم بالمستشفى، انحصر تفكيره في مبارحته والعودة إلى أمه في بيتهم بأمهرست أفينو... ولأول وهلة رأى الطبيب الفرنسي الذي ضمد تسليخات ركبتيه والممرضات اللاتي غسلنه أنه تلميذ بريطاني، وجعلوا يحاولون العمل على إخلاء سبيله... على أن اليابانيين استولوا على جناح كامل في المستشفى وأجلوا عنه المرضى الصينيين، ثم أقاموا حارساً على كل طابق... وقد أسند إلى جندي فتى حراسة عنبر الأطفال في الطابق العلوي، حيث جعل يمضي الوقت بطلب سجائر من الراهبات والمناداة بأسماء الطائرات المحلقة في الجو.

ولقد تكفلت راهبة صينية بإبلاغ جيم أن والده موجود بين المدنيين الآخرين في عنبر تحتي وهو في دور النقاها من نوبة قلبية نتيجة لما تعرض له ولكنه سيكون مستعداً لمغادرة المستشفى بعد أيام قلائل...

وفي غضون ذلك بدأت القيادة العليا اليابانية، لاعتبارات خاصة بها، الإشادة ببسالة الكابتن بولكنهون ورجاله... ففي اليوم التالي أوفد قائد الطراد «أيد زومو» فريقاً من ضباطه بزيهم الرسمي إلى المستشفى وقاموا بتحية البحارة الجرحى بالانحناء أمام كل منهم طبقاً للأعراف اليابانية... وصدرت صحيفة «شنغهاي تيمز» الناطقة بالإنجليزية والمملوكة للبريطانيين وإن كانت متعاطفة مع اليابانيين - وقد تصدرت صفحتها الأولى صورة للباخرة «بتريل» وتضمنت مقالاً يشيد ببسالة طاقمها... وكان العنوان الرئيس يصف الهجوم على الأسطول الأمريكي في ميناء بيرل هاربر وتدمير قطار كلارك في مانيلا بالفلبين، إلى جانب رسوم تبين مشاهد الدخان المتصاعد من الأسطول الأمريكي المدمر.

وجال بخاطر جيم أنه وقد كسب اليابانيون الحرب، فلعل الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي في شنغهاي... وعندما أراه الجندي الياباني الفتى الحارس تلك الصحيفة راح يتفحص بعناية صور القاذفات المقاتلة وهي تقلع من حاملات الطائرات اليابانية - وهي مشاهد بدا له أنه يتذكرها من خلال أحلامه في غرفة نومه بفندق بالاس عشية بدء الحرب.

وفيما مضى الجندي يردد أسماء الطائرات المحلقة في الجو مفاخرًا وجيم يفكر كيف يتسنى له أن يرى والده، إذ دوى صوت الرقيب بأمر لأفراد حرس المستشفى... وسرعان ما فزع الجندي الفتى من هذا الرقيب المرهوب ذي البأس في سلك الجيش الياباني، فطوح بعقب سيجارته، وتناول بندقيته، واندفع خارجًا من العنبر، محذرًا جيم بأصبعه.

وما إن بقي جيم وحده حتى وثب من فراشه مبتهجًا... ووقع نظره من خلال النافذة على مجموعة من الأيتام الصينيين الناقهين في شرفة الجناح المجاور، وقد ظلوا وقتًا طويلاً يحدقون إليه... وكان ثمة سلم للحريق يوصل بين الجناحين ولم يلبث أن اجتاز العنبر حافي القدمين إلى الباب الخلفي فرأى سلالم حديدية تمتد إلى الجناح المواجه، فأسرع يهبط السلالم واجتاز المعبر المؤدي إلى العنبر الذي من تحته... كان يعلم أن والده موجود مع الناجين من السفينة «بتريل» في مكان ما من هذا الطابق... وكانت النوافذ المطلة على الممر مطلية بالقار الأسود... فمشى في الممر الممتد حول الجناح، إلى بابه الخلفي،

وجده موصلًا... وكان فوق سطح المبنى جندي ياباني مسلح ما لبث أن صاح في الفراغ بين الأجنحة... وإذا الجنود يجرون بالسونكيات عبر ساحة المستشفى، واندفع موتوسيكل بفندق جانبي به جنود مسلحون إلى المدخل... وسمع جيم وقع أقدام وكعوب بنادق ترن في السلالم الحجرية، مشفوعة بأصوات احتجاج من جانب الراهبات الفرنسيات... لم يلبث جيم أن قرفص بين أكياس الرمل التي كانت خلف الباب المغلق... وسرى إلى سمعه دوي نفير في طريق فوش خارج المستشفى، فتأكد أن قوى الاحتلال الياباني أخذت تفتش عنه في كل مكان.

وبعد قليل سمع صوت فتح مزلاج الباب الموصل، وانفتح الباب إلى داخل العنبر المعتم، وفي ضوء الشمس الحسير وقع نظره داخل غرفة كأنها الكهف على حشد من الرجال تكدسوا فيها مضمدي الجروح، ومنهم من رقدوا على الأرض فيما بين الأسرة، ولمح جنودًا يابانيين بالبنادق يزيحون جانبًا الراهبات وهم يحملون نقالات من القماش.

وأخيرًا وقع نظر رقيب ياباني على جيم وهو مقرص بالبيجاما فيما بين أكياس الرمل، فما لبث أن صفق الباب بعنف، وسمعه جيم وهو يصرخ لا طمًا أحد الجنود بقبضته.

«وبعد ساعة ذهب الجميع، تاركين جيم وحده في عنبر الأطفال... وفيما دوى صوت النفير في طريق فوش، راقب جيم سيارة نقل عسكرية تدخل إلى حرم المستشفى... وكان بها بحارة السفينة «بتريل» والمدنيون البريطانيون الثمانية الذين ساعدوا في إنقاذهم.

ولم يتهياً لجيم أن يرى أباه، بيد أن الراهبة الفرنسية أخبرته أنه سار على قدميه إلى السيارة التي نقلتهم جميعاً إلى السجن الحربي في هونجكيو... وأضافت تقول:

- إن أحد بحارتكم هرب هذا الصباح... وهذا موقف سيئ جداً لنا؟

وحدقت فيه الراهبة مستاءة.. وما كان استيأؤها إلا لما آنتسته من عجزه عن تغيير الظروف المحيطة به... ومضت قائلة، وهي تشير إلى راهبة صينية كانت تضع ملابسه بعد غسلها وكيها فوق الفراش:

- أنت تقيم في أمهرست أفينو؟ لا بد أن تذهب إلى دارك... إن أمك سوف تتكفل بك.

هكذا فهم جيم أنهم يريدون التخلص منه... فلبس ملابسه وسوى ربطة عنقه المدرسية وقلنسوته... وأراد أن يشكر الممرضة الراهبة، غير أنها كانت قد ابتعدت لرعاية من تشرف عليهم من الأيتام.



(٦)

الشباب والسكين

خرج سكان شنغهاي إلى الشوارع وكأنهم يحتفلون باستيلاء اليابانيين على المدينة الدولية...

ومع ذلك، فعندما وصل جيم إلى ملتقى طريقي فوش وبيتان رأى عريف شرطة بريطانيًا، مع زميلين له من السيخ تابعين لشرطة شنغهاي، ما زالوا يوجهون حركة المرور الحاشدة، تحت رقابة جندي ياباني واحد وقف من خلفهم، على حين جلس جنود المشاة اليابانيون عن كذب في سياراتهم وكأنهم يتفرجون، فعلى مبعدة من عدة ضباط، وقفوا خارج إحدى المؤسسات وهم يسوون قفازاتهم.

وبعد مسيرة شاقة بين الجموع الزاخرة قرابة ميلين غلبه التعب والإجهد وفكر أن يستريح بعض الوقت، لولا أنه شعر بأن هناك من يتبع خطواته في شخص شاب صيني ربما كان من أفراد العصابات الصغيرة المنتشرة في كل مكان، خصوصًا عصابات الخطف المعروفة في شنغهاي... وبدا له أن الشاب ربما كان مهتمًا بسترته الرياضية

وحذائه الجلدي وساعة يده الثمينة وقلم الحبر الأمريكي المثبت في جيب صدره.

وما لبث الشاب أن اخترق تدفق المارة واقترب من جيم قائلاً:

- ولد أمريكي؟

- ... إنجليزي... إنني في انتظار سائق سيارتي.

- إنجليزي؟ تعال من هنا.

- لا... السائق هناك.

غير أن الشاب اندفع نحوه وأمسك بمعصمه، بينما راحت أصابعه تعبث بسوار الساعة المعدني محاولاً فك القفل... فلطم جيم يد الشاب، ولكنه استعاد قبضته حول ساعد جيم، واستل من داخل سترته الجلدية سكيناً محاولاً أن يقطع يده.

أسرع جيم بانتزاع ذراعه، وقبل أن يمسك به الشاب مرة أخرى ركل بقدمه سلة دجاج في حجر امرأة صينية كانت على الرصيف عن كثب، وما لبث الشاب أن تعثر فيها وأخذ يضرب الدجاج الصارخ بقدمه، فانتهاز جيم الفرصة وأسرع بالإفلات ومراوغة مهاجمه في زحام المارة ومركبات الترام العابرة.

ومع ذلك لم يكف الشاب الصيني عن تعقب خطواته دون أن يستطيع جيم الاستنجاد بأحد في الفوضى السائدة، موقناً أنه حتى الجنود اليابانيين وشرطة فيشي المتعاونين معهم لن يقدموا له أدنى مساعدة.

وعندما اقترب جيم من الملعب الرياضي شعر بالشاب الصيني

يختطف قلنسوته ويمسك بكتفيه... فانتزع جيم نفسه بقوة وأخذ يجري عبر الشارع المزدحم في اتجاه نقطة التفتيش حيث حاول مساعد صيني بملابس فيشي أن يضربه بهراوته ليرده عن العبور بين الأسلاك الشائكة لدى النقطة، لولا أن عين جندي ياباني لمحت أحرف الكتابة اليابانية فوق الشريط المعدني الذي انتزعه جيم من طائرة القتال المحطمة في مطار هانجباو وأخذ يلوح به أمام الجندي، فتسامح الجندي مع هذا الصبي وأومأ له بالمرور.

هكذا واصل جيم طريقه في عداد المارة من نقطة التفتيش، بينما اختفى مطارده عن نظره مرتدًا إلى طريق آخر... ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها جيم أن اليابانيين وإن كانوا أعداءه من الناحية الرسمية، فهم حماة الوحيدون في شنغهاي.

وأخيرًا وصل جيم إلى «أمهرست أفينو» وهو يأسو رضوض يده ويغالب غضبه من فقد قلنسوته المدرسية... كان الشارع الكبير مهجورًا، خلوا حتى من المتسول الذي كان يجلس لدى البوابة... فأسرع يجتاز ممر السيارات وهو يتطلع إلى لقاء أمه جالسة فوق الأريكة في غرفة نومها ومتحذثة عن عيد الميلاد... وافترض سلفًا أنهم لن يتحدثوا قط عن الحرب.

وأول ما وقع عليه نظره عند الباب الأمامي هو وجود رقعة تعلوها كتابة يابانية مسمرة به، وكانت ممهورة بأختام الشمع وأرقام تسجيلية... فضغط على الجرس وهو يشعر الآن بإعياء شديد... ولكن البيت كان مسربلاً بالصمت... ما من مجيب... وما من أدنى حركة حتى في جناح

الخدم... بل كان المحرك الخاص بحمام السباحة موقوفاً كذلك...
وعندما رفع بصره إلى نوافذ غرفة نومه وجد مصاريع جهاز التكيف
قد أوصدت.

لقد أصغى جيم طويلاً إلى الجرس وهو يرن في أرجاء البيت
الصامت... ولم يتمالك أن جلس فوق الدرجات المصقولة يتخفف من
إعيائه وهو لا يستطيع أن يتصور كيف أن والديه وفيرا المربية والخدم
التسعة والسائق والبستاني، يمكن أن يغادروا البيت جميعاً!

هكذا لم يجد جيم مناصاً من تسلق السور الحجري وهي عملية
اعتادها من قبل في لعبه ومرحه، وهبط منه إلى الحديقة... كانت علائم
الإهمال بادية في حشائشها وأشجارها... وبدأ حوض السباحة وقد
تناقصت مياهه وعلتها أعقاب سجاجير متناثرة... ولمح دراجته ملقاة
فوق الدرجات الصاعدة إلى الشرفة، إهمالاً من البستاني ولا شك!

وعندما تحول إلى جناح الخدم خلف البيت وجد بابه موصداً...
ولم يسمع أدنى صوت من داخل البيت... وكان بجانب سلالم المطبخ
مستودع القمامة المغطى، يمتد منه أنبوب واسع موصل إلى المطبخ
تنحدر فيه القمامة إلى المستودع.. وتذكر جيم أنه قبل عامين فاجأ أمه
بالتسلق خلال الأنبوب وأفزعها وهي تشرف على إعداد وليمة للضيوف
بمساعدة الطاهي... وفي هذه المرة لم يكن ثمة خطر من التسلق
والموتور موقوف، وهكذا رفع غطاء المستودع وتسلق الأنبوب ماراً
من خلال جهازه المروحي المعطل، وعندما أزاح الغطاء الداخلي بدا له
المطبخ المعهود بأرضيته البيضاء.

- فيرا! أنا هنا في البيت!

لكن لم يجب مجيب... ولم يبد له البيت معتمًا مثلما بدا الآن... ولم يلبث أن هبط وخاض في المياه المتجمعة حول الثلاجة ودلف إلى الصالة المهجورة... وفيما أخذ يرتقي السلالم إلى غرفة نوم أمه بدا له الهواء محتبسًا عطناً برائحة عرق غريبة.

شاهد ملابس أمه مبعثرة في الفراش المشوش، وحقائب الملابس ملقاة على الأرض... ثم أن شخصًا ما قد بعثر مشابك شعرها وزجاجات عطرها من فوق طاولة الزينة، ورأى البودرة تغطي الأرض المصقولة، وآثار أقدام كثيرة منطبعة في المسحوق، بينما آثار قدمي أمه حافية متسارعة بين آثار الأقدام الغليظة كالذي يتخلف عن حفل راقص.

جلس جيم فوق الفراش يتطلع إلى صورته المشققة في المرآة... فقد قذفت المرآة بأداة ثقيلة شققت زجاجها، حتى لاح له وكأن صورته تتطاير عبر الغرفة.

أخيرًا غلبه النوم في سرير أمه وعطر قميص نومها الحريري يسري في أنفه.



(٧)

حوض السباحة الفارغ

توقف الزمن في أمهرست أفينو جامدًا جمود أستار الأتربة التي رانت على الحوائط والغرف، وطوت بين حناياها جيم في روحاته وغدواته في أرجاء البيت المهجور... وعلى مدار أيام ثلاثة ما فتى ينتظر عودة أمه وأبيه... وكان كل صباح يتسلق السقف المنحدر فوق نافذة غرفة نومه ويحدق بنظره في الشوارع السكنية في الضواحي الغربية من شنغهاي، مراقبًا طوابير الدبابات اليابانية وهي تتحرك إلى داخل المدينة قادمة من الريف، وهو ينشغل آلة برتق سترته التي مزقتها مدية الشاب الصيني، ويكاد يستسلم آلة أخرى للضجر الذي يغالبه في تشوقه لرؤية والديه عائدين مع يانج في السيارة الباكار.

وكانت أفواج كثيرة من الطائرات تحلق من فوقه وهو يمضي الساعات في إحصاء عددها ونوعها... فإذا مل هذا قضى أكثر وقته ممددًا على أريكة أمه في مخدعها... وكم عاودته ذكرها وهما يمضيان الساعات الطوال في إتمام واجباته المدرسية في اللغة اللاتينية، وفي

الاستماع إلى الحكايات التي كانت تقصها عليه عن طفولتها في إنجلترا - تلك البلاد التي هي أكثر غرابة من الصين، والتي سيذهب إلى مدارسها بعد أن تضع الحرب أوزارها... وكان الطعام في الثلاثية قد بدأت تنبعث منه روائح غير مرضية، غير أن دواليب (الكرار) كانت مليئة بالفاكهة المعلبة والبسكويت واللحوم المحفوظة، وهي أطيب كان جيم مشغوفًا بها... فبدأ يأكل وجباته في غرفة الطعام، مختارًا مكانه المعتاد لدى المائدة... وفي الأمسيات عندما كان يقدر ألا يعود والده في ذلك اليوم، ينام في غرفة نومه الخاصة في الطابق العلوي... وعندئذ كانت أحلام الحرب تعاوده، خاصة البوارج الحربية اليابانية وهي تشق أمواج نهر اليانجتسي، مغرقة بمدافعها السفينة البريطانية (بتريل) واندفاعه مع أبيه لإنقاذ بحارتها الجرحى.

وفي اليوم الرابع عندما هبط لتناول إفطاره اكتشف أنه قد نسي إقفال صنبور المطبخ، فإذا المياه المختزنة في الصهرج قد انسكبت عن آخرها... وكان (الكرار) مليئًا بزجاجات مياه الصودا، بيد أنه بدأ الآن يتقبل احتمال عدم عودة أمه وأبيه إلى البيت.

ورغبة في رفع معنوياته، فقد قرر جيم أن يزور بيوت أصحابه المقربين باتريك ماكستيد والتوأم ريموند... وهكذا انتقل إلى الحديقة، لأخذ دراجته، فشاهد حوض السباحة وقد انحسرت مياهه طيلة الليل، وبدا قاعه لزجًا بالرواسب والأوراق، واسترعى نظره بينها قطعة عملة فضية من فئة نصف جنيه إنجليزي كان والده قد ألقاها في الحوض وانتشل القطعة المعدنية ووضعها في جيبه... ثم غادر الحديقة وقاد

دراجه إلى خارج المنزل وأغلق الباب الأمامي خلفه.

واتجه جيم إلى بيت التوأم ريموند في طريق كولومبيا القريب...
وعندما وصل إلى البيت وجد رقعة باليابانية ملصقة على الباب، وعندما
فتح الباب بدت له خادمتان صينيتان تنقلان طاولة زينة، فسألتهما:

- هل كليفورد هنا؟ أو ديريك؟

كان جيم يعرف الخادمتين، وانتظر أن تردا عليه بإنجليزيتهما
الريكية... غير أنهما تجاهلتاه وواصلتا حمل الطاولة، وسمع إحداهما
تقول:

- هو جيم يا مسز ريموند..

فحاول جيم أن يمر بجانبهما، وإذا إحداهما تدنو منه وتصفعه على
وجهه.

ذهل جيم من أثر الصفعة، ولم يملك إلا أن يعود إلى دراجته...
فهو لم يتلق مثل هذه اللطمة العنيفة من قبل، سواء في المدرسة أثناء
مباريات الملاكمة أو في اشتباكات مع عصبة الألمان في طريق فوش...
بيد أنه تحمل الألم وغالب البكاء... وخطر له أنهما فعلتا به هذا ربما
انتقامًا لإساءة صدرت في الماضي من جانبه أو جانب الأخوين التوأم.

واستأنف جيم طريقه إلى مسكن أسرة ماكستيد في الحي الفرنسي
وهو يشعر بالتهاب في وجهه وتخلخل في إحدى أسنان فكاه الأسفل من
عنف اللطمة الغادرة... إنه يريد رؤية أمه وأبيه، وإنه ليود أن يرى نهاية
للحرب عاجلاً، حتى لو تسنى هذا قبل انصرام يومه!

واجتاز جيم نقطة التفتيش اليابانية في موكب طويل كان خليطاً من الأوروبيين والصينيين بين راكبين وراجلين وحاملين أثقالاً من أكياس الأرز وحزم الحطب مما لم يمتحن بمثله من قبل، حتى إذا وصل إلى العمارة السكنية التي يقصدها كان في أشد حالات الإعياء والضنى.

واستقل جيم المصعد إلى الطابق السابع، منتهزاً هذه الفترة لتنظيف يديه ووجهه بدموعه وهو قليل الأمل في احتمال عودة مسز ريموند من سنغافورة..

كان باب الشقة مفتوحاً... فدخل جيم إلى الصالة حيث تعرف على معطف مستر ماكستيد الجلدي ملقى على الأرض... وشاهد من آثار البعثة والفوضى التي لمسها في مخدع أمه مكررة في كل غرف المسكن... فالأدراج المليئة بالملابس قد تناثرت محتوياتها فوق الأسرة، ودواليب الملابس المنهوبة مفتوحة على مصارعها فوق أكوام الأحذية، وحقائب الأمتعة ملقاة في كل مكان، وكأن الأسرة عجزت عن تقدير ما تأخذ وما تدع في غضون مهلة لا تتجاوز دقائق معدودة.

- باتريك!

وتردد جيم في دخول غرفة باتريك دون طرق الباب... ووجد مرتبة سريريه ملقاة على الأرض وستائر نوافذها متطاوذة في النوافذ المفتوحة... غير أن طائرة باتريك المصنوعة كانت لا تزال مدلاة من السقف.

لقد جذب جيم المرتبة إلى السرير وانطرح فوقها... ومن فرط ما استبد به من ألم في صدغه والإنهاك في بدنه كاد أن يغمض عن مقاومة الإغراء الذي تملكه للبقاء حيث هو والاستسلام للنوم في فراش صاحبه

المرتحل إلى أن تلوح بوادر نهاية الحرب.

لكنه أيقن أن عليه أن يواصل البحث عن أمه وأبيه قبل كل شيء
آخر، كابن بار.

* * *

بعد أن سحب جيم دراجته وخرج إلى الشارع، شاهد مباني شركة
شل البريطانية في الجانب المقابل وقد احتلها الجنود اليابانيون وأخذوا
ينقلون منها الأمتعة في سياراتهم العسكرية بعد أن أُجلي عنها الموظفون
وأسرهم... واسترعى نظره وجود رجل مسن واقف عن كذب وهو
يراقب هذا المشهد... وعلى الرغم من حلته البالية كان يرتدي صدر
قميص وأكمام بيضاء منشة... فتقدم إليه جيم قائلاً:

- مستر جرفتش... أنا هنا!

كان جيم يعرفه... فهو حارس مباني الشركة البريطانية، وكثيراً
ما لعب جيم مع أصحابه قرب كشك هذا الروسي عند مدخل الشركة
حيث كان يقيم مع أمه العجوز، منتهزاً تلك المناسبات للفوز ببعض
الرسوم التي يتقنها العجوز في (أتوجرافه) الخاص... وما لبث جيم أن
أضاف قائلاً:

- أهلاً يا مستر جرفتش... إنني أبحث عن أمي وأبي.

فأشار العجوز الروسي إلى وجه جيم المروض قائلاً:

- لكن كيف جئت إلى هنا؟ الدنيا كلها في حالة حرب، وأنت
لا تزال تتسكع بدراجتك..

وعندما سمع صوت ضابط الصف الياباني يسب أحد الحمّالين جذب الرجل جيم من ذراعه إلى خلف شجرة وفتح جريدة بيده وأراه صورة تخطيطية كبيرة تمثل بارجتين جبارتين تغرقان تحت وابل القنابل اليابانية... ومن الصورتين المنشورتين مع الرسم التخطيطي عرف جيم البارجتين (ريبالص) و (برنس أوف ويلز)، اللتين تباهت النشرات الإخبارية البريطانية بأن هاتين القلعتين البريطانيتين المستعصيتين على الغرق يمكنهما دحر السلاح البحري الياباني وحدهما!

قال مستر جرفتش متأملاً:

- ليس هذا مثلاً طيباً... كانت البارجتان بمثابة خط ماجينو الدفاعي المنيع عند الفرنسيين! ومن الحق أن يكون وجهك الآن محمراً!

- احمرار وجهي يا مستر جرفتش نتج عن وقوعي من فوق دراجتي. هكذا اضطر جيم إلى الكذب مكرهاً، بدافع الوطنية ودفاعاً عن الأسطول البريطاني! وتمادى جيم قائلاً:

- ... كنت منهمكاً في البحث عن أمي وأبي، وهي عملية صعبة كما تعرف..

- هذا مفهوم...

قال الرجل هذا وهو يتابع بنظره قافلة من السيارات العسكرية تمر بسرعة في حراسة جنود يابانيين وهي تقل جماعة من النساء البريطانيات مع أولادهن وقد جلسوا مكومين فوق حقائب أمتعة رخيصة ومراتب من لفائف الكاكي، وقدر جيم أنهم عائلات موظفين بريطانيين أسرى.

وقال مستر جرفتش وهو يدفع الصبي من كتفه:

- يا ولدي الصغير... اذهب معهم!

- لكن يا مستر جرفتش... لا يمكنني أن أذهب معهم! إنهم أسرى!

- اذهب! اركب دراجتك! لا يمكنك أن تعيش في الشوارع!

ولما وقف جيم ثابتاً في مكانه ربت العجوز على رأسه وعبر الطريق إلى الجانب الآخر مستأنفاً رقابته لما يحدث من خلف صحيفته، وكأنه يسجل نيابة عن شركة شل ما يجرده اليابانيون من مقتنيات الشركة، ومن عالمه المفقود!

وقال جيم أخيراً في رثاء للعجوز:

- سوف أعود وأراك مرة أخرى يا مستر جرفتش!

بيد أن جيم كان في رحلة العودة إلى أمهرست أفينو أكثر رثاء للبارجتين البريطانيتين... لقد بدا له أن النشرات الإخبارية البريطانية مليئة بالأكاذيب... وشاهد الأسطول الياباني وهو يغرق السفينة (بتريل)، ومن الواضح الآن أن بإمكان اليابانيين إغراق أي شيء... فيها هو ذا نصف الأسطول الأمريكي في الباسيفيك راقد في أعماق ميناء بيرل هاربر.. ولعل مستر جرفتش على حق، وكان يجدر به أن يلحق بالسيارات العسكرية اليابانية وأحمالها... وربما كان أبواه قد وصلا فعلاً إلى المعتقل الذي خصص للأسرى..

وهكذا استقر عزم جيم مكرهاً على تسليم نفسه لليابانيين... وعندما وصل إلى نقطة التفتيش في طريق فوش، حاول أن يكلم حراسها

اليابانيين الذين أوامأوا إليه أن يمضي قدماً مع غيره من العابرين، بيد أن جيم فتح عينيه ترقباً لرؤية أحد الرقباء المشرفين على كل شيء.

ولسبب ما بدا أن ثمة نقصاً في أعداد الرقباء في هذا اليوم... وعلى الرغم مما كان يشعر به جيم من تعب، فقد سلك الطريق الأبعد إلى بيته، غير أنه لم يصادف أحداً من الرقباء اليابانيين... ومهما يكن، فإنه عندما وصل إلى مدخل بيته في أمهرست أفينو، وقع نظره على سيارة ليموزين من طراز كريزلز وقفت أمام الباب الأمامي، ثم نزل منها ضابطان يابانيان وقفا يتفحصان البيت وهما يسويان ملابسهما.

هم جيم أن يتقدم نحوهما بالدراجة ليقول إنه يقيم في هذا المنزل وأنه مستعد للاستسلام، وإذا جندي ياباني يتقدم من خلف قائم البوابة الحجري ويمسك بعجلة الدراجة الأمامية بيده اليسرى، منشباً أصابعه في إطارها من خلال الأسلاك، ثم بصيحة غليظة دفع جيم إلى الخلف في كوم من الأتربة المتراكمة.



(٨)

رحلة فاشلة

عندما لم يجد جيم سبيلاً للاستسلام، عاد بدراجته المعطوبة إلى مسكن أسرة ماكستيد في الحي الفرنسي... ومنذ ذلك الحين ظل يقيم وحيداً في المساكن المهجورة في المدينة الدولية... وكانت أغلب هذه البيوت مملوكة للبريطانيين والأمريكيين، أو الهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين الأحرار - وقد سيقوا جميعاً إلى معتقلات الأسرى اليابانية بعد الهجوم على ميناء بيرل هاربر.

ومهما يكن فإن يومه الأول في مسكن ماكستيد كان حافلاً بالنشاط... فقد عمد إلى تنظيف سترته الرياضية وقميصه بمنشفة مبتلة... وعلى أي حال فقد رأى مزية في مظاهر الفاقة التي غلبت على مظهره، فلن يتعرض بعد الآن لطامع يحاول قطع يده!

وقد وجد (كرار) ماكستيد مليئاً بصناديق الويسكي، لكنه عثر معها على كمية من الزيتون والبسكويت.. فتناول إفطاراً محدوداً في غرفة الطعام، وتفرغ بعد ذلك لإصلاح ما عطب من دراجته على يد الجندي

الياباني... فهو في حاجة إلى هذه الأداة للتنقل في أرجاء شنغهاي بحثاً عن والديه ولتسليم نفسه لليابانيين.

ولما هبط جيم بدراجته إلى الشوارع في النهاية وجد شنغهاي قد تغيرت... إذ كان ألوف الجنود اليابانيين يجوبون الشوارع، وكانت نقط الحراسة المدعمة بأكياس الرمل متشرة في الطرقات الرئيسية... ومع أن أفواج الصينيين كانت تزحم الشوارع بعرباتهم اليدوية وريكشاتهم، فضلاً عن الراجلين على الأرصفة، فإنهم كانوا يمشون مطرقي الرؤوس، متحاشين الجنود اليابانيين المنبثين في كل مكان في غطرسه بادية.

وفي طواف جيم بالمدينة شاهد دور المقامرة وأوكار الأفيون خلف ميدان السباق وقد أغلقت أبوابها... كما أن حي البنوك الأجنبية والمباني التجارية قد أغلقت منافذه بشبابيك فولاذية، وإن لمح جيم مئات الموظفين المدنيين اليابانيين وهم يدخلون ويخرجون حاملين الآلات الكاتبة وصناديق المستندات.

وعندما وصل إلى طريق الميناء النهري شاهد الطراد الياباني (أيد زومو) شامخاً في مرساه على مسافة أربعمائة ياردة من الرصيف وقد جدد طلاء مداخنه العتيقة وأبراج مدفعيته، وعلى مسافة غير بعيدة منه السفينة الأمريكية (وايك) ترفرف فوقها الآن راية (الشمس المشرقة) ... وأمام نادي شنغهاي المجاور كان ثمة احتفال رسمي بانتصار اليابانيين على الأسطول البريطاني والأمريكي، وشاهد جيم عشرات من كبار الموظفين اليابانيين بالملابس الرسمية إلى جانب فريق من الألمان والإيطاليين بزيهم الفاشستي الصارخ وهم يشهدون عرضاً للضباط

والبحارة اليابانيين، في حراسة بعض الدبابات ومشاة البحرية.

وعن كذب من فندق بالاس توقف جيم يتأمل الجنود ببنادقهم ذات السونكيات المشرعة وهم يتولون حراسة المدخل... ما كان أحد منهم يتكلم الإنجليزية، أو يخطر بباله أن هذا الصبي الأوروبي ذا الدراجة المعوجة هو من الأعداء... ولو أنه اقترب منهم على مرأى من جموع الصينيين المتفرغين لبادره أفراد الحرس بإلقائه عبر الطريق.

هكذا عاد جيم لاعتلاء دراجته وابتعد عن منطقة الميناء عائداً إلى مسكن ماكستيد وهو يغالب التعب والإعياء... ومرة أخرى تناول بعض الزيتون والبسكويت مع الماء الممزوج بالصودا، ثم انطرح نائماً في فراش صاحبه تحت أزيز لا ينقطع من الطائرات المحلقة في السماء بلا توقف ولا هوادة.

* * *

وفي غضون الأيام التالية حاول جيم مراراً تسليم نفسه لليابانيين، على الرغم من شعوره بالمرارة والاحتقار لمن يقدمون على هذا العمل... وفي هذه المرة وجد الجنود اليابانيين القائمين على حراسة النوادي والكاتدرائية تلوح عليهم بواذر الشراسة حتى كان الاقتراب منهم عملية شديدة الخطر... وفي طوافه التقى بسيارة بليموث مملوكة لسائق سويسري وزوجته، بيد أنهما صرخا فيه لكي يتبعد، وطوحا إليه بقطعة نقود تدرجت على الأرض، وكأنه متسول.

وقد تعرض جيم لسيارة عسكرية انحرفت فجأة وكادت تدهمه عندما توقفت لاعتراض سيارة كان يستقلها فريق من الألمان أعضاء

نادى جراف زبلين كانوا في طريقهم للاعتداء على اليهود في جيتو هونجكيو.. وقد تولى ضابط الصف الياباني تجريدهم من الهراوات والبنادق القصيرة، وانتزع شارات (السواستيكا) المعلقة على سواعدهم وأمرهم بالعودة من حيث جاءوا.

وبعد أسبوع من إقامته في مسكن ماكستيد فوجئ جيم بقطع الكهرباء والمياه عن العمارة السكنية... فلم يأسف كثيرًا لاضطراره إلى التماس مأوى آخر، خصوصًا أنه أتى في اليوم السابق على آخر رصيده من الزيتون والبسكويت... وعلى الرغم من أنه ما فتئ يتذكر أمه وأباه فإن صورة وجهيهما بدأت تبهت في ذهنه... فقد غدا تفكيره طول الوقت منحصراً في البحث عن الطعام... وكان عزاؤه أنه لا بد واجد في أكثر البيوت الخاوية من أصحابها في الضواحي الغربية موردًا لا ينفد من البسكويت ومياه الصودا، مما قد يكفيه إلى أن تنتهي الحرب.

هكذا استأنف الطواف بدراجه مخلفًا وراءه الحي الفرنسي ومتجهًا هذه المرة إلى طريق كولومبيا حيث تكثر الفيلات المتفرقة... وكانت قوات الاحتلال الياباني قد زاد انشغالها في هذه الآونة بإحكام احتلالها حتى غدت لا تهتم بالبيوت الخالية... وقد اختار جيم فيلا صغيرة منعزلة عن الطريق العمومي خلف سورها الحجري... وأكد السكون المطبق المخيم على الفيلا خلوها من السكان... ولم يجد عناء في الدخول إليها متسلقًا سطح الجراج ومحطماً زجاج إحدى النوافذ المطلة على الحديقة الصغيرة... وفي داخل الفيلا راح ينتقل في غرفها الظليلة مستطلعًا، ليرى سلسلة من اللوحات الفنية في متحف مهجور... كانت

الفيلاء مليئة بصور امرأة جميلة في أوضاع مختلفة كأنها إحدى نجوم السينما... وقد تجاهل جيم الإطار المزدان بصورة الوجه البديع القائم فوق البيانو الكبير، وكذلك نموذج الكرة الأرضية المائل إلى جانب رف الكتب، فهو الآن أكثر انشغالا بجوعه الصارخ من الاهتمام بأي نزوع إلى الفن يضع فيه وقته وجهده!

كانت الفيلاء ملكا لطبيب أسنان بلجيكي... وفي غرفة مكتبه قامت أسفل أطر الشهادات العلمية دواليب بيضاء تحتوي على مجموعة كبيرة من أطقم الأسنان... ومن خلال العتمة لاحت الأطقم ترنو إليه وكأنها أفواه نهمة!

وعبر جيم غرفة الطعام، المطبخ، وتخطى بركة المياه فيما حول الثلاجة، وبعين الفاحص الخبير أجرى تقييما لما فوق أرفف (الكرار)... فتملكه الاستياء إذ وجد الطبيب البلجيكي وصاحبه الغانية من محبي الأطعمة الصينية، وهو شيء ما كان أبواه يستطبانه، وإن كانت الأرفف مكدسة بهذه الألوان المنفرة.

ولكن كانت هناك علبة وحيدة من اللبن المكثف، بها من الدسامة والحلاوة ما لم يتذكر جيم له مثيلا.. فجلس يشرب اللبن في مكتب الطبيب بين الأسنان التي بدت باسمه هذه المرة، ثم صعد إلى غرفة النوم العليا واستسلم للرقاد متدثرا بالأغطية الحريرية الفواحة بعطر جسد المرأة ذات الصور الفنية السينمائية.



(٩)

نهاية المرحمة

غادر جيم دار طبيب الأسنان صباح اليوم التالي وكل همه هو البحث عن الطعام.. وقد عثر على بيت خاو مؤقت قريب مملوك لأرملة أمريكية كان أبواه يعرفانها قبل رحيلها إلى سان فرانسيسكو... ومن بعد هذا البيت ظل يتنقل إلى غيره، مقيمًا عدة أيام في كل بيت، محتيمًا من المدينة البعيدة الكريهة بالأسوار العالية والحشائش المتكاثفة.

وكان اليابانيون قد صادروا أجهزة الراديو وكاميرات التصوير، وفيما عدا ذلك ظلت البيوت سالمة.. وكانت أكثر البيوت باذخة الأثاث مزودة بالسينمات الخاصة وقاعات الرقص، وبقيت سيارات أصحابها الفارهة متراصة في الجراجات.

ومع ذلك فإن دواليب المؤونة فيها كانت مجردة من الأطعمة، فيما عدا النزر اليسير من البسكويت... وأحيانًا كان يعثر على بعض علب الشيكولاتة في أدراج مهجورة، فينتعش ويتذكر أباه وأمه وغرفة نومه الخاصة في أمهرست أفينو، تلك التي يحتلها الآن الضباط اليابانيون!

وعلى الرغم من أنه كان من شدة التعب بحيث لا يستطيع التفكير في المستقبل، فقد أيقن أن رصيده الضئيل من القوت سرعان ما ينضب، وأن اليابانيين لا يلبثون أن يوجهوا اهتمامهم إلى البيوت الخالية من سكانها - خصوصًا أن عائلات المدنيين اليابانيين قد بدأت فعلاً في الانتقال إلى بيوت الحلفاء السابقين في طريق أمهرست أفينو.

وقد أصبح جيم وهو لا يكاد يُعرف، فشعره المتطاوّل وذلك الوجه الغريب الذي ينعكس أمام نظره في المرأة ضامر الخدين كابي الملامح، وكأنه وجه صبي في نصف بنيته وضعف عمره السابقين... وكان يشعر أكثر الوقت باعتلال الصحة والسقم، وكان يميل كثيرًا إلى الاستلقاء طيلة نهاره... وحدث ذات مرة وهو راقد معتل في غرفة نوم فوق سطح بيت أن أحس بجماعة من المدنيين اليابانيين يحومون حول غرف الطابق الأرضي، بيد أنه كان محمومًا إلى حد عجز معه عن مناداتهم..

وفي عصر أحد الأيام تسور جيم سياج بيت خلف مقر النادي الأمريكي، وهبط في حديقة كبيرة متكاثفة الحشائش وأخذ يجري نحو الشرفة، عندما لمح نفرًا من الجنود اليابانيين كانوا يطهون وجبة بجانب حوض سباحة فارغ... فقد جلس ثلاثة منهم فوق لوحة الغطس يغذون نارًا صغيرة بعيدان خشب، بينما أخذ رابع ينقب في قاع الحوض الجاف عن طواقي الاستحمام والنظارات الشمسية.

أخذ اليابانيون يراقبون جيم وقد توقف مترددًا بين الحشائش الكثيرة وهم يقلبون الأرز المسلوق المخلوط بقليل من السمك... لكن لم تبد منهم محاولة لالتقاط بنادقهم، وإن أدرك جيم أنه لا ينبغي له أن

يحاول الجري منهم... وإنما تقدم خلال الحشائش حتى حافة الحوض حيث جلس... وقد بدأ الجنود يتناولون وجبتهم وهم يتكلمون بصوت منخفض... كانوا رجالاً أقوياء البنية حليقي الرؤوس، لهم زي وعتاد أفضل من الحراس اليابانيين الآخرين في شنغهاي، وأدرك جيم أنهم من أفراد الفصائل الخاصة في الجيش.

أخذ جيم يراقبهم وهم يأكلون، مركزاً عينيه على كل لقمة دخلت أفواههم... وعندما فرغ أكبرهم سنّاً جعل يحك بعض الأرز المحترق وقشور السمك من جوانب إناء الطهو، وما لبث أن أوماً إلى جيم أن يقترب وناولوه الإناء... وراح الجنود وهم يدخلون ويتسمون فيما بينهم يراقبون جيم وهم يلتهم فتات الأرز الكثيف... فقد كان هذا أول طعام ساخن تناوله منذ مغادرة المستشفى، ولذعت سخونة الطعام ومذاقه الدهني لثته حتى انبعثت الدموع في عينيه.. فما كان من الجندي الياباني الذي رق لحاله بعد أن أدرك أن هذا الصبي الصغير كان يتضور جوعاً، إلا أن بدأ يضحك ضحكة المودة والعطف، ونزع غطاء زمزميته المعدنية وقدمها إلى جيم، فشرب ماء سائغاً به طعم الكلور على خلاف الماء الآسن الذي كان يتسقطه من صنادير البيوت المهجورة، وإن غص به لفرط عطشه وهو يرنو إلى اليابانيين مبتسماً... وسرعان ما أخذ الجميع يضحكون وهم جالسون هائئين بين الحشائش الكثيفة قرب حوض السباحة الجاف.

وعلى مدار أسبوع ظل جيم يتبع الجنود اليابانيين في دوريات الحراسة التي كانوا يقومون بها في الشوارع المهجورة.. وفي كل صباح

كان الجنود يغادرون نقطة التفتيش الرئيسية، فما إن يبصرهم جيم حتى يهبط مسرعًا من درجات البيت الذي يمضي فيه ليلته ويلحق بهم... ونادرًا ما كان هؤلاء الجنود يدخلون القصور والبيوت الأجنبية، إذ كانوا منصرفين فقط إلى إبعاد المتسولين واللصوص الذين قد يدفعهم الإغراء إلى السطو عليها... ودرج جيم على أداء بعض الخدمات لهم، مثل البحث عن طواقي السباحة التي كانوا يهونون جمعها، أو قطع الحطب وإشعال النيران لإعداد الطعام... فهل تراهم عرفوا أنه شريد؟ إنهم كانوا يحدقون إلى حذائه المتين الصنع والنسيج الصوفي الممتاز لسترته الرياضية، ولعلمهم قدروا أنه من أسرة أوروبية غنية ولكن معدومة البر لم تعد تهتم بكفالة أطفالها.

وانقضى أسبوع كان جيم خلاله معتمدًا على هذه الدورية اليابانية في الحصول على معظم طعامه... فقد تزايد عدد البيوت التي أخذ اليابانيون عسكريين ومدنيين يحتلونها... وكم من مرة كان إذا اقترب من بيت مهجور يطرد طردًا من قبل أفراد الحراسة الصينيين.

ثم جاء صباح لم يظهر فيه أولئك الجنود اليابانيون... وجعل جيم ينتظر صابرًا في الحديقة التي التقى بهم فيها لأول مرة... وعملاً على تهدئة جوعه أخذ يقطع بعض الأغصان استعدادًا لإيقاد النار قرب حوض السباحة، متشاعلاً بمتابعة الطائرات المحلقة في وضوح جو فبراير، متحسبًا أصابع الشيكولاتة المحشوة الثلاثة التي ادخرها في جيبه للطوارئ، التي كان يعلم أنها آتية لا ريب فيها.

ثم فتح باب الشرفة من خلفه... فوقف، فيما خرج الجنود اليابانيون

إلى الشرفة... وأخذوا يلوحون إليه، فخطر له بصورة مشوشة أنهم جاءوا معهم بوالديه، وأنهما سيدخلان من الباب الأمامي، لا من فوق السور! فأسرع جيم يجري شطر اليابانيين، أولئك الذين جعلوا يصيحون فيه بطريقة خشنة على نحو مثير للدهشة... وعندما وصل إلى الشرفة بدا له أنهم أفراد دورية حراسة جديدة... وقد وكزه الرقيب ودفع به حول الحوض وجعله يرفع أعواد الحطب من حيث وضعها، ثم ما لبث وهو يتفوه بكلمات قلائل بالألمانية أن طوح به في ممر السيارات وأوصد البوابة الحديدية خلفه حتى كادت تنطبق على عقبيه.

لقد بدت البيوت من حوله في ضوء الشمس عوالم موصدة من دونه على نحو أليم قاطع... وفيما راح يمشي في رحلة طويلة إلى جانب النهر، تذكر الجنود اليابانيين الذين أطعموه من إنائهم، بيد أنه عرف الآن أن عاطفة الرحمة التي طالما أوصاه والده ومدرسوه بالتزام نواميسها، غدت الآن ولا قيمة لها.



الشاحنة الجانحة

جلس جيم على الممر الضيق المتفرع من حوض إصلاح السفن في الميناء يرنو ببصره إلى الطراد الياباني (أيد زومو) وهو يتأهب للإقلاع من مرساه إلى ميدان آخر للحرب البحرية فيما وراء مصب نهر اليانجتسي - ولكن أكثر ما كان يشغله الآن هو مشهد الشاحنات الجانحة في النهر، خصوصاً تلك السفينة الصغيرة ذات المدخنة الواحدة الجانحة في البوغاز العميق وهي لا تبعد أكثر من مئات الياردات من مكانه! لقد استهوته هذه السفينة إلى حد بعيد حتى صمم أن يمم شطرها لاستكشاف خوافيها بين الحطام المنبث في كل من حولها... والحق أن ما كان يستغرق اهتمامه من اللحاق بوالديه أو الاستسلام إلى اليابانيين، أو حتى البحث عما يسد رمقه - كل أولئك غدا لا يشغله الآن بعد أن وجد السفينة الصغيرة الجانحة قرب متناول يده.

وفي جلسته تلك فوق الممر الضيق أخرج من جيب سترته الرياضية أحد أصبعي الشيكولاتة الباقيين معه، وجعل يوازن بينهما، فادخر أثقلهما وأعادته إلى جيبه، ووضع الأصغر في فمه، وسرعان ما شعر

بحشوه الكحولي يلذع لسانه، بيد أنه مضى يمتص الشيكولاتة الحلوة.. وبعد قليل شعر جيم بدوار يعتريه من أثر الحشو الكحولي، مقترن بتقلبات الموج من حوله.. فأسند نفسه إلى قارب مثقل بالمياه دفعت به حركة الأمواج إلى طرف الممر الضيق... وعندما وقع بصره على الشاحنة الجانحة، إذا هو يخطو دون تفكير إلى القارب ويدفعه في المياه الهلامية.

كان القارب المتهالك نصف ممتلئ بالمياه التي أغرقت حذاءه وبنظرونه... فانتزع أحد ألواح المفككة وأخذ يجدف به شطر الشاحنة الجانحة... وما إن وصل إليها حتى كان القارب على وشك الغرق... فتعلق بالحاجز المعدني أسفل قنطرة القيادة وتسلق إلى سطح السفينة الصغير.

أخذ يخوض في مياه كانت تغطي السطح المعدني حتى كعبه... وصعد إلى قنطرة القيادة حيث وقف يحدق في اتجاه الشاطئ وقد بدأت مياه المد ترتفع حاملة معها جثث الموتى الصينيين المغطاة بورود الورق إلى مصب النهر الطليق، حتى لقد شعر باهتزاز الشاحنة في تيارات المد، وبمزيد من جنوحها... وفيما هو يسرح الطرف من حوله شعر بأن هناك من يراقبه من حوض إصلاح السفن قرب الرصيف الجنائزي.

كان رجلاً يرتدي سترة وقلنسوة بحار أمريكي واقفاً عند دفة القيادة لناقلة فحم ثلاثية الأجزاء... فلوح إليه جيم بيده على استحياء.. غير أن الرجل تجاهله، ومضى يدخن سيجارة محجوبة في يده... وكان الرجل لا يراقب جيم وحده، بل أيضًا بحارًا شابًا كان فوق طوف معدني

طوحت به حركة المد بعيداً عن سفينة قريبة.

أسرع جيم للترحيب بالبحار القادم، فهبط من قنطرة القيادة إلى سطح الشاحنة، فيما كان البحار الشاب يقترب بالطوف مجدداً بضربات قصيرة ولكن قوية، محاذراً ألا يلاطم المياه... وعندما اقترب من الشاحنة لمح جيم في الطوف قطعاً معدنية كثيرة منزوعة من هيكل سفينة... وسمع البحار يقول له:

- هالو يا فتى! هل تنوي الإبحار في زيارة للشاطئ؟ من معك من أصحابك؟

- لا أحد..

مهما يكن من أمل بالأمان خامر جيم بقدوم هذا البحار الأمريكي، إلا أنه لم يكن متلهفاً لمفارقة الشاحنة الجانحة... وهكذا مضى يقول:

- أنا في انتظار أمي وأبي... إنهما... تعرضا للتأخير.

- تأخير؟ حسن.. ربما يأتيان فيما بعد... يبدو عليك أنك في حاجة إلى مساعدة.

وتأهب البحار للصعود إلى سطح السفينة، ولكن ما إن أخذ جيم بيده حتى جذبته البحار بخشونة إلى الطوف، فشعر برضوض في ركبتيه... وقد أجلسه البحار أمامه وجعل بتحسس ثنيات سترته الرياضية، مختلساً نظرات جانبية إلى النهر وكأنما يتوقع أن يبرز من اندفاع المياه غواص من البحرية اليابانية بكامل عدته... وقال لجيم:

- والآن، لماذا تحاول إزعاجنا؟ من جاء بك عبر المياه إلى هنا؟

فسوى جيم سترته قائلاً:

- جئت وحدي.. هذه سفيتي الآن.

- أنت ولد بريطاني مجنون! فقد جلست على ذلك الممر مدة طويلة.. من تكون؟

- أنا جيم.

وحاول جيم أن يفكر في شيء يؤثر به في نفس البحار الأمريكي الشاب، بعد أن قرر أن يبقى في صحبته، فأضاف:

- .. إنني أصنع طائرات بحجم إنسان، وقد ألفت كتاباً عن لعبة البريدج!

- انتظر إلى أن يراك (بازي).

وراح البحار الشاب يجدف مبتعداً عن الشاحنة الجانحة في اتجاه مسطحات الطنين.. ودخل بالطوف إلى خليج ضحل ملطخ بالزيتو يمتد متعرجاً وحل حوض إصلاح السفن، ثم قاده بحركات خبير مدرب من خلف يخت بلا صارٍ حتى توقف عند رصيف خشبي، ثم ربط الطوف إلى الرصيف وحمل أدواته المعدنية وأوماً إلى جيم أن يتبعه.

واجتاز الاثنان معاً موضعاً في حوض إصلاح السفن بين أكداس من الألواح الفولاذية ولفائف السلاسل والأسلاك الصدئة، متجهين شطر ناقلة الفحم الثلاثية... وكان جيم يتقدم حثيثاً في أثر البحار الشاب محتذياً مشيته المندفعة، فها هو ذا قد التقى أخيراً بشخص يمكن أن يساعده في إيجاد أبويه... ترى هل كان هذا الأمريكي الشاب ورفيقه

الآخر في غرفة القيادة في الناقلة يحاولان الاستسلام لليابانيين مثله؟
لو صح هذا فإن ثلاثتهم مجتمعين ليسوا بالذين يمكن أن يتجاهلهم
اليابانيون!

مهما يكن فقد دلفا إلى جوف الناقلة من خلال لوح منزوع...
وارتقيا سلمًا إلى السطح العلوي، ووصلا إلى كابينة معدنية خلف
قنطرة القيادة.

وعندما وقف جيم بباب الكابينة كان يهتز من فرط الجوع... وقد
صافحته رائحة عطرية معهودة ذكرته بمخدع أمه في أمهرست أفينو،
إذ كانت مزيجًا من مسحوق الوجه والكولونيا وسجائر كرافن، وبدا له
لحظة عابرة أن أمه قد تبرز له من داخل هذه المثابة المعتمدة مثل عروس
عيد الميلاد وتقول له إن الحرب قد انتهت!



(١١)

فرانك وبازي

كان ثمة موقد فحم مشتعل يسيراً في وسط الكابينة، تتصاعد أبخرته العذبة من منور السقف... وكانت الأرضية مغطاة بخرق مزيتة وأدوات بحرية مختلفة... وعلى جانبي الموقد قام مقعد قماش مستطيل وفراش معسكرات يعلوه لحاف صيني.

وما لبث البحار الأمريكي أن طرح أدواته على كوم القطع المعدنية وتهالك متملماً في المقعد القماشي، ثم رنا بنظره إلى الإناء الذي يعلو الموقد، ثم حدق في جيم باكتئاب قائلاً:

- إنه بدأ يتعب أعصابي يا بازي... لست أدري إن كان أكثر جوعاً أو هوساً!

- ادخل يا ولد... يظهر عليك أنك بحاجة إلى الراحة.

كان المتكلم رجلاً نحيلًا أكبر سنًا ظهر من تحت اللحاف وأوماً إلى جيم بالسيجارة التي كانت في يده البيضاء... كان له وجه شاحب خلت

سماته من كل تجارب الحياة الكثيرة التي خاضها وكأنما أزيحت بعناية، ويدان انهمكتا في تبادل البودرة التي كان يتداولها من تحت الغطاء... وقد شمل بنظراته ملابس جيم الملوثة بالوحل، وذلك التقلص الذي شاب فمه، وخديه الضامرين، وساقيه المخلخلتين.

وما لبث أن نفّض مسحوق (التلك) عن الفراش وأخذ يحصي القطع المعدنية التي استخلصها البحار الشاب في جولته قائلاً:

- أهذا كل ما هناك يا فرانك؟ ليس هذا بالكثير الذي يمكن أخذه إلى السوق... إن تجار هونجكيو أولئك يتقاضون عشرة دولارات في مقابل كيس أرز.

فدفع البحار الشاب بقدمه ذات الحذاء الثقيل في الكوم المعدني وهو أكثر سخطاً على نفسه منه على رفيقه الأكبر سنّاً، قائلاً:

- يا بازي! كان الولد يفترش الممر مدة طويلة... هل تريد استقدام اليابانيين إلى هنا بسبب وجوده هكذا؟

- اليابانيون يا فرانك لا يبحثون عنا.. فمنطقة خليج نانتاو مليئة بالكوليرا... وهذا هو السبب في قدومنا إلى هنا.

أخذ فرانك خرقة غمسها في علبة بها سائل منظف وأنشأ يمسح بها قطعة معدنية مغطاة بالأوساخ:

- يا بازي، لقد أبدت إشارات تلفت الأنظار... هل تريد أن يبحثوا عنا فعلاً؟ إذا كنت تحب أن نضاعف الجهد، فحاول الخروج بنفسك مع وجود هذا الصغير الذي يراقبنا طول الوقت!

فامتص بازي بعض الدخان من سيجارته وقال:

- إن الصبي كان مشغولاً عنك بما ينشغل به الأولاد عادة... ولكن،
تعال إلى هنا يا بني... ماذا كانوا يسمونك قبل الحرب؟
قال هذا لجيم وهو يفسح له مكاناً دافئاً في الفراش.
- جيمي.

أما فرانك فقد ألقى الخرقة من يده قائلاً في تبرم:
- كل هذه (الخرقة) لن تكفي لشراء قارب إلى تشونجكين! إننا
بحاجة إلى الباخرة (كوين ماري) لكي ننتقل إلى هناك!
ورمى جيم بنظرة شذراء قائلاً:
- .. ثم إنه ليس عندنا أرز يكفيك يا فتى.. من تكون يا جيمي؟
فتولى بازي الرد قائلاً:
- بل جيم... هذا اسم جديد لحياة جديدة.

وبعد أن جلس جيم بجانبه مد يده المعفرة بالبودرة ومس بإبهامه
مترفعاً ذلك التقلص الذي شاب فم جيم من أثر الجوع... وجلس الصبي
ساكناً فيما كشف بازي عن لثتيه وألقى نظرة مأكرة على أسنانه، ثم قال:
- صفان من الأسنان معتنى بهما تماماً... هناك إنسان وراءه لم
يدخر مالاً للحفاظ على فمه الصغير البديع!
وربت بازي على كتف جيم متحسباً صوف سترته الأزرق، وكشط
آثار الوحل عن بطاقة شعاره المدرسي قائلاً:

- يبدو أنها مدرسة ممتازة، مدرسة الكاتدرائية تلك؟
أخذ فرانك يهتمهم متبرماً فوق كومه المعدني، وبدا متذمراً من
جيم، وكأن هذا الصبي سيحتل مكانه عند بازي... وردد قائلاً:
- كاتدرائية؟ أهو من طائفة القسس؟

فقال بازي وهو يحدق إلى جيم باهتمام متزايد:
- يا فرانك... إنها مدرسة ثابتة للكاتدرائية... لا بد يا جيم أنك
تعرف أناساً مهمين؟

بدا جيم متشككاً... ولم يستطع أن يفكر في شيء سوى الأرز الذي
كان يغلي فوق موقد الفحم... غير أنه ما لبث أن تذكر حفلة أقيمت في
حديقة السفارة البريطانية، فقال:

- ذات مرة قدموني إلى مدام (صون يان سين).

- مدام (صون)؟ قدموك أنت... إليها؟

- كان سني وقتها ثلاث سنوات ونصفاً.

قال جيم هذا، وجلس ساكناً بينما كانت يدا بازي البيضاءوان
تصولان تفتيشاً في جيوبه... وكانت ساعة معصمه قد سلت من
موضعها واختفت تحت اللحاف الذي تفوح منه الكولونيا والبودرة...
ومع ذلك فإن اهتمام بازي المفرط به الذي ذكره باهتمام خدمه وهم
يلبسونه ملابسه ويخلعونها عنه - بدا له مطمئناً على نحو غريب... لقد
راح هذا البحار يتحسس كل عظمة في جسده، وكأنما يفتش عن شيء
نفيس... غير أن جيم كان ملتفتاً إلى إناء الطهو وما ينبعث من رائحة

الدمسم الفائحة منه.. وفجأة خطر له أن هذين البحارين الأمريكيين ربما كانا يريدان أن يأكلاه!

غير أن بازي لم يلبث أن رفع غطاء الإناء... وإذا بخار سائغ النكهة يرتفع عن حساء غليظ من الأرز والسمك... ثم أبرز طبقين معدنيين وملعقتين من كيس جلدي تحت الفراش... وبعدها اغترف حصتين لنفسه ولجيم وهو ما يزال يدخن سيجارته، بمهارة طاه مدرب في فندق بالاس... وبينما راح جيم يلتهم السمك الساخن التهامًا كان بازي يراقبه بنفس التفكه الذي أبداه الجندي الياباني من قبل.

وقال بازي وهو يقلب الحساء:

- سنأكل فيما بعد يا فرانك.

فقال فرانك وهو ينظف إحدى القطع المعدنية. وعيناه على الإناء:

- إنني أكل بعدك دائمًا يا بازي.

- لكنني أفكر فينا، نحن الاثنين، دائمًا يا فرانك... ثم إنه لا بد لنا

أن نرعى صديقنا الصغير.

وأزال حبة أرز من ذقن جيم قائلاً:

- قل لي يا جيم... هل قابلت شخصية صينية أخرى من الشخصيات

الطنانة؟ تشيانج كاي شيك مثلاً؟

- كلا... لكن اسمه ليس صينيًا في الحقيقة.

إن الطعام الساخن أدار رأس جيم... وقد تذكر كلمات قالتها أمه،

وكان يحاول دائمًا أن يستخدمها في أحاديثه مع الكبار، فقال:

- ... إنه تحريف لسانغهاي تشيك.

- تحريف؟

قالها بازي وقد اعتدل الآن في موضعه... وبعد أن فرغ من وجبته
بدأ ينثر المسحوق على يديه، قائلاً:

- ... هل لك اهتمام بالكلمات يا جيم؟

- بعض الشيء... ولي أيضًا اهتمام بالبريدج.

فقال بازي وقد بدا عليه الشك:

- الكلمات أهم من كل شيء يا جيم... ادخر كل يوم كلمة
جديدة... فقد لا تعرف متى تكون لكلمة قيمتها.

فرغ جيم من طعامه وجلس مستندًا إلى الجدار المعدني هائنًا... إنه
لم يعد يتذكر الآن لونًا من الأطعمة التي كان يتناولها قبل الحرب، بل
ضايقه التفكير فيها جميعًا خصوصًا تلك الألوان التي كان يُعرض عنها
رغم المحاولات الجاهدة والحيل المختلفة التي كانت أمه ومربيته فيرا
تبذلانها لاستدراجه لتناولها... وقد لاحظ الآن أن فرانك أخذ يحدق
في حبات من الأرز تركها جيم في الملعقة، فسارع بلعقها عن آخرها...
ونظر جيم في الإناء، فسرّه أن رأى فيه أرزًا كافيًا لفرانك... وقد تأكد
الآن أن هذين البحارين من أفراد البحرية التجارية لن يأكلاه... لكن
الخوف الذي تملكه كان له أساس - فقد استفاضت شائعات في النادي
أن البحارة البريطانيين الذي أغرقت سفينتهم بالطوربيدات في المحيط
الأطلنطي، قد اعتادوا أكل لحوم البشر!

واغترف بازي لنفسه ملعقة صغيرة من الأرز، ولم يقم بمحاولة
لأكل هذا الملحق، لكنه أخذ يعبث بالطبق تحت نظرات فرانك
الملتهبة... وكان بوسع جيم أن يرى أن بازي يستهويه أن يسيطر على
البحار الشاب وأنه يستخدم جيم لإغاظته... وكانت نشأة جيم يمكن
أن تفصلك عن لقاء أناس مثل بازي، بيد أن الحرب قد غيرت كل شيء
وبدلت كافة المفاهيم..

ولم يلبث بازي أن سأله:

- حدثني عن والدك يا جيم؟ لماذا لم تكن في البيت مع والدتك؟
هل هما هنا في شنغهاي؟
- نعم.

قالها جيم مترددًا... فقد تعلم من تجارب الأسابيع الماضية ألا يثق
بأحد، فيما عدا اليابانيين... وقد أضاف:

- إنهما في شنغهاي... لكنهما سيبحران في الطراد (أيد زومو) ..
- ... أيد زومو؟!!

ردد فرانك هذا الاسم واثبًا من كرسيه القماشي... وتناول علبة
معدنية من كيس أدواته واغترف لنفسه قدرًا كبيرًا من الأرز المطهي...
وفيما بين البلعات راح يهز ملعقةته نحو جيم قائلاً:

- يا ولد! من تكون؟ بازي!

فقال بازي وهو يستخرج قطعة فحم من كيس تحت الفراش:

- ليس قصدك الطراد (أيد زومو) يا جيم.. إن (أيد زومو) سيبحر

إلى فوتشاو وخليج مانيللا.. إن جيم يا فرانك يقصد مداعتك!
فقال جيم مصممًا على إزالة أي شك نمت عنه نظرات بازي:
- حسن... في ظني أنهما على ظهر (أيد زومو)..
- ليس على ظهر طراد ياباني يا جيم.
- بازي!

- فرانك... لا بد لك أن تصدقني يومًا من الأيام.. في تصوري
أن أهل جيم كانوا في عداد كافة البريطانيين الذين أخذهم اليابانيون...
والآن فإن جيم يبحث عنهما.. جيم؟
أومًا جيم برأسه إيجابًا، ثم أخرج من جيب سترته الرياضية آخر
أصبع شيكولاتة وأزال غلافه المفضض وقضم جانبًا منه لامتصاص
الرحيق الكحولي... ولما تذكر ما كانت توصيه به مربيته فيرا من التزام
دواعي الأدب والمجاملة قدم نصف قطعة الشيكولاتة إلى بازي... فقال
هذا منتعشًا:

- إن حضورك يبشر بالخير يا جيم! كل أسلوبك الكلامي
وسلوحياتك، تقربنا كثيرًا من أجواء فندق بالاس.
وأخذ بازي يمتص الرحيق بأسنانه الحادة، فكان أقرب شبهًا بفأر
أبيض في معامل التجارب..
واستطرد يقول:

- إذن فقد كنت تقيم في البيت وحدك يا جيم؟ هناك في الحي
الفرنسي؟

- في أمهرست أفينو.

- يا فرانك! يجدر بنا قبل أن نفارق شنغهاي أن نقوم بجولة هناك...

لا بد أن هناك بيوتًا كثيرة خالية يا جيم؟

أما جيم فقد أغمض عينيه... كان متعبًا جدًا ولكن مستيقظًا، مفكرًا في الأرز الذي أكله لتوه ومستعيدًا تذوق كل حبه مخلوطة بالسّمك، في حين مضى بازي في كلامه وصوته يتخلل أبخرة الهواء الممزوج بروائح الكولونيا والسجائر... فتذكر جيم أمه وهي تدخن ذات السجائر كرافن في غرفة الجلوس بأمهرست أفينو... الآن يمكن وقد التقى بهذين البحارين الأمريكيين أن يحظى بلقائهما من جديد... وله إذن أن يبقى مع بازي وفرانك... وفي صحبتهما يمكنه الخروج إلى حيث الشاحنات البحرية القريبة، ولا بد أن تلاحظ دوريات الزوارق اليابانية وجودهم.

* * *

شعر جيم بأنفاس حارة ممزوجة برائحة سمك تلفح وجهه... فاستيقظ شاهقًا.

رأى فرانك جاثمًا فوقه بجسده الضخم ويداه تفتشان جيوب سترته الرياضية فدفعه جيم عنه... فعاد فرانك بهدوء إلى كرسيه القماشي المستطيل، واستأنف تلميع قطعه المعدنية.

كانا وحدهما في الكابينة... وسمع جيم صوت محرك السيارة نصف نقل الموجودة قرب الرفاص يدار على يد بازي ولا شك ثم يتوقف فجأة... وعلى البعد دوى صوت صفارة الطراد أيد زومو... وما

لبث فرانك أن قال للصبي وهو ماض في عمليته:

- تعرف يا صغير أن لك موهبة في إثارة أعصاب الناس؟ كيف حدث أن اليابانيين لم يأخذوك؟ لا بد أن لك قدمين تسبقان الريح!
فقال جيم:

- حاولت الاستسلام... لكنها لم تكن مسألة سهلة... هل تريد أنت وبازي الاستسلام؟

- عن نفسي نعم، لكنني غير واثق من رغبته... أحاول إقناع بازي بشراء قارب مغطى حتى يمكننا الإبحار في النهر إلى تشوجكنج... لكنه يغير رأيه باستمرار... إنه يريد أن يبقى في شنغهاي بعد أن احتلها اليابانيون... فهو يظن أن بإمكاننا أن نجمع ثروة كبيرة متى وصلنا إلى المعسكرات.

- هل تبيع كثيرًا من هذه العدد البحرية يا فرانك؟

راح فرانك يتفرس في الصبي وهو لا يزال غير مطمئن إليه، ثم قال:
- يا فتى، إننا لم نبع قطعة واحدة... إن هواية بازي هي أن يجعل الناس يشتغلون لحسابه... هناك في موضع ما من حوض إصلاح السفن كيس له مملوء بالأسنان الذهبية يقوم ببيعها في هونجكيو.
ثم أردف باسمًا وهو يلمس ذقن جيم:

- ... من حسن حظك أنه لا توجد في فمك أسنان ذهبية! وإلا!

اعتدل جيم في جلسته، وتذكر كيف فحص بازي لثتيه... أدرك الآن أن عليه أن يحذر من هذين البحارين، اللذين استطاعا بطريقة ما الإفلات

من الشبكة اليابانية حول شنغهاي... وحق له أن يخاف جانبيهما كما يخاف أي أحد آخر في المدينة... وجعل يفكر في كيس بازي الخفي المملوء بالأسنان الذهبية... إن خليجان وقنوات منطقة نانتاو مملوءة بجثث الموتى الصينيين، وأفواه هؤلاء الموتى مملوءة بالأسنان.... وكل صيني يحرص أن تكون له سن ذهبية واحدة على الأقل من قبيل المكانة والاحترام... وبعد أن بدأت هذه الحرب فإن أقرباء الموتى قد يتعبون من نزع أسنانهم قبل إجراءات الجناز... تخيل جيم البحارين الأمريكيين وهما ينقبان في مسطحات الوحل ليلاً، فيأخذ فرانك في التجديف بالطوف على امتداد الخليجان السوداء، وبازي جالس في المؤخرة بمصباح وهو يجذب الجثث المحمولة في المياه ويعري اللثات في أفواهها لتجريدها من الأسنان الذهبية!



(١٢)

موسيقى راقصة

ظلت هذه الصورة المرعبة تراوح خيال جيم طيلة الأيام الثلاثة التي قضي عليه أن يمضيها مع البحارين الأمريكيين... وفي الليل عندما كان بازي وفرانك ينامان معاً تحت اللحاف كان جيم يظل مستيقظاً وهو ممدد فوق أكياس الأرز قرب موقد الفحم... وبدأت له جمرات الموقد وهي تومض كأنها أسنان ذهبية... فإذا استيقظ في الصباح كان يتحسس فكه للتأكد من أن فرانك لم ينزع أحد القواطع من أسنانه من قبيل المحاكاة لصاحبه.

وخلال النهار كان جيم يجلس عند الرصيف الجنائزي للترصد والمراقبة، فيما يتوجه فرانك مجدداً بالطواف إلى المراكب المعطوبة والجانحة لجمع ما يمكن من أدواتها المعدنية... فإذا بدأ يشعر بالبرد والارتعاد كان يعود إلى الكابينة ويتمدد تحت اللحاف بينما يكون بازي ممدداً في الكرسي القماشي متشاغلاً بعمل لعبات من الحبال القديمة... إن بازي كان يشتغل مضيقاً في الخط الملاحي المعروف

باسم (كاثاي - أمريكا)، وأخذ يعامل جيم كما كان يعامل أطفال ركاب البواخر بالتسلية والملاعبة... وكان يحرص على تناول جيم لوجبتي الإفطار والعشاء، متحرّياً أن يستفسر منه بلا انقطاع عن أمه وأبيه... وكان بازي متطبّعاً إلى حد بعيد بمحاكاة نساء المسافرين اللاتي كان يتولى خدمتهن، بنثر (البودرة) على أجسادهن تليقاً للحرارة وهن يوالين التدخين.

وعصر كل يوم كانوا ينطلقون جميعاً في سيارة نصف النقل ويطوفون في الأسواق الصينية في هونجكيو، حيث كان بازي يساوم من أجل كيس أرز وبضع سمكات، بالمقايضة بعلب السجائر الفرنسية المخترنة تحت فراشه... وأحياناً كان يطلب من فرانك أن يستقدم جيم إلى كشك البائع، ولا يلبث التاجر الصيني أن يتفحص جيم برصانة قبل أن يهز رأسه.

وسرعان ما اتضح لجيم أن بازي كان يحاول بيعه للتجار... وفي النهاية كان يجلس في السيارة بين الأمريكيين وقد بلغ به التعب حدّاً لا يستطيع معه المقاومة، وكأنه دجاجة كالدجاجات التي تحملها النساء الصينيات بجانبهن فوق مقاعد الترام... بل إنه غدا يشعر بالاعتلال أغلب الوقت، ولكن فائدته المحتملة لدى البحارين كانت تضمن له على الأقل وجبات السمك المسلوق بالأرز... وربما يجيء وقت يدرك فيه الباعة الصينيون أنهم يستطيعون الفوز ببعض (الينات) اليابانية إذ هم أبلغوا اليابانيين بأمرهم.

وفي خلال ذلك كان جيم يتحاشى يدي فرانك القويتين، ويذهب

يعتصر ذهنه لمزيد من الكلمات الخاصة التي وجد بازي يحب سماعها منه، ثم يتحف مضيف السفن السابق هذا بالحكايات المشوقة عن الأحوال في البيوتات الكبيرة في أمهرست أفينو... وكان جيم يخترع قصصًا خيالية عن البذخ والأبهة في معيشة أبويه، فلم يكن بازي يشبع من الانبهار بتلك الأخبار والروايات عن حياة الطبقات الراقية في شنغهاي. وقد قال له بازي وهما ينتظران إدارة فرانك لمحرك السيارة قبل زيارتهما الأخيرة لسوق هونجكيو:

- حدثني عن تفاصيل اجتماعاتهم في أحواض السباحة... أتصور أنها كانت حافلة بالكثير من... المرح والانبساط!

- بالتأكيد كان هناك مرح وانبساط بلا حدود يا بازي... كانوا يستمتعون بالويسكي والصدودا، والشيكولاتة المسكرة، بين عزف البيانو، وألعاب الحواة.

- ... حواة، يا جيم؟!

- أظنهم كانوا حواة.

ولم يلبث بازي أن وضع ذراعه حول كتفي جيم قائلاً:

- أراك متعبًا يا جيم... إنك أجهدت نفسك في التفكير، وفي جمع هذا المحصول الكبير من الكلمات الجديدة!

- إنني استنفدت كل ما عندي من الكلمات الجديدة يا بازي... هل ستنتهي الحرب قريبًا يا بازي؟

- لا تقلق يا جيم... إنني أمنح اليابانيين ثلاثة شهور على الأكثر.

- بمثل هذه السرعة يا بازي؟

-ربما لفترة قليلة أطول... إن ابتداء أي حرب يستغرق وقتًا طويلاً، وهناك استثمارات كبرى يحرصون عليها.. مثلما أفعل أنا وفرانك بمشروعاتنا.

لم يكن يخطر ببال جيم قط أن أي إنسان قد يريد للحرب أن تستمر، وروعه هذا المنطق الشاذ... بيد أنه كتم هواجسه، تاركًا للمقادير أن تفعل به ما تشاء، وأصبح كل ما يعنيه هو التعلق بكل ما يوفر له القوات.. وبعد أن غادرت بهم السيارة منطقة نانتاو وانعطفت إلى الحي الفرنسي صادفتهم أول دورية يابانية كانت تتولى الحراسة عند نقطة التفتيش لدى الطرف الشمالي للجسر الفولاذي... غير أن بازي وفرانك لم يبديا أي تخوف من الجنود المسلحين... بل إن فرانك أطلق بوق السيارة في أثر جندي ياباني كان يتجول في عرض الطريق... والحق أن جيم انكمش في مكانه متوقعًا إطلاق النار عليهم، غير أن الجندي لوح لهم بالمرور وهو يرميهم بنظرة غاضبة، ولعله ظن أن فرانك وبازي كانا من عمال روسيا البيضاء.

وعلى مدار ساعة كاملة ظلوا يطوفون بأسواق هونجكيو، مارين بمئات من الكلاب النابحة المستأنسة في أقفاصها الخيزران وغيرها من الكلاب الشاردة في شنفهاي بعد أن تخلى عنها أصحابها... وقد ترقبوا مرارًا عندما كان بازي يهبط ويفاوض أصحاب الأكشاك متحدًا معهم في طلاقة بلغة أهل كانتون البحرية التي يجيدها، لكن دون أن تسفر المفاوضات عن مقايضته على الأسنان الذهبية أو العدد البحرية.

وقال جيم للبحار الشاب:

- يا فرانك... ما الذي يحاول بازي أن يشتريه؟

- يبدو أنه أكثر اهتمامًا بالبيع.

- ولماذا لا يمكن بازي أن يبيعه؟

فأجاب فرانك وقد أخرج نصف الجنيه اللامع الذي سرقه من جيب جيم وجعل يزنه في يده:

- لأن أحدًا لا يريدك... أنت لا تساوي شيئًا... كم تظن أنك تساوي؟

- أنا لا أساوي شيئًا يا فرانك..

- أنت جلد وعظام! عن قريب ستكون مريضًا طول الوقت.

- إذا حدث واشتراني أحد، فما الذي يمكن أن يفيدوه مني؟ لا يمكنهم أن يأكلوني! فأنا جلد وعظام..

غير أن فرانك أبى أن يرد... وصعد بازي إلى السيارة وهو يهز رأسه... ثم غادروا هونجكيو واتجهوا شطر الشوارع المزدهمة، سالكين طريق الترام المتوقف في غمار عربات اليد والريكشات المتشابكة..

وجلس جيم مسندًا رأسه المهتز إلى كتف بازي... ومضت بهم السيارة في رحلة وعشاء خلال الشوارع الضيقة.. وكانت مئات الوجوه الصينية تكاد تلاصق نوافذ السيارة وهي تتلوى بين (الريكشات) والعربات التي يشدها الجاموس.. وشعر جيم بالجوع من جديد، وأدى الارتطام المتصل لمجالات السيارة بقضبان الترام المعطل إلى شعوره

بالدوار، حتى ود لو عادوا إلى منطقة الميناء في نانتاو، وإلى موقد الفحم ومن فوقه إناء الأرز بالسّمك.

وبعد ساعة أفاق جيم ليجد أنهم وصلوا إلى ضواحي شنغهاي الغربية وقد لامست الشمس أعالي البيوت الفخمة حيث كانت سيارات (الأوبل) و(البويك) متراصة هامة، وحيث راح بازي يشير إلى الدور الخالية من سكانها.

عندئذ شعر جيم بالانتعاش وأخذ ينفخ في يديه التماسًا للدفع... إنهم أتموا جولة حول المدينة دون جدوى، غير أن جيم أدرك أنه قد أفلح في إغراء هذين المخلوقين الجشعين بحديثه عن حياة الطبقة الراقية... وراح يفيض في التعليق على تلك البيوت، مثل مرشد يتدفق في الشرح والوصف بين فريق من السياح المتعطشين.

- هذا البيت فيه ويسكي كثير يا بازي... وذلك البيت فيه بيانو أبيض، ولكن بلا ويسكي..

- لا تهتم المشروبات الكحولية... ليس في نيتي أنا وفرانك أن نفتح إحدى الحانات!

فمضى جيم يقول:

- أما هذا البيت ففيه سينما... وذلك البيت مملوء بالأسنان.

- أسنان يا جيم؟!

- هو بيت كان مملوكًا لطبيب أسنان... وربما توجد فيه أسنان ذهبية يا بازي!

وانعطفوا إلى أمهرست أفينو وتقدموا بين القصور المهجورة...
وكان التيار الكهربائي في المنطقة لم يقطع بعد، وجعل بازي يتطلع
إليها باحترام ظاهر، وكأن سنواته الماضية في العمل مضيئاً في الخط
الملاحى (كاثاي - أمريكا) قد علمته القيمة الحقيقية لهذه المواطن،
وبدا واضحاً أنه كان مسروراً بصحبته لجيم... وفي هذا قال له:

- أنت موفور الحظ يا جيم بنشأتك هنا... إنني أعجب بالصبي
الذي يقدر البيوت الكريمة.. إن...

ولكن فرانك قطع عليه استرساله قائلاً:

- يا بازي!

فقد توقفوا تحت الأشجار على بعد مائتي ياردة من مدخل بيت
جيم... فقال بازي:

- لك حق يا فرانك.

وفتح بازي باب السيارة وهبط إلى الطريق... ولم يكن ثمة دوريات
يابانية، وكان الحراس الصينيون قد انسحبوا إلى خلف الأسوار لقضاء
الليل... ولم يلبث بازي أن أشار إلى بيت يحف به سياج نباتي قائلاً:

- هذه فرصة يا جيم لتحريك أرجلنا... تقدم إلى هناك وانظر إذا
كان ثمة أحد يعزف على البيانو الأبيض.

أدرك جيم بحسه المرهف أنهما يدبران تركه في هذا المكان...
فبعد أن أخفقا في بيعه إلى التجار الصينيين، قررا ولا شك التخلي عنه
تحت جناح الليل.

- بازي... هل..

فوضع فرانك الجالس إلى عجلة القيادة يده على كتف جيم استعدادًا للإلقاء به إلى الطريق، فيما مضى الصبي يقول:
- ... هل يمكن أن نذهب إلى بيتي! إنه أكثر فخامة.
- أكثر فخامة؟

وراح بازي يقلب النظر حينًا في واجهات القصور من حوله، ثم ما لبث أن عاد إلى السيارة ويده على بابها دون أن يوصده قائلاً:
- لا بأس يا فرانك... سنلقي نظرة على بيت جيم.

وتقدموا بالسيارة تحت الأشجار... ولدى اقترابهم من البيت الصامت لمح جيم أن بازي قد خاب ظنه.. وما لبث أن أرسل باب السيارة مستعدًا للإمساك بجيم وقذفه إلى عتبات بيته.

تعلق جيم بالسيارة... وفي تلك اللحظة لاح شبحان يخرجان من المدخل... كانا يلبسان جلبابين أبيضين لهما أكمام طويلة فضفاضة، حتى تيقن جيم أن أمه قد عادت إلى البيت وأنها تودع أحد الضيوف، لولا أن فرانك صرخ قائلاً:

- بازي! هم يابانيون!

عندئذ تبين جيم أن الشبحين كانا جنديين يابانيين في الراحة مرتدين «الكيمونو» العسكري... وقد أبصرهم الجنديان ورفعوا عقيرتهما بالصياح... وعلى الأثر برز جاويش ياباني من داخل الصالة المضاءة بالكيروسين، ووقف على درجة السلم العليا ومسدسه الموزار مدلى

في جرابه حتى فخذة... فحاول فرانك أن يعود بالسيارة إلى الخلف عندما قفز الجنديان على سلم السيارة ولطما الزجاج بقبضتيهما... وفي نفس الوقت خرج جنديان آخران يحملان هراوات وهبطا الدرجات مسرعين.

وعندما توقف محرك السيارة شعر جيم بمن يجذبه إلى الخارج ويلقي به على الأرض، فيما كان مزيد من الجنود اليابانيين بالكيمنو يتوافدون من الداخل مسرعين... وجلس جيم فوق الحصى الحاد بين حذاءي الجاويش الياباني اللامعين وجراب مسدسه المدلى يهتز بحركات غاضبة... وأحاط الجنود اليابانيون بفرانك وهو في مقعد القيادة، وعندما همَّ أن يرفسهم بقدميه هجموا عليه بهراواتهم وانهالوا عليه ضربًا حتى سال الدم على وجهه.. واستدار جنديان آخران إلى بازي وأخذوا يلطمانه حتى وقع على الأرض قرب أقدامهما..

لقد فرح جيم برؤية اليابانيين... ومن خلال مدخل البيت المفتوح سرى إلى سمعه فيما بين الضربات العنيفة وصراخ فرانك عزف موسيقى رقص يابانية منبعث من (جراموفون) أمه في الداخل..



(١٣)

السينما المكشوفة

استقر جيم وادعًا في مقعد بالصف الأمامي في السينما المكشوفة، مستندفئًا بشمس الربيع، وعن كذب منه كان الجندي الياباني يروح ويقدم فوق خشبة المسرح، قائمًا بواجب الحراسة.

وفي دار السينما المكشوفة هذه التي اتخذ منها اليابانيون مركزًا مؤقتًا للمعتقلين، أمضى جيم ثلاثة أسابيع تعرف في خلالها على أحوال زملائه في الأسر... كان منهم ذلك الإنجليزي الأشهب زوج المرأة العاملة في إرسالية التبشير، التي كانت راقدة في حصيرتها في عنبر النوم وهي في دور الاحتضار، وإن كان مستر «بارتريدج» الزوج لم يكف عن العناية بها، جالبًا لها الماء من صنبور دورة المياه، ومطعمًا إياها بكل صبر عصيدة الأرز، التي كانت تطهوها وفي كل يوم المرأتان الأوراسيتان «من أب أوروبي وأم آسيوية» في فناء دار السينما السابقة خلف شباك التذاكر.

وكان في هذا المعتقل نحو ثلاثين من الأسرى، نقل إليه جيم بعد أسبوع قضاه في سجن شنغهاي المركزي.

وبالمقارنة بزنزانة السجن الرطبة التي شارك فيها جيم مائة من الأسرى الأوراسيين والبريطانيين، فإن معتقل السينما الصيفية كان عنده بمثابة منتجع صيفي أثير.

هذا، ولم يجد جيم أثرًا لبازي منذ اعتقاله اليابانيون، وقد سر لخلاصه من مضيف السفن ذاك... ولم يكن بين أسرى السجن المركزي - ومعظمهم من رؤساء عمال المقاولات ومن أفراد البحرية التجارية في السفن الساحلية الصينية - من سمع أو عرف شيئًا عن أبوي جيم، ومع ذلك بدا له أن نقله إلى هذا المعتقل الصغير هو خطوة على طريق الاستدلال عليهما.

وكان جيم عقب أسرهِ قد مرض بحمى أليمة كان خلالها يتقيأ دماً... وقدر أنه نقل إلى هذا المعتقل الصغير لكي يشفى... وإلى جانب الأزواج والزوجات البريطانيين المسنين، كان المعتقل الصغير يضم رجلاً هولنديًا مسنًا وابنته، وامرأة بلجيكية كان زوجها المجروح ينام قرب جيم في عنبر نوم الرجال، أو بالأحرى المخزن في دار السينما.. وكان الباقون من النساء الأوراسيات اللاتي هجرهن أزواجهن البريطانيون من العاملين المدنيين في القوات المسلحة.

ولم يكن بين أحد من هؤلاء من يستطيع جيم صحبته، فقد كانوا جميعًا إما مسنين أو مرضى بالمalaria والدوستاريا، وقليل من الأطفال الأوراسيين من كان يتكلم الإنجليزية... وهكذا كان جيم يقضي أكثر

وقته في السينما المكشوفة، متنقلاً بين مقاعدها الخشبية... وعلى الرغم مما كان يعانيه من صداع، فقد حاول كثيراً مصادقة الجنود اليابانيين أو اكتساب ودّهم، ولكن دون طائل.

وعلى الرغم مما كان يشعر به جيم من جوع طول الوقت، فقد كان سعيداً بنقله إلى هذا المعتقل الصغير، إذ استطاع أخيراً بعد طول التجوال في شوارع شنغهاي أن يستسلم للقوات اليابانية.

وفي جلسته تلك التي سلف ذكرها فيما تقدم، لم يلبث جيم أن ترك مكانه في الصف الأول محاولاً أن يتكلم مع مستر «بارتريدج» العجوز، غير أن الرجل كان غارقاً في أفكاره.. فانتقل جيم قرب المرأتين الأوراسيتين الجالستين في صف خلفي، بيد أنهما كالعادة قابلته بهز الرأس، وصدتاه بغلظة، قائلتين:

- مقرف!

- ولد قذر!

- امش! ابتعد!

وعلى هذه الصورة كانتا تعنفان به دوماً، متحريتين إبقاء أطفالهما بمعزل عنه.

ولما شعر بالتعب الذي كان يغالبه أكثر الوقت فكر أن يذهب إلى غرفة المخزن للنوم ساعة فوق حصيرته... ولكن وجبة الأرز المسلوق كانت تقدم في الأصيل، وقد حدث في اليوم السابق عندما كان يعاني من أثر الحمى أن أضاع جرايته... وكان يدهش كيف يستطيع أولئك

الأسرى المسنون أن يرتبوا يقظهم من النوم في مواعيد الوجبات... إن أحداً لم يفكر في إيقاظ جيم، وعندما استيقظ من غفوته وقتها لم يجد أثراً للأرز في القدر النحاسي الكبير... ولما أبدى احتجاجة للجندي الكوري المكلف بالتوزيع لطمه على رأسه.

ومن ثم كان جيم مصمماً على نيل نصيبه من الأرز... فقد وجد نفسه أكثر نحولاً مما كان من قبل الحرب، وقدر أن والديه قد لا يعرفانه... وفي أوقات الطعام عندما كان ينظر إلى نفسه في ألواح الزجاج المشقوق في كشك التذاكر، لم يكذب تذكر هذا الوجه المستطيل ذا العينين الغائرتين في محجريهما والعظام البارزة.

ولكي يصرف ذهنه عن التفكير في هذا تمدد فوق دكة خشبية وأخذ يراقب الزورق الطائر عبر النهر، فكان أزيز محركاته ملطفاً لمشاعره، وذكره بكل أحلامه في الطيران... وكثيراً ما كان كلما أحس بالجوع أو افتقاد أبويه يحلم بعالم الطائرات... وفي إحدى نوبات الحمى التي ألمت به تراءت له قاذفات أمريكية تحلق في السماء فوق المعتقل الصغير.

ثم دوى صوت صفارة في الفناء المجاور لكشك التذاكر... وظهر الجاويش الياباني المسؤول عن مركز الاعتقال ممسكاً بقائمة أسماء جديدة... فقد توقفت سيارة نقل عسكرية خارج مدخل دار السينما... ومعنى هذا وصول مجموعة جديدة من الأسرى، وترحيل غيرهم من هذا المعتقل... وأيقن جيم أنه سيكون في مدى دقائق في طريقه إلى المعسكرات الجديدة إما في هانججاو أو لانهوا - وفي المخزن وقف هو

والرجال المسنون القادرون على الوقوف ينتظرون كلُّ بجانب حصيرته وبيده إناء جراثيمه... وراح يستمع إلى القادمين الجدد وهم يساقون من السيارة العسكرية كالقطيع، وبينهم عديد من الأطفال الصغار.

ووقف الجاويش الياباني وفي أثره جنديان لدى الباب - وكان ثلاثتهم يضعون أقنعة قطنية على وجوههم- تحاشياً للروائح المنبعثة من المرضى... وبدت عينا الجاويش تتفحصان الجميع واحداً واحداً وتحصيان أعداد أواني الجراحة في حصر دقيق... فإن الجراحة اليومية من الأرز أو البطاطا تُرصد بعدد الأواني لا بعدد الأفراد.. وغالباً ما كان يحدث عندما يشعر مستر بارتريدج بالإعياء بعد إطعام زوجته أن يقوم جيم بإحضار نصيب الرجل المسن إليه... وذات مرة وجد نفسه على غير شعور فيه يأكل عصيدة الرز، وعندها أحس جيم بالقلق وراح يحدق في يديه الآثمتين - فأحياناً كانت أجزاء من عقله وجسده تنفصلان عن بعضهما.

ومهما يكن فقد تحامل جيم على نفسه ووقف يتسهم ابتسامة مشرقة للجاويش الياباني وهو يحاول أن يبدو قوياً ومعافى... فإن المعتقلين الأوفر صحة هم الذين كانوا يغادرون هذا المعتقل الصغير... غير أن الجاويش بدا كالعادة معرضاً عن ابتسامة جيم... ووقف جانباً لإفساح الطريق للقادمين الجدد لكي يدخلوا المخزن، أو عبر النوم... وقد دخل ممرضان صينيان يحملان نقالة عليها امرأة إنجليزية غائبة عن الوعي تلبس ثوباً قطنياً مبقعاً، بينما أمسك بطرف النقالة ولداها وكانا يناهزان سن جيم... ومر بعدهم ثلاث نساء عجائز يعرجن... وجاء في أثرهن

جندي طويل يلبس حذاء ثقيلًا و «شورتًا» عسكريًا بريطانيًا، وكان عاري الصدر بارز العظام حتى خيل إلى جيم كأنه يكاد يبصر نبضات قلبه... وقد ربت الرجل على رأسه وهو يبادره بابتسامة وانية قائلاً:

- أحسنت يا فتى!

وسارع الرجل بالجلوس إلى الحائط مديرًا وجهه البالغ النحول شطره.

وعلى محفة من القش المجدول أنزل ممرضان آخران رجلًا قصيرًا متوسط العمر يرتدي سترة بحار مبقعة بالدم، وقد ألصقت شرائط من ورق الأرز كضمادات فوق يديه ووجهه وجبينه المتورمة.

حدق جيم إلى حطام هذا الرجل ولم يتمالك أن رفع ساعده إلى فمه لحجب الرائحة الكريهة.. ووجد العديد من النساء الأوراسيات يغادرن مركز الاعتقال هذا مع أطفالهن... وعندما أدار نظره إلى الرجال المرضى والمحتضرين في غرفة المخزن تلك، ثم إلى الممرضين والجنود اليابانيين ذوي أقنعة القطن - بدأ يدرك لأول مرة الغرض الحقيقي من هذا المعتقل.

ووقف مستر «بارتريدج» والرجال المسنون كُلاً قرب حصيرته، يهزون أوعية الجراية طالين وجبة المساء. وأوماً البحار الجريح إلى جيم بيديه المضمدمتين، قارعًا وعاءه الفارغ بنفس الوقع الرتيب كالذي سمعه جيم من المتسول المحتضر خارج بوابة بيته في أمهرست أفينو... وحتى الجندي البريطاني الناحل قد وجد غطاء إناء جراية، فأخذ يقرع به الأرض الحجرية ووجهه إلى الحائط.

وحذا جيم حذوهم وهو يراقب الجنود اليابانيين من خلال
أقنعتهم... غير أنه حتى في هذه اللحظة عندما بدأ يئأس من لقاء أبويه،
ما لبث أن أحس بأمل دافق... فقد ركع على الأرض وأخذ وعاء الجراية
من البحار الجريح متنسماً عطر كولونيا يسيراً، وقد أيقن الآن أن الاثنين
سيغدون بإمكانهما مفارقة هذا المعتقل الصغير واتخاذ سبيلهما إلى
رحاب الأمان في معسكرات الاعتقال.

وهتف جيم:

- بازي! كل شي على ما يرام؟



(١٤)

طائرات أمريكية

مضى جيم يقول:

- سوف تنتهي الحرب عاجلاً يا بازي! لقد رأيت طائرات أمريكية من طراز كورتيس القاذفة ومن طراز بوينج!
- طائرات بوينج؟! جيم... أنت!
- لا تتكلم يا بازي... إنني أعمل لك الآن مثل فرانك.

وقرّص جيم بجانب البحار الأمريكي محاولاً أن يتذكر الخدمات اللاتي كن يرعينه في طفولته المبكرة... لم يقد قط بخدمه أحد من قبل... ولكنه أمال وعاء الجراية وحاول أن يسكب قليلاً من الماء في فم بازي، ثم عمد بعد ذلك إلى غمس أصابعه في السائل اللزج وجعل بازي يلعقها.

وعلى مدار ثلاثة أسابيع كرس جيم نفسه لرعاية مضيف السفن السابق، فكان يأتيه بجرايته من الأرز المسلوق والبطاطا، وبالماء من

الصبور الذي في الممشى... وكان يجلس الساعات بجانب بازي، يروح عليه وهو ممدد في حصيرته تحت النافذة... وما لبث تيار الهواء المجدد أن أنعشه وبث فيه الحيوية، فأخذ ينزع ضمادات الورق من وجهه ومعصميه... واستطاع بمساعدة جيم أن ينقل حصيرته بعيداً عن الجندي الإنجليزي المحتضر قرب الحائط... وفي خلال أسبوع استرد من الصحة قدرًا طيباً هياً له أن يتابع الجنود اليابانيين وروحات وغدوات النساء الأوراسيات اللاتي يتولين الطهو للأسرى.

وفيما كان ينظف وعاء جراية بازي جعل يسائل نفسه هل يا ترى عرفه البحار الأمريكي فعلاً؟ وهل عرف أن جيم أفلح في التغرير به؟ لعله يعمل على الإبلاغ عن جيم والوشاية به لدى الأسرى الآخرين، وإن لم يكن بوسعهم أن يفعلوا أي شيء! وعندما اطمأن آخر الأمر إلى أنه قد صار له حليف في مشاحناته مع النساء الأوراسيات، أراح رأسه فوق ركبته.

فما لبث أن شعر ببازي يلمسه بوعاء الجراية، وسمعه يقول:

- هذا وقت الطعام يا جيم... قم إلى الصف.

وما إن نهض جيم حتى أضاف بازي:

- قدم خدماتك لمسز بلاكبورن يا جيم... إن المرأة تحتاج دائماً إلى من يساعدها في إيقاد النار.

كان بازي قد استطاع على نحو ما أثناء زيارته لدورة المياه أن يعرف اسم المرأة الأوراسية.. وقد أسرع جيم جاريًا من غرفة المخزن بوعائي الجراية... وتبعه بقية الأسرى... وأخذ مستر بارتريدج إناء

الجندي الإنجليزي الذي جلس قرب الحائط في بركة من البول.

وكان الدخان يرتفع من الفناء خلف كشك التذاكر، وجلست المرأة الأوراسية تروح على نار الموقد، دون أن يصل الأرز والبطاطا في القدر الكبير إلى درجة الغليان... ووقف جندي ياباني يحدق ساهمًا في القدر الفاتر، ثم هز رأسه للأسرى الجياع... فتفرقوا بين دكك السينما وجلسوا يحدقون إلى الدخان المتصاعد عبر شاشة السينما الخالية.

وأما جيم فقد حوم حول مسز بلاكبورن ومعه وعاء الجراية وأتحفها بأحلى ابتسامة... إنها كانت تنفر منه، غير أنها سمحت له أن يضيف بعض الحطب إلى الموقد، ثم أخذ ينفخ النار بقوة لإضرامها ويروح على الجمر.. وبعد نصف ساعة كوفئ جيم، بموافقة الجندي الياباني، بنصيب عادل من الجراية هذه المرة.

لقد بدا بازي راضيًا ولكن غير متأثر... وبعد أن فرغ من وجبته اتكأ على مرفقيه وراح يسرح النظر في زملائه الأسرى، ومنهم من اشتد به الإعياء حتى عجز عن الأكل، ثم أخذ يرفع آخر ضمادات الورق عن الجروح التي كانت فوق عينيه... ومهما يكن ما ألم به في سجن شنغهاي المركزي - ولم يجسر جيم قط على سؤاله عن فرانك - فقد عاد إلى سالف حاله كمضيف سابق في الخط الملاحي «كاثاي - أمريكا»، وغدا متأهبًا لتجميع جزء صغير من العالم المنقوض من حوله... ولم يلبث أن حدق في جيم متفريًا في ملابسه الممزقة ومظهره الأشعث وعينه الغائرتين المصفرتين، ثم قدم إليه دون تعقيب قطعة من البطاطا.

- شكرًا يا بازي.

- أنا أراك يا جيم.
- التهم جيم قطعة البطاطا الضئيلة مرددًا.
- ... ترعاني يا بازي!
- هل ساعدت مسز بلاكبورن؟
- إنني تمسحت بها، وقدمت لها حزمة كبيرة.
- هذا هو المطلوب... إذا وجدت طريقة لمساعدة الناس، فسوف تجني فوائد كثيرة.
- ... مثل قطعة البطاطا هذه؟ قل لي يا بازي، عندما كنت في سجن شنغهاي المركزي، هل تكلم أحد عن أمي وأبي؟
- أظن أنني سمعت شيئًا يا جيم.
- وقوس يده قرب فمه كمن يفضي بسر، مردفًا:
- عندي أخبار طيبة... إنهما في أحد المعسكرات، وهما يتطلعان لرؤيتك... سوف أبحث لك في أي معسكر هما.
- شكرًا يا بازي.

ومنذ ذلك الحين أخذ جيم يساعد مسز بلاكبورن بانتظام... فكان يستيقظ في الفجر كل يوم لكي يزيل الرماد من الموقد وينقل الحطب إليه... وقبل أن يبدأ غليان القدر بفترة طويلة يكون جيم قد حدد قطع البطاطا التي يستخلصها لبازي ولنفسه، خالصة من العطب واللفظ... وكان يتحرى أن تغرف له مسز بلاكبورن الطبقة الكثيفة من الأرز حتى يكون فيها أقل قدر من الماء... وبعد الوجبة، عندما يأخذ باقي الأسرى

في غسل أوعيتهم لدى صنبور دورة المياه، كان بازي يوفره لملء وعائيهما بالسائل المنعقد في قدر البطاطا.. فقد كان بازي يصصر على ألا يشربا سوى هذا السائل المربد الكثيف نوعاً ما.

وعلى الرغم من أن بازي لم يبد أنه كان متحمساً لكي يقترب جيم منه أكثر مما ينبغي، فإنه كان واضحاً أنه يقر مساعيه تلك.. وفي نهاية الأسبوع الثاني لوجوده في المعتقل الصغير، سمح بازي لجيم بنقل حصيرته إلى قربه... وغدا بإمكان جيم وهو راقد عند قدمي بازي أن يراقب حركات مسز بلاكبورن كلما ذهبت إلى الكشك.

وقال له بازي وجيم يروّح له:

- كن دائماً خفيف الخطى يا جيم... واحرص مهما يحدث على دوام الحركة فيما حول الفناء... إن والدك سوف يوافقني على هذا.

- فعلاً، سيوافقك... وبعد الحرب يمكنك أن تلعب التنس معه... هو ماهر في هذا.

- حسن... إن ما قصدته يا جيم هو أنني أحاول أن أكمل تعليمك... ووالدك سوف يقدر ذلك.

- أظن أنه سيعطيك مكافأة يا بازي.

تصور جيم أن هذه الفكرة يمكن أن تحفز بازي للبحث عن أبيه، وأضاف:

- ... ذات مرة أعطى أبي خمسة دولارات لسائق سيارة أجرة أقلني إلى البيت من هونجكيو.

- أحمقًا يا جيم؟

أحيانًا كان بازي لا يستطيع أن يتأكد مما إذا كان جيم لا يغرب به...
ومضى يقول:

- قل لي، هل رأيت أي طائرات اليوم؟

- رأيت طائرات من طراز «ناكاجيما شوكي» و«زيروسين».

- ... والطائرات الأمريكية؟

- لم أراها مرة ثانية.. أي منذ وصولك إلى هنا يا بازي.. إنني رأيتها
مدة ثلاثة أيام، وبعدها لم تعد.

- ظننت أنها عادت... لا بد أنها كانت طائرات استطلاع من طراز
خاص.

- ... لكي ترى أحوالنا؟ من أين جاءت يا بازي؟ من جزيرة وايك؟

- ... ومن مكان بعيد يا جيم.. لا بد أنها جاءت إلى آخر مداها.

وأخذ بازي المروحة من يد جيم.. وعندئذ جاء أسترالي مسن لكي
يتحدث مع بازي عن الحرب، فأردف بازي:

- اذهب وساعد مسز بلاكبورن... تذكر أن تنحني أمام الجاويش
بوشيدا.

- إنني أنحني دائمًا يا بازي.

تلكأ جيم قليلاً للتنصت إلى الحوار، أملاً في الإلمام بآخر الأخبار،
بيد أن الرجلين أبعداه بإشارة منهما. لقد كان بازي وافر الإلمام بصورة

مدهشة بتطورات الحرب، من سقوط هونج كونج، ومانبلا، وجزر الهند الشرقية الهولندية، واستسلام سنغافورة، وزحف اليابانيين المتواصل عبر المحيط الهادي.. وكانت الأنباء الطيبة الوحيدة في هذا كله هي طلعات الطائرات الأمريكية التي شاهدها جيم فوق شنغهاي، غير أن بازي لم يذكرها قط لسبب ما... وكان يحب أن يزعم شفثيه عند الكلام وهو يخبر البريطانيين عن الأسرى الآخرين في سجن شنغهاي المركزي.. من ماتوا منهم ومن سلموا إلى الصليب الأحمر السويسري.. وأحياناً كان بازي يبيع المعلومات لقاء فئات من الطعام... وذات مرة قدم إليه مستر بارتريدج نصيبه من البطاطا مقابل أخبار عن صهره في ناكينج... وقد سعى جيم مدفوعاً بهذا إلى إبلاغ مسز بلاكبورن عن الطائرات الأمريكية، غير أنها ردت على أعقابها إلى مكان الموقد لإتمام مساعداته إليها.

والآن بعد أن شعر جيم بأنه أضحى أكثر قوة، فقد أدرك مدى أهمية أن يركز اهتمامه على الطعام... كان هذا الطعام يقسم بين الأسرى على السواء، ومن ثم كانت جرايتهم اليومية لا تكفي لإبقائهم أحياء... ولهذا مات كثير من الأسرى، ومن كان يضحي بنفسه من أجل الآخرين كان يموت أيضاً... وكانت الطريقة الوحيدة لمفارقة المعتقل الصغير هي أن يبقى الإنسان متعلقاً بالحياة... وهكذا فما دام كان جيم يؤدي خدمات لبازي، ويعمل جاهداً لمساعدة مسز بلاكبورن، وينحني أمام الجاويش يوشيدا - فكل شيء إذن بخير.

ومع ذلك فإن بعض أساليب بازي الملتوية كانت تقلق جيم... في صباح اليوم الذي توفيت فيه مسز باريريدج علم بازي بعض الأخبار

المشجعة عن صهر في ناكنج، واستطاع عقب ذلك أن يبيع فرشاة شعر العجوز إلى مسز بلاكبورن - وكلما مات أحد كان بازي عن كذب للإبلاغ والمواساة، وإن كان الموت تعبيراً مطاطاً لدى مضيف السفينة السابق، قابلاً لكل أنواع التأويلات.. ومن ناحية جيم فإنه استحوذ على جراية الجندي البريطاني بليك مدى يومين بعد أن ألقاه ممدداً بلا حراك على أرض المخزن، وجلد بشرته يبدو فوق قفصه الصدري أقرب شبهاً بورق الأرز حول مصباح... وعلم جيم أن الرجل توفي بالحمى التي أصابت كثيرين من غيره من الأسرى... غير أن جيم كان ينظر إلى أولئك المسنين بعين الرجاء، منتظراً أن تنالهم تلك الحمى تبعاً... والواقع أنه بعد أن تقبل جيم وبازي دورهما حيال مشروع الجراية الإضافية ذلك، فقد زال عنهما كل إحساس بالتأثم.

ولقد لاحظ مدى اختلاف بازي عن أبيه في هذا الصدد... كان جيم في بيت أبويه إذا فعل شيئاً خاطئاً، فإن العواقب كانت تظل ماثلة في البيت على امتداد أيام.. أما عند بازي فإن كل تبعة أو أثر كان يتلاشى في الحال، ولأول مرة في حياة جيم شعر بأنه حر يفعل كل ما يحلو له.. وأصبحت كافة الأفكار الملتوية تتوارد في ذهنه، يغذيها الجوع ولذة السرقة من الأسرى المسنين... وعندما كان يستريح فيما بين الأعمال التي يكلف بها أمام شاشة السينما الخالية، كان يستسلم للتفكير في الطائرات الأمريكية التي شاهدها بين السحب فوق شنغهاي... وكان يستحضرها في خياله كلما استبد به الجوع... فهل كانت رؤية واقعية، أم رؤى جوعان؟!

في طريقهم إلى المعسكرات

في اليوم الذي قضت فيه المرأة الإنجليزية نحبها وصلت مجموعة جديدة من الأسرى إلى المعتقل الصغير.. ووقف جيم قرب باب المخزن المتخذ عنبر نوم للنساء فيما كانت مسز بلاكبورن وابنة الرجل الهولندي المسن تحاولان مواساة ولدي المتوفاة... كانت الأم مسجاة على الأرض الحجرية في ثوبها المبتل عن آخره، وكأنها جثة انتشلت من النهر... وظل ابناها يتلفتان نحوها كأنما يتوقعان أن تلقي إليهما بوصيتها الأخيرة.. ولقد شعر جيم بالحزن على الولدين، بول وديفيد، وإن كان لم يكد يعرفهما... وبدا أنهما أصغر كثيرًا من جيم، ولكن الحقيقة أنهما كانا يكبران بأكثر من عام.

ولقد ركز جيم عينيه على وعاء جراية الأم وحذاءها للتنس... إذ كان لأسرى الحلفاء أحذية أحسن كثيرًا من أحذية الجنود اليابانيين، وقد لاحظ أن الجثث التي كانت تنقل من المعتقل الصغير كانت حافية الأقدام... بيد أنه لم يكد يتسلل إلى غرفة المخزن حتى دوت صفارة

خشنة من ناحية الفناء واقترنت بسلسلة من الصرخات الزاعقة من جانب الجاويش يوشيدا، إذ كان من عادته أن يؤجج أقصى درجات الغضب في صدره إذا احتاج إلى إصدار أبسط الأوامر والتعليمات... وأخذ الجنود اليابانيون بوجوههم المقنعة يكدسون من داخل العنبر كل من يمكنهم المشي من الأسرى... وكانت سيارة نقل عسكرية قد رابطت خارج دار السينما، ووقف من كانوا فيها من الأسرى على قارعة الطريق مبلبلين.

وسرعان ما تبخرت من دماغ جيم كل خططه عن حذاء تنس المرأة المتوفاة... فهي هو ذا يوشك أخيراً أن يبرح المعتقل الصغير إلى رحاب المعسكرات المنتشرة في الريف حول شنغهاي.

وهكذا اندفع جيم بين الحراس خفيف الوطاء، واصطف بجانب زملائه الأسرى - مستر بارتريدج حاملاً حقيبة ملابس زوجته، وكأنما يصحب معه ذكراها في رحلة طويلة، ثم بول وديفيد، ثم المرأة الهولندية ووالدها، وعديد من أفراد هيئة التبشير... واتخذ بازي مكانه خلفهم ووجهه المبيض محجوب خلف ياقة سترته البحرية، متخفياً إلى أبعد حد حتى يكاد لا يُرى.. وكان قد حرص على الانزواء عن العيان في المعتقل الصغير هذا خلال الأسابيع القلائل الأخيرة، لكي يعود إلى الظهور مثل إحدى الطفيليات البحرية من صدفاتها متى ظفر بالوصول إلى رحاب المعسكرات الطليقة.

واكتمل ظهور الوافدين الجدد... كانوا امرأتين من إقليم أنام، ومجموعة من البريطانيين والبلجيكيين، بالإضافة إلى المرضى

والمسنين محمولين على محفات بأيدي المرضى الصينيين.

وبدأ الجاويش يوشيدا المقنع ينتقي الأسرى المؤهلين للنقل إلى المعسكرات... وما لبث أن هز رأسه حيال مستر بارتريدج ورفس الحقيقة التي يحملها مهتاجاً... ثم أشار إلى المرأة الهولندية وأبيها، وإلى ديفيد وبول، واثنين من أفراد البعثة التبشيرية وزوجتيهما.

وعندئذ لعق جيم أصابعه ومسح سناج الموقد من جديد... وفي هذه الأثناء أوماً الجاويش إلى بازي شطر السيارة... فاتجه المضيف البحري السابق إليها بين الحراس وذراعاه حول الولدين دون أقل نظرة إلى جيم. وما لبث الجاويش يوشيدا أن ضغط بأصابعه على جبين جيم المتسخ... كان الجاويش في الحقيقة يعد جيم مصدر إزعاج له بدوام انحنائه أمامه وتكرار ابتسامه وكثرة تنقله لإنجاز ما يكلف به من أعمال، ومن ثم كان يسره أن يتخلص منه.. ثم ما لبث أن نظر إلى فوج القادمين الجدد، أولئك الذين وقفوا يحدقون متململين إلى الموقد البارد وإلى طفح الأرز المغلي حول حافة القدر... وإذا هو يطبق بيده على عنق جيم ويدفعه بصرخة مكتومة من تحت القناع إلى ناحية الموقد... وفيما عالج جيم النهوض من سقطته على ركبتيه رفس الجاويش أكياس الفحم، فتناثرت فوق الأرض الحجرية.

أخذ جيم يعد الموقد، بينما تفرق الوافدون بين الدكك وجلسوا في مواجهة الشاشة الخالية وكأنهم يتوقعون عرض فيلم... وفي هذه الأثناء وقف بازي والهولنديان والولدان بول وديفيد وأفراد هيئة التبشير في الشارع خلف سيارة النقل العسكرية المفتوحة، على مرأى من جمهور

من حمالي «الريكشات» والنساء الفلاحات وقفوا يتفرجون عن بعد.

ونادى جيم صاحبه بازي:

- بازي: سوف أستمّر في العمل من أجلك!

غير أن الرجل فقد الاهتمام به، مسبغاً صداقته على الأخوين،
اللذين ساعدها، وهو يرتقي فوق ركبتيه المرضوضتين إلى الباب
الخلفي للسيارة.

- بازي!

مرة أخرى نادى جيم المضيف البحري السابق، فيما كان جندي
ياباني مقنع يعد أوعية الجراية المكومة... وأدرك جيم وهو يبصر
الأسرى المصابين والمرضون يحملونهم في المحفات أنهم جيء بهم
إلى هذا المعتقل الصغير لأنهم إما متقدمون جدًا في السن أو مشرفون
على الموت بالدوسنتاريا أو التيفويد أو أي حمى أخرى كالتّي أصيب
هو بها والجندي يليك من شرب الماء الملوّث.. كان موقفنا أن كثيرين
من هؤلاء الأسرى سيقضون نحبهم قريبًا، وأنه لو بقي في هذا المعتقل
فسوف يلقي مصيرهم.. وفي خلال ذلك كانت النسوة قد جمعن أوعية
الجراية من الجندي الذي أحصاها، وأخذن يشرن بأنهن لن يعطين جيم
نصيبه الأوفى من الجراية، وعندئذ تلم به رؤى الطائرات الأمريكية من
جديد، ويقضي نجه!

- بازي!

وألقى جيم من يده قضيب الموقد... فقد استقر آخر الأسرى

الراجلين في داخل السيارة... ودار المحرك، وتقدمت السيارة بضعة أقدام ثم توقفت... وصاح السائق الياباني من نافذته، ملوحًا بحافضة خريطة مغلقة بالقماش السميك وضاربًا بقبضته الباب المدني... ورد عليه الحراس الواقفون على الرصيف بمثل صياحه، متأهبين لإقفال بوابة المعتقل والعودة إلى غرفة الحراسة.. وتزايدت الصيحات الغاضبة بين السائق والحراس وهم يتجادلون حول وجهة السيارة إلى منطقة ووسانج... وما لبث السائق أن هبط من مقصورة القيادة غير عابئ بصيحات الغضب من حوله وبسط الخريطة على مقدمة السيارة هازًا كتفيه يائسًا أمام تيه الشوارع المجاورة.

أسرع جيم واندس بين الجنود بعد أن أدرك أنه لا الجاويش يوشيدا ولا السائق لديهم أدنى فكرة عن موقع ووسانج، وهو منطقة زراعية عند مصب نهر يانجتسي فيما بعد الضواحي الشمالية لشنغهاي.. وأخيرًا أشار السائق، شطر الميناء ناتاو، ثم صعد عائدًا إلى مقصورته، وجلس ساكنًا، فيما اندفع الجاويش يوشيدا نحوه وهو يكيل له السباب.

أما جيم فقد انتظر حتى تصل غضبة يوشيدا إلى أقصاها، عندما يضطر إلى اتخاذ قرار وتحديد الطريق الذي يسلكه السائق... وبعد أن تصفح الأفق بنظرة بين الأبنية السكنية المتراسة فيما أمامه، لم يلبث أن أشار اعتباطًا إلى شارع مرصوف بالبلاط البازلتي يشقه خط ترام معطل... فما كان من السائق إلا أن أدار المحرك في إعياء وبصق كرة من البلغم استقرت عند قدمي جيم.

عندئذ هتف جيم للسائق مشيرًا إلى الطريق:

- ووسانج! «طوالي»!! من هنا!

وسرعان ما لطمه الجاويش يوشيدا على رأسه حتى ألهب أذنيه... ولطمه مرة ثانية حتى سال الدم من فمه... وفي هذه اللحظة اندفع من البوابة دخان كثيف بسبب الأخشاب الغارقة في الماء وملأ الدخان جو السينما.

ولكي يتخلص الجاويش يوشيدا نهائياً من متاعب جيم انتهز الفرصة وأمسكه بذراعيه القويتين وطوح به إلى داخل السيارة، صارخاً بنداء للحارس الجالس بجوار الأسرى... فما كان من الحارس إلا أن سحب جيم فوق حجر المرأة الهولندية ووالدها... ولما ابتعدت السيارة عن المعتقل وكانت عجلاتها محشورة في قضبان الترام، دفع به إلى مقصورة القيادة، غير أنه عالج أن يستند ويتوازن لدى سقفها، متجاهلاً سيل الشتائم التي انهال بها السائق عليه... ثم رفع فمه الدامي في الهواء لكي ينعش رثتيه بهواء شنغهاي مهما يكن من فساد، سعيداً بأن يغدو في طريقه لملاقاة أبويه من جديد.



جراية من الماء

هل ضلوا الطريق وأصبحوا مفقودين؟ ظلوا على مدار ساعة وهم يشقون الطريق مهترزين متطاوحين بحركة السيارة خلال الضواحي الصناعية شمالي شنغهاي... وكان جيم متشبثاً بالعمود الخشبي خلف مقصورة القيادة ورأسه مشحون بعديد من الاتجاهات التي يمكن أن تسلكها السيارة... وأخذ يتسم لنفسه ناسياً مرضه والأسابيع الأليمة التي أمضاها في السينما المكشوفة... وكان يشعر بوجع في ركبتيه من أثر الاهتزاز المستمر، وكأن أحياناً يضطر إلى الإمساك بالحزام الجلدي للجندي الياباني الجالس إلى جانبه... ولكن ها هو ذا في النهاية يتحرك قدماً شطر الريف الطليق، وعالم معسكرات الاعتقال التي سوف تفتح له أحضانها حفية مرحبة!

كانت شوارع ضاحية شابي التي يمرون بها عامرة بالمباني السكنية ومصانع غزل القطن وثكنات الشرطة والقرى الريفية القائمة على ضفاف قنوات مسودة... غير أن جيم لم يكن ملقياً باله إلى هذه المشاهد

المتعاقبة، مستمتعًا باستنشاق الهواء الذي أخذت تخالطه روائح السماد
إيذانًا بقرب الوصول إلى الريف.

ولأول مرة أحس جيم أنه يستمتع بحالة الحرب... ولم يكن
يضايقه سوى أن رفاقه الأسرى لم يشاطروه هذه المشاعر.. فقد جلسوا
محسورين فوق المقاعد الخشبية يحدقون إلى أقدامهم... وكانت امرأة
من هيئة التبشير ممددة على أرضية السيارة وبجانبا أسير بريطاني
مرضوض الوجه أمسك بيدها مواسيًا... وكان الولدان الإنجليزيان
جالسين بين بازي والرجل الهولندي وابنته وما زالا تحت تأثير الصدمة
في أعقاب وفاة أمهما.

وانتظر جيم حتى رفع بازي رأسه، ولكن مضيف السفينة السابق
بدا وكأنه لا يعرفه... فقد نقل اهتمامه إلى الولدين، وذهب يحاول أن
يملاً بعض الفراغ في حياتهما، وفي هذا السبيل عمد إلى صفحة من
جريدة صينية أخذ يصنع منها سلسلة من الحيوانات الورقية، متضحكًا
إذا انفرجت أساريرهما عن ضحكة وانية.. وبحركات الحواة كان يدس
يده في جيوبهما بحثًا عن شيء له قيمته!

وكان جيم يراقبه دون أن يستاء... فقد لبث يتعاون هو وبازي في
المعتقل الصغير للبقاء على قيد الحياة، غير أن بازي استغنى عنه حالما
تهيأت له الفرصة للانتقال إلى المعسكرات.. وربما كان محققًا.

وابتعدت السيارة عن ضواحي شنغهاي الشمالية ودخلت منطقة
امتدت فيها أرض بور وبعدها حقول أرز... وبعد مسيرة مائتي ياردة
شارفت قناة ممتدة إلى قرية مهجورة... وما لبث السائق الياباني أن

توقف وهبط من السيارة وأخذ يفحص العجلات الأمامية... وفي خلال ذلك كان يتمم شطر المحرك الباخر وبين فينة وأخرى كان يشمل جيم بتمتمته.. كان لا يجاوز العشرين من عمره، ولكن مظهره دل أنه انصهر بتجارب الحياة... وأطرق جيم إذ رآه يعود إلى عجلة القيادة، بيد أن السائق هز سبابته نحوه متوعدًا، متممًا بكلام كأنه نذير بإعلان الحرب! وهنا عقب بازي قائلاً:

- إذا كانت الرحلة على هذا الوجه أو ذاك، فما زلنا مفقودين بعد أن ضللنا الطريق!

كان بازي قد حول اهتمامه عن الولدين إلى أي شيء يمكن أن يفيد منه في هذا الموقف، وقد توجه إلى جيم قائلاً:

- يا جيم! هل يمكنك أن تعرف إلى أين تتجه بنا؟

- إلى ووسانج! لقد ذهبت مرة إلى النادي الريفي يا بازي.

فأخذ بازي يتلاعب بالحيوانات الورقية قائلاً للولدين:

- إننا ذاهبون إلى النادي الريفي، إذا أمكن جيم أن يعثر عليه لنا!

- طالما أمكننا الوصول إلى النهر يا بازي... وعندما نتجه شرقاً أو غرباً.

- يا لها من مساعدة يا جيم! شرقاً أو غرباً!

وفي هذه اللحظة تدخل أحد أفراد هيئة التبشير ويدعى الدكتور رانسوم قائلاً:

- ألا يمكن أن نعود إلى المعتقل الصغير؟ نحن في غاية التعب!

وبعد أن حلق طويلاً في حقول الأرز المهجورة أردف قائلاً وهو
ينظر إلى المرأة الممددة تحت قدميه:

- ربما كانت العودة إلى هنا أفضل... إن هذه المسكينة لا يمكن أن
تتحمل أكثر من هذا!

ومضت السيارة في طريقها متناقلة في هذا الخواء الشامل...
وكانت تتجه الآن نحو الشمال الغربي، وقدر جيم أنها قد تصل قريباً إلى
خط سكة حديد شنغهاي - ووسانج... وبدأ البخار ينبعث من الرادياتير،
ملطفاً وجه جيم، بيد أن السائق أخذ يدق بقبضته على باب المقصورة،
فأدرك جيم أنه يشاور نفسه حتى يتوقف ويفضل راجعاً إلى شنغهاي!

استسلم جيم لهبوط الرحلة، وعودتهم إلى المعتقل الصغير، ومن
ثم جعل يتأمل بندقية الجندي وشعارها الإمبراطوري... وإذا المرأة
الهولندية تجذبه من كم سترته الرياضية المتسخة بالسناج قائلة:

- هناك يا جيم.. هل هذا...؟

كان ثمة حيث أشارت طائرة محترقة على ضفتي قناة مهجورة وقد
نمت الحشائش والعواسج بين جناحيها، ولكن اسم طرازها كان لا يزال
مقروءاً... فقال جيم:

- هي من طراز «ناكا جيما»... ولا تحمل أكثر من مدفعين رشاشين.

هكذا رد جيم مسروراً بأن وجد من تشاطره اهتمامه بالطائرات.

- مدفعان فقط؟

بيد أن جيم ما لبث أن حول اهتمامه عن المرأة الهولندية، فقد أبصر

عند الطرف الأقصى لحقل الأرز محطة سكة حديدية محجوبة تقريباً بين العواصج... وعلى رصيف المحطة الصغيرة لاح له نفر من الجنود اليابانيين يطهون طعامهم على نار من الحطب، وعن كذب من المحطة وقفت سيارة عسكرية منكرة بوسائل التعمية، ومحملة بلفائف الأسلاك التي كان مهندسو سلاح الإشارة أولئك منوطين بإعادة مدها بين أعمدة التلغراف.

قال جيم للمرأة الهولندية:

- مسز هوج... هذه هي محطة السكة الحديدية المؤدية إلى ووسانج!

وتزايد البخار المتصاعد من محرك السيارة حتى غمر مقصورة القيادة، وتوقفت السيارة... وكان الجندي الجالس بجانب جيم يشعل سيجارة استعداداً لرحلة العودة.. فجذبه جيم من حزامه مشيراً إلى ما وراء حقل الأرز... فتابع الجندي اتجاه ذراعه وما لبث أن دفع به إلى الأرضية... ثم صاح بالسائق الذي قذف بخريطة الطريق إلى المقعد بجانبه، وعالج السيارة بعد محاولات متعثرة حتى تمكن من الاتجاه بها شطر محطة سكة الحديد.

ولما رأى الدكتور رانسوم الولدين يترنحان بحركات السيارة بعد إفلاتهما من قبضة بازي بادر إلى إسنادهما لئلا يقعاً على المرأة الممددة على الأرضية.. ثم ساعد جيم على النهوض من سقطته قائلاً:
- أحسنت يا جيم.. سوف يجدون ماء لنا... لا بد أنك عطشان.

- قليلاً.. لقد شربت في المعتقل الصغير.

- حسناً فعلت... كم لبثت هناك؟

فأجاب جيم وقد نسي العد:

- مدة طويلة جداً.

فقال الدكتور رانسوم وهو ينفض الأوساخ عن سترة جيم:

- هذا ما تصورته... ذلك المعتقل كان داراً للسينما؟

- لكنهم لم يعرضوا فيه أي أفلام!

- هذا مفهوم طبعاً.

كان جيم يتطلع إلى الطائرة المحترقة على ضفة القناة المهجورة وهو لا يتمالك من الابتسام... فقد زال الآن الخطر من احتمال عودتهم إلى المعتقل الصغير... وطوح الجندي الياباني سيجارته وأمسك ببندقيته في وضع عسكري... وشوهد رقيب من فريق سلاح الإشارة يقفز من رصيف المحطة، ويعبر شريط سكك الحديد.

وقال جيم للمرأة الهولندية:

- مسز هوج.. لا أظن أننا سنعود إلى شنغهاي.

- كلا يا جيم.. لا بد أن نظرك حاد جداً... عندما تكبر يجدر أن

تكون طياراً.

- الغالب أنني سأكون هذا.. إنني ركبت طائرة يا مسز هوج.. في

مطار هانججواو.

- هل طارت بك؟

- حسن... لم تكن هناك فرصة..

أدرك جيم أن الإفشاء بأسراره إلى الكبار ربما أفضى به إلى مواقف غير محمودة العواقب... وشعر بأن الدكتور رانسوم كان يراقبه، فقد جلس الطبيب إلى جانب والد مسز هوج الذي كان يتنفس بصعوبة وهو يحاول مساعدته، غير أنه كان مركزاً نظراته على جيم، متفرساً في ساقيه العصويتين وثيابه الرثة ووجهه الصغير المتحمس... وعندما وصلت بهم السيارة إلى خط سكة الحديد شمل جيم بنظرة مشجعة، ولكن جيم قرر ألا يرد بمثلها... فقد أدرك، على نحو ما، أن الدكتور رانسوم لا يتقبله.. غير أن الدكتور رانسوم لم يكن مثله في المعتقل الصغير حتى يكون هذا مسلكه حياله!

وتوقفت السيارة قرب الخط الحديدي... وتقدم السائق لتحية الرقيب وتبعه إلى المحطة، حيث بسط خريطة الطريق فوق مقصورة تليفون الميدان.. وجلس الأسرى في ضوء الشمس الدافئ فيما كان الرقيب يشير شطر الحقول الجافة.

ولم يلبث جيم أن غير مكانه وجلس بجانب مسز هوج التي أسندت والدها المسن إلى صدرها... وتمددت امرأتان من هيئة التبشير على أرضية السيارة، بينما استسلم غيرهم من الأسرى إلى النعاس أو ظلوا يتمللملون... وتوقف بازي عن الاهتمام بالولدين الإنجليزين وراح يراقب جيم من فوق ياقة سترته المبقعة بالدم.

واحتشد آلاف الذباب حول السيارة مجذوباً بروائح العرق

والبول الجاري فوق ألواح الأرضية... وأخذ جيم ينتظر عودة السائق بالخرطة.. غير أنه جلس فوق كوم من لفائف أسلاك التلفون يتحدث مع اثنين من الجنود كانا يطهوان وجبة الغداء.

فجأة فكر جيم وهو يراقب كل هذا في الطائرات الأمريكية... ترى هل ستعود مرة أخرى؟.. ولم يتمالك أن شخص بعينه إلى السماء في حركة استفزازية للدكتور رانسوم، خصوصًا وقد طغى عليه الحنين إلى أمه وأبيه وبيت الأسرة في أمهرست أفينو... وإذا هو يقف صائحًا دون تفكير ولا تدبر.. بيد أن الحارس الياباني دفعه بغلظة إلى المقعد الخشبي... وفي ذلك الوقت كان الجنود اليابانيون فوق رصيف المحطة، جالسين بين معدات الإشارة يحشون أفواههم بالأرز والسمك... ولم يلبث الرقيب أن نادى شطر سيارة النقل، فخطا الجندي الحارس فوق المرأتين الراقتين على الأرضية وقفز من داخل السيارة إلى حيث أسند بندقيته على القضبان الحديدية وتقدم بالسونكي إلى ما بين العواسج الجافة، وما إن جمع منها قدرًا كافيًا لإشعال النار الموقدة حتى انضم إلى الجنود فوق الرصيف.

وعلى مدار ساعة كان الدخان يتصاعد في ضوء الشمس... وخلال ذلك جلس جيم فوق المقعد الخشبي في السيارة يهش الذباب عن وجهه وقد خامرته لهفة لاستطلاع محطة السكك الحديدية والطائرة المحطمة قرب القناة.. وكلما تحرك أحد كان اليابانيون يصيحون من جانب رصيف المحطة ويشيرون بسجائرهم محذرين ومنذرين... وكان الأسرى لم يحملوا جراية ولا ماء معهم، ولكن كان في سيارة

سلاح الإشارة خزان ماء كان الجنود يملأون منه زمزمياتهم.

وعندما اضطروا والد مسز هوج إلى الرقاد على أرضية السيارة وقف الدكتور رانسوم لدى الباب الخلفي يحتج على اليابانيين متجاهلاً سبابهم ومشيراً إلى الركاب الممددين عند قدميه من شدة الإعياء.. فلم يتأثر الرقيب الياباني، ولكن بعد أن طاف الهوينا حول السيارة ما لبث أن سمح للأسرى بالنزول... فقام بازي ودكتور رانسوم وباقي الرجال بمساعدة النسوة العجائز للنزول على الأرض، حيث تمددوا في الظل بين العجلات الخلفية.

كانوا بحاجة إلى الماء، وإلا مات أحدهم واضطروا جميعاً للعودة إلى شنغهاي... وكان جيم يراقب اليابانيين على رصيف المحطة... لقد فرغوا من طعامهم، وأخذ اثنان من الجنود يسطون لفافة من أسلاك التليفونات... وعندئذ رفس جيم حجراً أمامه واتجه إلى محطة سكة الحديد، ولما وصل إليها تسلق الرصيف دون توقف.

كان اليابانيون جالسين حول بقايا النار وهم يتلغظون أثر الطعام... وجعلوا يراقبون جيم وهو ينحني أمامهم ويقف وقفة انتباه بملابسه الممزقة... إن أحداً منهم لم يبد إشارة لطرده، غير أن جيم كان يعرف أن اللحظة المناسبة لكي يبادرهم بأحلى ابتسامة عنده لم تحن بعد، وكان متأكداً أن الدكتور رانسوم لا يمكن أن يقترب على الأثر عقب وجبتهم دون أن يضربوه أو حتى يقتلوه.

وانتظر جيم حتى ينتهي السائق من كلامه مع الرقيب... كان يشير إلى جيم مراراً فيما يبدو أنه كان يلقي محاضرة مطولة عن المضايقات

الجسيمة التي سببها للجيش الياباني مثل هذا الولد الضئيل... فضحك الرقيب مما سمعه منبسطاً بعد أكلة السمك.. وما لبث أن أخرج زجاجة كوكا كولا فارغة من حقيبتة العسكرية وملأها حتى النصف من زمزميته ثم رفعها في الهواء مشيراً إلى جيم بالاقتراب.

أخذ جيم الزجاجة، وانحنى باحترام عميق، ثم تراجع ثلاث خطوات... فراح اليابانيون يراقبونه صامتين حاجبين ابتساماتهم... وفي جانب السيارة العسكرية مال بازي ودكتور رانسوم من دائرة الظل مركزين نظراتهم على السائل البارق في الزجاجة في ضوء الشمس... ومن الواضح أنهما افترضا أن جيم سيحمل الماء إليهم ويقاسمهم هذه الجراية غير المتوقعة.

لقد مسح جيم الزجاجة بكمه بعناية... ثم رفعها إلى شفتيه، وشرب متمهلاً، محاولاً ألا يغص بالماء... ثم توقف.. ثم شرب حتى آخر قطرة. انفجر اليابانيون ضاحكين متبسطين بعضهم مع بعض في تفكه بالغ... وضحك جيم معهم، مدركاً أنه هو وحده دون كل الأسرى البريطانيين الذي يعطي الدعابة حقها ويقدرها قدرها... وغامر بازي بابتسامة حذرة.. أما دكتور رانسوم فقد بدا متحيراً، وما لبث الرقيب أن أخذ الزجاجة من جيم وملأها حتى عنقها.. وما لبث الجنود أن نهضوا قائمين وهم لا يزالون يضحكون فيما بينهم واستأنفوا عملية مد أسلاك التليفونات.

وحمل جيم الزجاجة عائداً إلى رفاقه يتبعه السائق والحارس... فناولها للدكتور رانسوم الذي جعل يحدق فيه دون تعقيب.. غير أنه

شرب قليلاً ثم مرر الزجاجاة على الآخرين، وساعد السائق في إعادة ملئها من الزمزية.. وقد تقيأت إحدى النسوة المريضات فسقط القيء عند قدميه.

واتخذ جيم مكانه خلف مقصورة القيادة، راضياً عن مبادراته مع اليابانيين، رغم أنه كان ممكناً أن يقذفوا به إلى قضبان السكة الحديدية ويكسروا ساقه، كما فعلوا مع الجنود الصينيين الذين قتلوهم في محطة سيكاوي... كان جيم يشعر الآن بأنه متفرد عن باقي الأسرى، أولئك الذين كان مسلكهم سلبياً قبل الفلاحين الصينيين، وقد تأكد جيم أنه أقرب وأوثق صلة باليابانيين، الذين استولوا على شنغهاي وأغرقوا الأسطول الأمريكي في ميناء بيرل هاربر... وقد سرى إلى سمعه صوت طائرة شحن محجوبة فيما وراء غمام التراب الأبيض المتصاعد في الجو، وذهب به الفكر من جديد إلى حاملات الطائرات في المحيط الهادي، وتخيل الطيارين القصار في أردية الطيران المتنفخة وهم يستعدون قرب طائراتهم، متأهبين للمجازفة بكل شيء، لا تدفعهم سوى آخر إرادة فولاذية وعزم غلاب.



(١٧)

ميدان المطارات

فيما أخذ السائق يملأ رادياتير السيارة العسكرية بالماء، أجلس دكتور رانسوم مسز هوج فوق المقعد قرب الصبيين الإنجليزين.. وبدأ لعيني جيم أن المرأتين العاملتين في هيئة التبشير الممددتين على الأرض صارتا أبعد ما يكون عن الحياة بعد أن ابيضَّت شفاههما وبدأت أعينهما أشبه بأعين فئران مسمومة.. وبعد أن تم رفعهما إلى داخل السيارة كان الدكتور رانسوم من شدة الإعياء بحيث عجز عن مساعدتهما، وجلس ملقياً ذراعيه على ركبتيه الواهنتين.. وجلس زوجها جنباً إلى جنب وراحا يحدقان إليهما في استسلام مطبق.

ولم يلبث جيم أن استند إلى سقف مقصورة القيادة.. وعلى الرغم من شعور الدكتور رانسوم بالفجوة التي أصبحت الآن تفصل بين جيم وبين رفاقه الأسرى، إلا أنه تحرك إلى الأمام وجلس على المقعد الخشبي بجانبه.. وقد انحنى الدكتور رانسوم وأفسح المجال للجندي الياباني الذي جلس إلى جانب جيم.. ثم قال له:

- لا بأس.. نحن جميعًا أحسن حالًا بعد الماء.. كان هذا العمل
بسالة منك يا جيم.. من أين جئت؟
- من شنغهاي.
- أنت فخور بهذا؟
- طبعًا.. إن شنغهاي أضخم مدينة في الدنيا.. وعنها قال أبي إنها
أضخم حتى من لندن.
- لنأمل أن تبقى هكذا.. فقد يمر بنا شتاء أو أكثر في هذه المجاعة..
أين والداك يا جيم؟
- إنهما ذهبا إلى بعيد.

خطر لجيم قبل أن يتم كلامه أن يخترع ردًا مموهًا للدكتور رانسوم..
فقد آنس في هذا الطبيب الشاب اعتدادًا بالذات لم يسترح إليه جيم،
وكان في مسلكه أشبه بأولئك الوافدين حديثًا من إنجلترا، ولم يتمالك
أن تساءل في نفسه كيف يا ترى يصور الإنجليز في نشراتهم الإخبارية
استسلام سنغافورة وهم على هذه الشاكلة وهذه السلوكيات.. ولم
يستبعد جيم أن يشتبك الدكتور رانسوم هذا في مشاحنات مع الحراس
اليابانيين ويورطهم جميعًا في المتاعب.. وعلى الرغم من كل ما كان
بيديه الدكتور رانسوم من ظواهر المساعدة والأخذ بيد الغير، فإنه شرب
من الماء أكثر من نصيبه العادل! كما لاحظ جيم أن الدكتور
رانسوم أضحى أقل اهتمامًا بزملائهم المسنين المحتضرين مما كان
يتظاهر به.

ومهما يكن فإن جيم أضاف ردًا على سؤال الطبيب:

- ... إنهما في معسكر ووسانج... وعلى قيد الحياة.

- أنا مسرور جدًا بهذا... قلت معسكر ووسانج؟ إذن فقد تراهما

قريبًا!

- قريبًا جدًا.

وراح جيم يحدق في الحقول البور... إن فكرة رؤية أمه جعلته
يبتسم، وإن كانت ابتسامة مبتسرة شدت عضلات وجهه... إن أمه لا
يمكن أن تتصور كل مغامراته خلال الشهور الأربعة الماضية... وحتى
لو أنه أخبرها بكل شيء فقد تبدو لها روايته أشبه بتلك الأمسيات السرية
قبل الحرب عندما كان يطوف بدراجته في كافة أرجاء شنغهاي ثم يعود
إليها بقمص بالغة الغرابة.

ومضى جيم يقول:

- نعم.. سوف أراهما قريبًا.. إنني أريد أن أقدم إليهما بازي.

كان وجه بازي يكاد يحتجب خلق ياقة سترته، وقد راح يحدق
بحذر إلى اليابانيين قرب خط السكة الحديدية وكأنه مرتاب فيما
يدخرونه لهم في هذه الحقول الجرداء.. وما لبث أن قال ردًا على جيم:

- سوف ألتقي بأهلك يا جيم.

ثم أضاف يقول للدكتور رانسوم بفتور:

- كنت أرى هذا الغلام.

فقال جيم:

- كنت ترعاني فعلاً! إن بازي حاول أن يبيعني في شنغهاي!
- أحقاً؟ هذه فكرة طريفة!
- ... إنه عرضني على تجار هونجكيو!
- لم أكن أساوي شيئاً.. ومع ذلك فإنه ظل يرعاني.. فقال الدكتور رانسوم مرتباً على كتف جيم:
- لقد أتى عملاً طيباً.
- وأنزل الدكتور رانسوم يده إلى خاصرة جيم وجس كبده المنتفخ.
- ثم رفع شفته العليا وألقى نظرة على أسنانه.. وقال في النهاية:
- أنت على ما يرام يا جيم... كنت أحاول أن أعرف نوع الطعام الذي تأكله.. سوف يلزمنا أن نشتغل بزراعة الخضر في ووسانج.. ولعل اليابانيين يبيعون لنا عنزة.
- لم يشهد جيم عنزة في حياته، ذلك الحيوان الخجول المستقل بذاته، وهي الصفات التي يعجب بها.
- هل أنت مهتم بالحيوانات يا جيم؟
- نعم... إلى حد ما... إن اهتمامي الحقيقي هو بالطيران.
- الطيران؟ تعني الطائرات؟
- ليس بالضبط.
- ثم أضاف جيم عفوياً:
- جلست مرة في مقصورة القيادة في طائرة يابانية مقاتلة.

- أنت معجب بالطيارين اليابانيين؟

- إنهم شجعان بوسائل.

- وهل هذا شيء هام؟

- هو شيء طيب إذا أردت أن تكسب الحرب.

وراح جيم ينتصّت إلى أزيز طائرة بعيدة.. لقد خامره الارتياح في هذا الطبيب، خصوصًا طباعه الإنجليزية واهتمامه بالأسنان... لعله يتحد مع بازي ليكونا سارقي جثث الموتى؟ إن قلة من الأوربيين لهم أسنان ذهبية... والموتى الأوربيون فقط هم الذين يمكن أن يلتقي بهم الدكتور رانسوم لفترة طويلة!

* * *

قرر جيم أن يتجاهل الدكتور رانسوم.. ولم يلبث أن وقف قرب الحارس الياباني يدفئ يديه لدى السقف المموه لمقصورة القيادة.. وفيما بدأت السيارة تتقدم في الطريق الوعر أبصر الجنود يسرون على امتداد الخط الحديدي باسطين لفائف الأسلاك التليفونية.. وغدا أبعد الجنود عن نظره مغيبًا في غمام الأتربة البيضاء حتى لاح وكأن شبحه المظموس نبت وحده عن سطح الأرض.

وشعر جيم بالهواء يندفع إلى عينيه فيدمعهما فيما ذهبت السيارة بسرعة في الطريق الرحيب.. فقد كان السائق بعد أن غدا واثقًا من طريقه متلهفًا لتسليم أسراه في ووسانج والعودة إلى شنغهاي قبل حلول الليل.. وتشبث جيم بسقف المقصورة بينما كان الأسرى مكومين فوق

المقاعد من خلفه.. وفي خلال ذلك جلس زوجا المرأتين المبشرتين على أرضية السيارة، وأخذ دكتور رانسوم يساعد مسز هوج لكي تستلقي تحت المقعد الخشبي المستطيل.

غير أن جيم فقد الاهتمام بهم.. فقد كان الركب يدخل الآن منطقة مطارات حربية.. إن هذه القواعد الصينية السابقة، التي كانت من قبل تضطلع بالحراسة عند مصب نهر يانجتسي، أخذت تحتلها الآن القوات البرية والبحرية والجوية اليابانية.. ومرت سيارة بقاعدة طائرات مقاتلة دمرتها القاذفات حيث أخذ اليابانيون يعملون على تغيير السقف الفولاذي للحظيرة المعطوية.. وشوهد صف من طائرات المطاردة من طراز «زيرو» رابضًا فوق أرض المطار المكسوة بالحشائش، وأحد الطيارين بكامل ملابس الطيران يتنقل بين الأجنحة... ولم يتمالك جيم أن لوح له على البعد دون أن يفكر، بيد أن الطيار غاب بين المراوح.

وبعد مسيرة نحو ميلين مروًا بقرية مهجورة ومبانيها المدمرة - تعرضوا للتأخير بمرور قافلة من سيارات النقل محملة بالعتاد الحربي لإمداد القاعدة، استعدادًا لمهاجمة الجيوش الصينية إلى الغرب، لقد بهر جيم بكل هذا النشاط الدائب.. وعندما توقفت بهم السيارة عند نقطة التفتيش في طريق سوشوا كان جيم متشوقًا لمواصلة السير وقد تنفس الصعداء بعد أن أتم الجايش في النقطة مراجعة كشف الأسرى، وحين كان الدكتور رانسوم يبدي احتجاجه بسبب تدهور حالة المرأتين الممددتين على أرضية السيارة.

وبعد استئناف السير سلكوا طريقًا فرعيًا يمتد إلى جوار قناة..

ومرت عن كذب منهم قافلة دبابات يابانية محمولة فوق ناقلات مدرعة،
بدا أفراد طواقمها نائمين فوق أغطية فتحات مدفعيتها.. وكان جيم
يسرح بخياله مستمتعاً بأسلحة المعارك هذه، بيد أن اهتمامه الأول قد
تركز الآن على الطائرات.. وقد تمنى لو أنه طار مع الطيارين اليابانيين
في هجومهم على بيرل هاربر وتدميرهم للأسطول الأمريكي في المحيط
الهادي، أو استقل زوارق الطوربيد التي أغرقت البارجتين البريطانيتين
«ريبالص» و«برنس أوف ويلز»! وربما يتاح له عندما تنتهي الحرب أن
ينضم إلى سلاح الطيران الياباني ويضع على كتفه شارات «الشمس
المشرقة»، مثل الطيارين الأمريكيين الذين قادوا طائرات «النمور
الطائرة» منضمين إلى الصين الوطنية ووضعوا شاراتها على ستراتهم
الجلدية.. خلف مقصورة القيادة.

وكان جيم لا يزال واقفاً خلف مقصورة القيادة على الرغم من
إنهاك ساقيه عندما اتجهت السيارة بسرعة إلى بوابة معسكر الاعتقال
الكبير في ووسانج.. وحلقت في أثرهم مقاتلة من ذات المحرك الواحد
ثم استوت إلى الفضاء في فترة العصر هذه، يصطبغ جناحها، أشعة
شمس الأصيل الذهبي.. ومن خلفه كانت المرأة الهولندية قد ارتمت
على أرضية السيارة تحت قدمي أبيها المسن، فيما راح الدكتور رانسوم
والجندي الياباني يحاولان رفعها إلى المقعد الخشبي.

وعبروا بعد ذلك قنطرة خشبية مقامة فوق ذراع بحيرة صناعية،
ومروا بهيكل النادي الريفي الذي بدا محترقاً عن آخره فلم يتبق منه
سوى جذران الأسمنت المتفحمة.. وعن كذب لاح هيكل زورق للنزهة

مائلاً على جانبه في المياه الضحلة.

ومن أمامهم كانت سيارة نقل عسكرية تنعطف من خلال بوابة أحد أحواش البضاعة المهجورة، وبدا أنه كان طعمة لحريق أكبر منذ عهد قريب.. وكان بعض الجنود اليابانيين يتسكعون خارج بوابة المخفر وهم يراقبون مجموعة من العمال الصينيين يشتون أطوالاً من الأسلاك الشائكة حول صف من قوائم خشب الصنوبر.. ومن خلف المخفر قام مخزن المقاولين المكلفين بالإنشاء، تحيط به أكوام من الألواح الخشبية، ومأوى من البوص كان يضم مجموعة ثانية من العمال ناعسين فوق حصرهم قرب موقد فحمي.

وتوقفت سيارة الأسرى لدى المخفر، حيث أخذ السائق وأسراه يحدقون إلى هذا الموضع المقفر.. فقد كان حوش البضاعة السابق يجري تحويله إلى معسكر مدني، ولكن لا يمكنهم لمدى شهر أن يتم إعداده لاستقبال الأسرى.. وجلس جيم بين بازي والدكتور رانسوم ضائقاً بنفسه إذ تصور أن أباه وأمه سيكونان في أول معسكر يصلون إليه. وبدأ نقاش مطول بين السائق الياباني والجاويش المنوط بالإشراف على إنشاء المعسكر.. وبدا واضحاً أن الجاويش قد قرر مسبقاً أن هذه السيارة وشحنتها من أسرى الحلفاء لا وجود لها ولهم.. وقد تجاهل احتجاجات السائق وجعل يلوح بسيجارته كمن يفكر وهو يذرع أرض المدخل الخشبي للمخفر.. وأخيراً أشار إلى بقعة تكسوها العواسج في نطاق الموقع ورأى فيما يظهر أنها يمكن أن تكون المأوى المطلوب فيما بين المعسكر والعالم الخارجي.

وتطلع الدكتور رانسوم إلى البقعة الممتدة بعواسجها وأشواكها
حيث كانت مرعى للمشاة من قبل، ثم قال:

- لا يمكن أن تكون هذه هي المعسكر الموعود! اللهم إلا إذا كانوا
يريدون أن نبنيه بأيدينا!

وعندئذ برزت أذنا بازي الشاحبتان من بين ياقة سترته البحرية، إذ
كان من الضعف بحيث لا يقوى على الجلوس مستقيم العود، وإن كان
لا يزال بوسعه أن يغتنم أوهى فرصة تلوح أمامه، وقال:

- ووسانج؟ ربما تكون فيها مزايا يا دكتور، إذ نكون أوائل القادمين
إلى هنا.

وأخذ الدكتور رانسوم يساعد مسز هوج للنهوض على أرضية
السيارة، بيد أن الجندي الياباني رفع كعب بندقيته ورده بإيماءة إلى
مقعده، بينما وقف الجاويش عن كذب يحدق من فوق باب السيارة
الخلفي إلى الأسرى المنهكين.. فالنسوة العجائز كن ممددات في
برك من البول تحت أقدام أزواجهن، بينما تكوم الصبيان الإنجليزيان
مستندين إلى بازي، واتكأت مسز هوج على ركبتَي أبيها.

في خلال ذلك سرح جيم بفكره إلى أمه، وإلى تلك الساعات
السعيدة التي كان يمضيها في لعب البريدج في مخدع نومها.. وعندما
جرت الدموع في خياشيمه امتصها في حلقة المتصلب.. ترى هل يمكن
أن يعلمه الدكتور رانسوم كيف يبكي؟ لقد حول نظره إلى جذوة عقب
السيجارة في فم الجاويش، وإلى الموقد المتوهج في هذا الشفق، وإلى
جماعة العمال قرب سياج الأسلاك الشائكة وهم عائدون إلى مأواهم

المقام من البوص.

أخيراً قال له الدكتور رانسوم محذراً:

- إنك تتعب كل إنسان يا جيم.. الزم مكانك ساكناً، وإلا طلبت من
بازي أن يبيعك إلى اليابانيين!

فرد جيم قائلاً وهو يتملص من قبضة الطبيب:

- إنهم لا يمكن أن يطلبوني.

وركع جيم فوق المقعد الخشبي المستطيل قرب مقصورة السائق،
وجعل يميل أمماً وخلفاً وهو يراقب الجاويش الذي قاد السائق
والجندي إلى المخفر، حيث كان الجنود يتناولون وجبتهم المسائية..
كان ثمة زجاجات بيرة ونبذ الأرز فوق مائدة خشبية، يضيئها مصباح
كيروسين.. وجلس قرب الموقد حمال صيني يروّح على جمرات
الفحم المتقدة، فيما سرت في الهواء رائحة شحم ساخن.

شعر جيم أنه لا بد له من استرعاء نظر الجنود في المخفر على نحو
ما... فقد أدرك أنه بصرف النظر عن عدم اهتمامهم بأمر الأسرى وهم
في غير حاجة إليهم - فإنهم قد يتركونهم في مكانهم هكذا طيلة الليل...
وإذا كان الصباح فإنهم سيكونون في حالة مرضية سيئة لا تمكنهم من
الانتقال إلى معسكر آخر، ولا يبقى مفر من عودتهم إلى المعتقل الصغير
في شنغهاي.

وهبط هواء المساء في أرجاء الساحة المخربة.. وفرغ العمال
الصينيون من طعامهم وجلسوا في المأوى الخيزراني يشربون نبيذ الأرز

ويلعبون الورق.. وكان اليابانيون يشربون الجعة في المخفر.. وأخذت النجوم تبزغ بالعشرات فوق نهر اليانجتسي، تلاحقها أنوار حركة الملاحة الجوية الحربية.. وعلى بعد ميلين إلى الشمال أبصر جيم أنوار سفينة شحن يابانية تتجه شطر البحر، وهيكلها الأبيض يبدو كقلعة عبر منبسط الحقول المخربة القائمة.

شعر جيم فجأة بدوار حتى كاد يفقد توازنه ويقع لولا أن تشبث بسقف مقصورة القيادة.. وما إن تمالك حتى شاهد الحارس الياباني والسائق يخرجان من المخفر حاملين عصوين قصيرتين، فتصور أنهما آتيان لضربه بسبب جلوسه فوق المقصورة.. وسرعان ما انسل إلى أرضية السيارة وتمدد قرب المرأة الهولندية.

وأنزل السائق باب السيارة الخلفي ضاربًا على سلاسلها بالعصا.. ثم صاح في الأسرى يأمرهم بالنزول من السيارة.. فتولى الدكتور رانسوم مساعدة مسز هوج والرجال المسنين في الهبوط بين النباتات الشوكية، ثم انضم إليهم بازي والصبيان الإنجليزيان، وتبعوا الجندي الحارس شطر فناء الأخشاب، حيث استلقت المرأتان المبشرتان فوق الأرض المتسخة وبدا أنهما لا تزالان على قيد الحياة، غير أن السائق هز عصاه نحو الدكتور رانسوم مومئًا إليه بالابتعاد عنهما.

وهبط جيم من السيارة قفزًا، وهم أن يجري في أثر الدكتور رانسوم عندما أمسك السائق بكتفه وأشار إلى الجاويش الواقف في مدخل المخفر، وبدا في ضوء مصباح الكيوسين ممسكًا بكيس صغير.

تقدم جيم محاذرًا إلى الجاويش، الذي ما لبث أن ألقى الكيس

على الأرض عند قدميه.. فرقع جيم بين الفجوات التي تركتها عجلات السيارة، واختص الجاويش بأحلى ابتسامة لديه.. فقد كان الكيس يضم تسع حبات من البطاطا.

وفي خلال الساعة التالية انهمك جيم في التنقل في الفناء.. ففيما كان الأسرى يستريحون في مخزن الأخشاب أشعل جيم نار الموقد من جديد.. وجاءه الدكتور رانسوم والصبيان الإنجليزيان بدلو ماء من صهريج خلف المخفر.. ومع أن مسز هوج شربت من الدلو، إلا أن جيم قرر الانتظار حتى تبرد مياه سلق البطاطا.. وقد حاول الدكتور رانسوم مساعدته في وضع القدر على النار، غير أن جيم نحاه جانباً.. فقد علمته النسوة الأوراسيات في المعتقل الصغير أن البطاطا تنضج أسرع في المياه القليلة تحت الغطاء المحكم.

وفيما بعد، وقبل أن يحمل البطاطا المسلوقة إلى مستودع الأخشاب، استبقى جيم لنفسه أكبر حبة منها.. وجلس بجانب الدكتور رانسوم فوق ألواح الخشب، بينما قعد أزواج المبشرات بين نشارة الخشب، عاجزين عن الأكل.. وقد ندم جيم لأنه أعطاهم حتى أصغر حبات البطاطا، ولكنه في نفس الوقت كان يريد لهم أن يبقوا على قيد الحياة، إذا كان يتعين عليهم الانتقال إلى معسكر آخر.. وبدت المرأة الهولندية في حالة طيبة، وإن كانت أعطت نصيبها من البطاطا للغلامين الإنجليزيين.. أما بازي فكان منشغلاً بتفحص مستودع الأخشاب، مختزناً في ذهنه الإمكانات التي قد يفيد منها في المستقبل، وأنهم إذا بقوا في معسكر ووسانج فإن جيم لن يتاح له قط أن يجد أباه وأمه.

وبعد أن قضم الدكتور رانسوم قطعة صغيرة من بطاطته قدمها إلى
جيم قائلاً:

- خذها يا جيم.. إنها حبة طيبة، وستلتذذ بها.

- شكرًا.

وأسرع جيم بالتهام هذه الحبة الثانية - وإن كانت هذه اللقمة من
جانب الدكتور رانسوم قد حيرته.. فإن اليابانيين كانوا رحماء بالأطفال،
وقد صادفه البحاران الأمريكيان بدرجة ما، غير أن جيم كان يعرف أن
الإنجليز لم يكن لهم اهتمام حقيقي بالصغار.

وما لبث جيم أن جاء بإناء ماء البطاطا الدافئ لبازي ولنفسه، وقدم
باقي السائل الكثيف للمسنين أملاً في إنعاشهم.. وإذ لم يستجيبوا لهذه
البادرة دنا من الدكتور رانسوم وهمس له:

- لا يبدو أنهم في حالة طيبة.. لكن يحتمل أن يأكلوا نصيبهم من
البطاطا في الصباح.

- ربما.. أرح بالك يا جيم.. إنك ستفني نفسك بالاهتمام بكل
واحد.. غداً سنكون في طريق رحلة أخرى.

- حسن.. ربما تكون أماننا رحلة طويلة.

إن حبة البطاطا الثانية قد انعشت جيم، ولأول مرة شعر بالكدر
لما رآه من تفاقم حالة الجرح الذي كان يعاني منه الدكتور رانسوم في
خده.. ولم يتمالك أن قال له في بادرة لرد الجميل:

- إذا كتب علينا أن نتجه إلى نانتاو حيث أرصفة الجنائز، فلا تشرب
من الماء هناك.

وتمدد جيم على النشارة اللينة ذات الشذى الصنوبري الملطف..
ومن خلال أبواب مخزن الخشب المفتوحة راح يراقب الأضواء
الملاحية للطائرات اليابانية وهي تشق الليل.. كان من قبل يتصفح
السماء ويستهدي بحركات النجوم وأضوائها.. ولكن الحرب غيرت
كل شيء، وأمست ظواهر السماء هدفاً للتغيير، حتى صارت الطائرات
اليابانية هي المعالم الثابتة فوق ساحات الأرض المخربة!



(١٨)

مشردون

- يمينًا! يمينًا! كلا!.. أعني يسارًا.

بهذه الكلمات كان جيم يصيح من خلال نافذة سيارة النقل، فيما كانت السيارة تعبر الجسر الخشبي القائم على الأطواف الفولاذية عبر خليج بحيرة سوشوا.

فقد كلفه السائق بالمراقبة وهم يعبرون الجسر، غير أن السيارة ما لبثت أن مالت إلى جانب فوق الألواح الخشبية المخلخلة، وسرعان ما صاح الجندي الحارس انزعاجًا، فزفر السائق ضيقًا، ولكنه جذب الفرامل وهبط من مقصورة القيادة إلى موضع الألواح التي غطتها المياه.. وهبط جيم من مكانه لمتابعة النقاش المتصاعد من السائق والجندي الحارس.

وعلى بعد مائتي ياردة فوق المجرى المائي كانت وحدة من مهندسي الميدان منهمة في نصب الدعامة المركزية لجسر السكة الحديدية القديم.. وكان جيم سعيدًا وهو يراقب هذه العملية.. والواقع أنه كان طيلة ساعات الصباح منشغول الصدر بمرأى تدفق المياه من خلال

الأطواف العائمة، على عكس ما كان عليه في الليلة الفائتة عندما باتوا بجوار مزرعة خنازير مشرف عليها فريق من أفراد الشرطة اليابانيين.

ومع ذلك فقد أقلقته حالة الدكتور رانسوم الذي بدا له على غير ما يرام منذ أن غادروا ووسانج، فإن جرح وجهه تفاقم حتى شمل كل فكه وأنفه، وها هو ذا الآن ممدد على أرضية السيارة نائماً، وإن بدا أنه يفكر في حاله ولا شك.. وكان قد كَلَّم جيم لآخر مرة قبل وجبة المساء، عندما استوثق منه أن جيم قد تسلم جراية الأسرى كاملة من الحارس الياباني.. وبعزيمة قوية حمل جيم على خلع ملابسه وغسلها في حوض مياه شرب الخنازير، مستعيناً بقطعة صابون معطر استعارها من مسز هوج.

وجلس بازي على أرضية السيارة بجانبه بينما نام الصبيان الإنجليزيان مسندين رأسيهما في حجره.. وكان المضيف البحري السابق لا يزال في حالة وعي، بيد أنه كان متوقعاً على نفسه، وبدا وجهه مثل حبة فاكهة ذابلة.. وكان في أكثر حالاته حليف المرض، وكانت أرضية السيارة مغطاة بالقيء والبول، وكثيراً ما ألح على جيم لكي يعمل على إزالة آثارها.

وبالمثل كانت مسز هوج وأبوها ممددين فوق الأرضية، لا يتبادلان الكلام إلا لماماً.. ومن حسن الحظ أن المرأتين العاملتين في حقل التبشير قد تخلفتا في ووسانج.. وحل محلهما رجل إنجليزي وزوجته الشابة من أفراد القنصلية البريطانية في نانكنج، وقد اتخذتا مجلسيهما بجوار الحارس الياباني في مؤخرة السيارة، وكانت ملامحهما تنم عن

مأساة أَلمت بهما.. واستقرت بينهما حقبة كبيرة من الخيزران كانت مليئة بالملابس، وكان السائق والحارس يفتشانها كل ليلة، مستأثرين لنفسيهما بالأحذية والشباشب وما فتئ الزوجان يحدقان دون أن ينبسا ببنت شفة إلى مشاهد الطريق التي تتعاقب فيها الحقول المجذبة والقنوات، حتى فكر جيم أنهما فقدتا كل اهتمام بالحرب الدائرة.

وعندما كان الركب يتوقف لكي يعد اليابانيان لنفسيهما الوجبات، كان الحارس يأمر جيم مرتين في اليوم أن يطوف على الأسرى بدورق خزفي مليء بالماء.. أما باقي الوقت فكان يُترك لنفسه، لكي يركز اهتمامه لإرشاد هذه السيارة العتيقة إلى المعتقل الجديد الذي يضم أمه وأباه..

لقد لبثوا الآن أيامًا يقطعون الطريق مدى عشرة أميال إلى الشمال الغربي من شنغهاي.. وفي خلال ذلك فقد خيم حساب عد الأيام، وإن كانوا على الأقل يمشون قدمًا، ومن حسن الحظ أن اليابانيين لم يكونوا بأي حال مشغولين بحالة أسراهم وهي تزداد سوءًا.

وفي اليوم الأول بعد قيامهم من ووسانج، أفضى بهم المسير بعد ثلاث ساعات خلال الريف الفسيح إلى الدير المعروف سابقًا باسم «سانت فرنسيس السافير» والقائم على طريق سوشاو، وهو أول معسكر اعتقال أقامه اليابانيون في الأسابيع التي أعقبت الهجوم على ميناء بيرل هاربر.. وقد أصبح الدير مليئًا بالهيئات التابعة للجيش الياباني.. وظل الركب طيلة بعد الظهر ينتظر خلف صف من الأتوبيسات القادمة من شنغهاي تقل عدة مئات من المدنيين الهولنديين والبلجيكيين، حتى راح

جيم يحدد النظر من خلال سياج الأسلاك المزدوج.. فشاهد جماعات من الجنود البريطانيين مسترخين قرب أكشاكهم أو جالسين على الأرض الممهدة في ساحة كنيسة الدير.. لكن لم يكن بينهم مدنيون من الرجال أو النساء أو الأطفال.. وبدا الحراس اليابانيون منهمكين في مناداة الأسماء من كشوف كثيرة بين أيديهم، وهكذا لم يكن أمامهم وقت لقبول وافدين جدد.. ووقف جيم فوق مقعد السيارة ملوحًا عبر سياج الأسلاك حتى يمكن أن يراه كل من في المعسكر.

ومهما يكن فإن الجنود اليابانيين المتعبين لم يكونوا مهتمين بقبول مزيد من القادمين، وقد تنفس جيم الصعداء عندما ردوا سياراتهم على أعقابها.. وبعد استئناف السير شطر سوشوا سمح السائق لجيم بالجلوس في المقصورة الأمامية.. فمهما يكن من أمر هذا الغلام الإنجليزي الحرد المشاكس فإنه رأى فيه نوعًا من الأمن في الطريق.. نعم إن جيم لم يكن قادرًا على قراءة الخريطة المطبوعة والكتابة اليابانية، بيد أنه ركع فوق المقعد الأمامي مطلقًا من النافذة لمتابعة الطريق ومراقبة الطائرات العابرة.. فقد بدا أن سلاح الجو الياباني بأسره في طريقه للهجوم على الجيوش الصينية في الغرب.

ولقد راق لجيم أن يتصور نفسه في دور قائد هذه الجماعة من الأسرى الرحل.. ثم لا يلبث أحيانًا وهو يحمل جرة الماء الكبيرة ويشعل الموقد في المساء أن يدرك أنه في وضع لا يزيد إلا قليلًا عن وضع الحمّالين من الأهالي.. غير أنه بدون جيم وهو يجمع الحطب ويسلق البطاطا - لكان حتى الدكتور رانسوم وبازي قد انتهيا إلى ما انتهى

إليه مصير المرأتين المبشرتين.. إنه بعد مغادرتهم مزرعة تربية الخنازير الرسمية قد استباح الجميع لأنفسهم أن يستسلموا للمرض والاعتلال، حتى كانوا يرقدون على أرضية السيارة، خصوصًا بازي المعتل برئتيه، ودكتور رانسوم الذي غدا عاجزًا عن الأبصار بعينه المرمودة.

وحتى جيم نفسه شعر بأنه محموم، وإن ذهب يراقب الطائرات اليابانية وهي تحلق في الفضاء.. إن أزيز محرركاتها كان يشحذ ذهنه.. وأضحى كلما هبطت معنوياته أو خامره الرثاء لحاله يستعيد ذكرى الطائرات الفضية التي شاهدها في المعتقل الصغير قرب شنغهاي.

* * *

وأخيرًا أخذت سيارة النقل تتحرك عبر جسر الأطواف العائمة بمساعدة لفيف من مهندسي الميدان اليابانيين.. وعندما لم يستطع جيم حفظ توازنه في السيارة المهتزة المتطاوحة، انزلق عن المقعد الخشبي، فمد إليه الدكتور رانسوم يدًا واهنة لإسناده، قائلاً:

- اثبت يا جيم.. ابق في الأمام مع السائق.. وتأكد أنه يتابع التقدم.

وظل الدكتور رانسوم في مكانه والذباب يتطاير حول عينيه الملتهبة.. وتمدد بازي بجانبه مع الغلامين بول وديفيد ومسز هوج وأبيها.. أما الزوجان الإنجليزيان وحقبة ملابسهما المليئة بالأحذية فقد استقرا بجانب الحارس في المؤخرة.

وأخذ جيم يسوي سترته الرياضية عندما صعد رقيب ياباني غاضب إلى باب السيارة الخلفي وهو يصدر أوامره صارخًا للجنود الذين

أخذوا يدفعون السيارة عبر الجسر.. وعندما وصلوا إلى الضفة المقابلة خاض الجنود في المياه الضحلة عائدين إلى عملهم فوق جسر السكة الحديدية.. وما لبث الرقيب أن راح يشتم السائق، إذا بدا أنه تقزز من الحالة التي رأى عليها الأسرى.. ثم أخرج طبنجته الموزار مشيرًا إلى خندق كان مريضًا للأسلحة المضادة للدبابات لدى الضفة القريبة.

غير أن جيم تنفس الصعداء عندما عاد الرقيب إلى الجسر.. فمهما يكن من سوء حالتهم، فهو لا يريد لهم أن يستريحوا في ذلك الخندق. نعم إنه كان أمرًا شاقًا أن يظل جالسًا فوق المقعد الخشبي، لكن كان أهون من هذا أن يتمدد على أرضية السيارة بجانب الدكتور رانسوم، حتى يستطيع أن يبقى شاخصًا ببصره إلى السماء.

ومضت السيارة في طريقها تتعاقب عليها مشاهد الحقول المجذبة والقنوات والقرى المهجورة، تبرز لأنظارهم من خلال غلالات ضبابية من الأتربة الماثرة في الجو وكأنها عظام مسحوقة لموتى الصين كلها.. ترى كم لبثوا مشردين هكذا هائمين على وجوههم بين الفيافي الموحشة ومعالم الدمار؟ ويا لتلك القبور المفتوحة المنبثة في كافة الأرجاء وكأنها فاعرة أفواهاها لكي نلقف الطيارين الأمريكيين الذين يهوون سرعًا من السماء!.. كان ثمة آلاف من القبور المفتوحة تكفي لكي تضم الدكتور رانسوم وبازي وأمه وأباه وفيرا مربيته السابقة، وحتى جيم أيضًا!

ثم توقفت السيارة حتى اصطدم رأسه بمقصورة القيادة.. ووقعت أنظارهم على مجموعة من الأكشاك ذات أسقف مغطاة بورق القطران

قائمة على جانب الطريق يحف بها سياج من الأسلاك الشائكة عزلتها عن ضفة إحدى القنوات.. وراح جيم يحدق إلى معسكر الاعتقال الصغير هذا الذي أقيم في ساحة مصنع للفخار بدت فيه عربات نقل فوق خط حديدي مصغر محملة بقطع البلاط وهي رابطة في مكانها معطلة.. وبدا رجال ونساء يتلقون أشعة الشمس فوق درجات الأكشاك الخشبية، والملابس المغسولة منشورة فيما بين النوافذ، في جو ربيعي مبهج.

أسند جيم ذقنه إلى متكأ في السيارة فيما كان الدكتور رانسوم أسفل منه يحاول الجلوس من رقدته.. وما لبث الحارس أن وثب من الباب الخلفي وسار شطر مدخل المعسكر حيث كان أتوبيس لجامعة شنغهاي مرابطاً ومن حوله جنود يابانيون.. وكان الأتوبيس يضم راهبين في ملابس سوداء وجمعاً من الصبية في مثل سن جيم، إلى جانب نحو عشرين من الرجال والنساء البريطانيين وهم يحدقون جميعاً من خلال النوافذ المظلمة بالأتربة.. وفي خلال ذلك تجمع لفيف من أسرى المعسكر حول الأسلاك الشائكة وأيديهم في جيوب بنطلوناتهم القصيرة الممزقة، ووقفوا يحدقون صامتين فيما اعتلى جاويش ياباني الأتوبيس لتفقد ركابه الأسرى.

وكان الدكتور رانسوم راکعاً في مؤخرة السيارة مخفياً بيده جرح وجهه.. وراح جيم يحدق في امرأة إنجليزية ترتدي فستاناً بالياً من القطن وقد وقعت خلف السياج مطبقة بيدها على الأسلاك.

وبدأ الأتوبيس يتحرك إلى داخل المعسكر من خلال البوابة

المفتوحة.. ووقف الجاويش لدى باب الأتوبيس وطبجته في يده
يصد تجمع الأسرى الذين لاح في وجوههم الامتعاض لقدوم الوافدين
الجدد، إذ كان معنى ذلك هو تكاثر أفواه إضافية تقعات من جرايتهم
الضئيلة.. واعتدل جيم في جلسته في السيارة وهي تتقدم متثاقلة
شطر البوابة. ووقع الدكتور رانسوم على الأرض، فساعدته الزوجان
الإنجليزيان للعودة إلى مكانه.

وابتسم جيم للمرأة الواقعة لدى السور.. وعندما مدت يدها إليه،
خطر له أنها ربما كانت صديقة لأمه.. كان المعسكر مليئاً بالعائلات،
وربما يكون بينهم أبواه.. وهكذا جفل يتفرس في الوجوه ذات الملامح
الإنجليزية والأطفال الواقفين يضحكون خلف الحراس اليابانيين.. ومن
عجب أنه شعر مدى لحظة بالأسف والحزن لأن بحثه عن أمه وأبيه قد
ينتهي قريباً.. فطالما ظل يبحث عنهما فإنه كان مستعداً لاحتمال الجوع
والمرض، أما الآن وقد آذن بحثه بالنهاية فقد أحزنه ذكرى كل ما مر به
من المحن، وكل ما استهدف له من تغيير كبير.. وها هو ذا قد غدا الآن
أوثق اتصالاً بساحات الحرب المخربة، وهذه السيارة التي يعيش فيها
الذباب، وحببات البطاطا التسع الملقاة في الكيس أسفل مقعد السائق،
ومعسكرات الاعتقال المتعاقبة، بل غدا أبعد ما يكون عن العودة قط إلى
بيته في أمهرست أفينو.

وتوقفت السيارة لدى البوابة.. وأطل الجاويش إلى داخلها عبر
الباب الخلفي حيث كان الأسرى راكدين على الأرضية.. فما لبث أن
دفع الدكتور رانسوم بطبجته، غير أن الطبيب الجريح أدلى نفسه إلى

الأرض حيث رقع عند قدمي الجاويش كاتمًا أنفاسه.. وفي خلال ذلك كان أسرى المعسكر قد بدأوا يتفرقون، فسار الرجال الهوينا عائدين إلى الأكشاك وأيديهم في جيوبهم وجلسوا مع النساء على عتباتها.

ومرت عشر دقائق كان الجنود اليابانيون يتناقشون بعضهم مع بعض، بينما كان السائق ينتظر إلى جانب الدكتور رانسوم.. وما لبث اثنان من الأسرى البريطانيين الأكبر سنًا أن اقتربا من البوابة واشتركا في النقاش الدائر.

- ... من معسكر ووسانج؟

- لا! لا! لا!

- من أرسلهم إلى هنا؟ وبهذه الحالة؟

واقترب الرجلان من السيارة مبتعدين عن الدكتور رانسوم وراحا يحذقان إلى الأسرى بداخلها من خلال سحابة الذباب.. وفيما جعل جيم يدق الأرضية بعقبه وهو يصفر لنفسه نظرا إليه بغير اهتمام.. وفتح الحراس اليابانيون بوابة الأسلاك الشائكة، غير أن الأسيرين البريطانيين سارعا بإغلاقها وأخذوا يصيحان في وجه الجاويش الياباني.. وعندما تقدم الدكتور رانسوم لكي يعاتبهما أبعدها بإشارة منهما.

- ارجع يا رجل!

- لا يمكن أن نقبلكم! معنا أطفال هنا!

صعد الدكتور رانسوم عائداً إلى السيارة وجلس على الأرضية بجانب جيم.. إن مشقة الوقوف أنهكته، وما لبث أن استلقى واضعاً يده

على جرح وجهه والذباب يتقاتل من خلال أصابعه.

وكانت مسز هوج والزوجان الإنجليزيان صاحبا حقبة الخيزران قد لبثوا ينتظرون صامتين أثناء المناقشات الدائرة.. وعندما رجع الجنود اليابانيون إلى المعسكر وأغلقا البوابة قالت مسز هوج:

- إنهم لن يقبلونا.. فزعماء المعسكر البريطانيون..

وراح جيم يحرق في الأسرى المتنقلين في ساحة المعسكر.. فرأى لفيقاً من الأولاد يلعبون الكرة في فناء المصنع المعطل.. ترى هل كانت أمه وأبوه مختبئين بداخله؟ لعلهما أرادوا، مثل زعماء المعسكر البريطانيين، أن يبتعد جيم عائداً من حيث أتى، فزعاً من الذباب والأمراض التي جاء بها من شنغهاي؟

لم يلبث جيم أن ساعد بازي ودكتور رانسوم لكي يشربا، ثم جلس على المقعد الخشبي المواجه.. لقد أدار ظهره إلى المعسكر، وإلى الأسرى البريطانيين وأطفالهم.. وانحصرت كل آماله الآن في المشاهد المحيطة بهم، وحروبها الماضية والمقبلة.. لقد شعر براحة غريبة وصفاء في رأسه، لا لأن والديه أعرضوا عنه ونبذاه، بل لأنه توقع منهما أن يفعلا هذا، وما عاد الآن يحفل بشيء!



(١٩)

مدرج الطائرات

قبل ساعة من الغروب دخل الركب منطقة مواقع حربية مهجورة تبعد تسعة أميال إلى الجنوب من شنغهاي.. وكانت الساحة مليئة بالخنادق وهياكل الأبنية المدمرة، ولاحت دبابة معطوبة قابعة عند ملتقى طرق شنغهاي وهانججاو وأشعة الشمس الغاربة تنعكس عليها، وروابي المدافن تلفها رهبة الموت.

وفيما بعد ملتقى الطرق امتدت قنطرة خشبية عبر إحدى القنوات، ولكن السائق ما لبث أن طوى خريطته وأخذ يروح على وجهه بحافظتها، نافراً من المجازفة بعجلات السيارة فوق ألواح القنطرة المتآكلة.. وكانت مسز هوج والزوجان الإنجليزيان جالسين في جانب السيارة الخلفي، فيما راح جيم يهش الذباب عن وجه الدكتور رانسوم ويربت على رأسه.. وعلى بعد ميل إلى الجنوب، فيما بين روابي المدافن لمح ذبول طائرات محطمة، وهو طراز من الطائرات الأمريكية لم يكن ندّاً للطائرات اليابانية.

وما لبث السائق الذي أبصر هو أيضًا حطام الطائرات أن طوح بسيجارته وصاح منادياً الحارس، فوثب هذا من السيارة وأخذ يفحص ألواح القنطرة المتآكلة.

- لانجهوا! إلى لانجهوا!

وأدير المحرك مرة أخرى، واتجه السائق مشرقاً عند مفترق الطرق، شطر ذلك المطار البعيد.

وقال جيم ووجهه بين ركبتيه:

- إننا ذاهبون إلى مطار لانجهوا يا دكتور رانسوم.. رأينا طائرات من طراز (بروستر بافالو).. لا بد أن الأمريكيين كسبوا الحرب! كان الطبيب يسمع هذا الكلام وهو ممدد على أرضية السيارة بجانب بازي وزوج المرأة الهولندية، متطلعاً إليه بعين واحدة.

واستقبل جيم الهواء الساخن بوجهه وهم يقتربون من المطار الحربي، أكبر ميناء جوي مكسو بالحشائش أتيح له أن يراه قط قرب شنغهاي.. وكان يضم ثلاث حظائر معدنية، وورشة هندسية من الأخشاب، وقد تراصت فيه عشرات الطائرات قرب الحظائر، وهي مقاتلات ذات كفاءة عالية متقدمة التصميم.

وتوقف السائق عند نقطة التفتيش حيث كانت شلة من الجنود اليابانيين مرابطين في قاعدة مسلحة، والحراس يروحون ويغدون في فترة الأصيل تحت إمرة رقيب كان يتكلم في تليفون ميداني.. وقد أشير للركب أن يتقدم في الطريق المحيط بالمطار، حيث شوهدت قافلة من

المركبات محملة بأحجار البناء جيء بها من أبنية المدينة القديمة.

وكان أفراد الحراس المسلحون يجوبون الطريق الدائري حول المطار، وقد ربضت عند حافته طائرة نقل من ذات المحرك الواحد.. وشوهد طيار ياباني بصحبة ملاحيه الأرضيين يتحدث إلى اثنين من زملائه الضباط بالملابس الرسمية.. وقد أشار الطيار إلى سيارة النقل وهي تمر عن كتب متناقلة، فخطر لجيم أنه ربما كان هو وبازي والدكتور رانسوم على وشك نقلهم جواً إلى شنغهاي، وأنه لا يلبث أن ينضم إلى أبويه في هونج كونج أو اليابان.

وانتظر جيم أن تتوقف بهم السيارة قرب الطائرات، بيد أن السائق واصل السير شطر الطرف الجنوبي للمطار.. وما لبثت الأرض المعشوشبة أن أفضت إلى منطقة تغشيتها الأقصاب البرية والتربة الوعرة.. وسار الركب في أثر سيارة النقل المحملة بمواد البناء إلى واد ضيق محجوب بين جدران من العواشج الشائكة.. وارتفعت في هواء الأمسية سحب من الغبار الأبيض فيما كانت المركبات العسكرية أمامهم تلقي بحمولتها من الأحجار والردم على الأرض.. وكان الجنود وشرطة القوات الجوية المسلحون يقومون على حراسة الوادي والبنادق في أيديهم وقد بدت ملابسهم العسكرية مبيضة من أثر الغبار.

وكان مئات من الجنود الصينيين الأسرى في ستراتهم الممزقة وتحت مراقبة الحراس اليابانيين يحملون أحجار الرصف لتمهيد مدرج خرساني للمطار وهم في أسوأ حالة من النحول والهزال.

وأخيراً توقفت سيارة الركب قرب نهاية الطريق.. وإلى بابها

الخلفي مقترناً بصليل السلاسل.. وسبق الجندي الياباني المرافق لهم في النزول، تتبعه مسز هوج والزوجان الإنجليزيان.. وظل الدكتور رانسوم راكعاً بين المقاعد وهو لا يكاد يقوى على النزول، قائلاً:

- تمام يا جيم.. لنساعد كل واحد على الوصول إلى مقره.. ساعد مسز هوج، وبازي، والأولاد.

ووقف متزايلاً، ولكنه أفلح في رفع بازي على قدميه، وبعدها استند بازي على كتفي جيم وخطا متهاكاً فوق أرضية السيارة الرطبة.

وترجلوا جميعاً ووقفوا معاً في سحابة من الغبار الأبيض، وجلست مسز هوج مع أביها فوق كوم من أحجار الرصف ممسكة بأيدي الصبيين الإنجليزيين، وعن كذب كان الجنود الصينيون يملأون سلالهم بالأحجار لنقلها إلى المدرج.

ومن حولهم كان الحراس اليابانيون يراقبون دون أن يتحركوا.. وعلى مسافة خمسين قدماً عند المنحدر الجنوبي للوادي جلس جاويشان فوق مقعدين من الخيزران لدى حافة حفرة حديثة بين العواسج، وبدت أحذيتهما الثقيلة والأرض عند أقدامهما مغطاة بالجير.

ولم يلبث جيم أن رفع قرميدة رمادية دون أن يهتم أحد من الحراس إن كانوا يعملون في المدرج، وحذا بازي حذوه فحمل حجر رصف بين يديه.. وتبع جيم جندياً صينياً عاري الصدر شطر المدرج، فصعد الصيني المرتقى وسار فوق تربة مخددة حيث ألقى وزملاؤه ما في سلالهم وعادوا من حيث جاءوا.. وهكذا ألقى جيم بالقرميدة في الخندق الضحل المملوء بالأحجار والردم والممتد عبر المطار.. ومر

بازي بجانبه وألقى حجر الرصف عند قدميه، ووقف يترنح بين الغبار محاولاً نفض المسحوق الطباشيري عن يديه.

وكان الدكتور رانسوم واقفاً من خلفهم مع مسز هوج والزوجين الإنجليزين، وكان مشتبكاً في مناقشة مع جندي ياباني ما لبث أن أشار إليه شطر المدرج، وشفع هذا بأن أمسك ببندقته في يده وتناول بالأخرى قرميدة، وأعطاهما للدكتور رانسوم.

وجعل جيم ينتظر قرب الأحجار والردم، محدقاً في الأصيل على امتداد سطح المدرج الأبيض.. ثم عاد بنظره إلى طائرة النقل الجاثمة قرب الطريق المحيط بالمطار.. وأبصر الطيار الياباني وزميله الضابطين يسيرون بين الحشائش شطر المدرج.. وقد توقفوا عند الحافة الموحلة وأخذوا يضحكون معاً وهم يتفقدون العمل.

ثم تقدم جيم إلى حيث الحشائش، مبتعداً عن سحب الغبار وصفوف الجنود الصينيين.. كان يريد أن يلقي نظرة أخيرة على الطائرة المرابطة وأن يقف في ظل جناحيها.. كان يدرك أن الجنود الصينيين قد فرض عليهم العمل حتى الموت، وأن هؤلاء الأسرى المتضورين جوعاً تدق عظامهم لتمهيد المدرج لقاذفات القنابل اليابانية.. وبعد هذا سوف يكون مصيرهم في النهاية ذلك الخندق الكبير الممتد خلف المطار تلقى فيه جثثهم بعضها فوق بعض ركاماً.. ومن يدري، لعله هو وبازي والدكتور رانسوم ينتظرهم أيضاً مثل هذا المصير!



القسم الثاني

(٢٠)

معسكر لانجهوا

كانت الأصوات تسري قلقة مبهمة على امتداد الأسلاك الشائكة كأنها نبرات أنغام مكروبة تنبعث من أوتار قيثارة.. وعلى بعد خمسين قدمًا من سياج المعسكر ربض جيم بين الحشائش الكثيفة قرب الفخ المنصوب للبط البري، وراح ينصت إلى الحراس وهم يتجادلون بعضهم مع بعض، أثناء نوباتهم المتبادلة في حراسة المعسكر.. والآن قد أصبحت الغارات الجوية الأمريكية حدثًا يوميًا، لم يعد الجنود اليابانيون يحتقبون بنادقهم على أكتافهم، وإنما كانوا يطبقون عليها بكلتا اليدين، وغدوا من التوتر العصبي بحيث لو وقعت أنظارهم على جيم خارج حدود المعسكر لأطلقوا النار عليه دون تفكير.

وراح جيم يراقبهم من خلال شبكة الفخ المنصوب.. وبالأمر فقط صرعوا برصاصهم حملاً صينيًا كان يحاول السرقة من المعسكر.. وكان يعرف بينهم جنديًا اسمه كيمورا، وكان قوي البنية عريض الظهر من أبناء الفلاحين.. وقبل أن تتطور الحرب لتصبح نهائيًا ضد اليابانيين، كثيرًا ما دعاه كيمورا إلى الكشك المخصص له وثلاثة آخرين من زملائه

الحراس وسمح له بارتداء زيه العسكري المدرع.. وتذكر جيم كيف كان كيمورا عنيفاً وهو يهجم عليه بالسيف ذي الرأسين وينهال على رأسه تحت الخوذة بالضربات المتلاحقة قبلما استطاع جيم أن يصد الهجوم.. وظل جيم بعدها مصدع الرأس أياً ما، واضطر بازي أن يصرخ فيه ناهياً محذراً من تكرار التجربة حتى أيقظ صراخه الأسرى النائمين في عنبر «أي»، وحتى ذهب به الدكتور رانسوم إلى مستشفى المعسكر ليفحص أذنه!

تذكر جيم ذراع كيمورا القويتين وتسارع عينيه وهو ممدد الآن بين الحشائش الطويلة خلف الفخ.. ولأول مرة كان مسروراً لأن الفخ لم يصد طائراً واحداً.. ولمح من موضعه الجنديين اليابانيين وهما يتفحصان بنظرهما الأبنية المهجورة خارج الطرف الشمالي الغربي لمعسكر لانجهوا هذا.. فإلى جانبهما، داخل نطاق المعسكر، كانت قاعة الاجتماعات العامة المخربة، حيث شغل المعسكر موقع كلية تدريب المعلمين الذي دمرته القنابل حول مطار لانجهوا أثناء حرب ١٩٣٧.. وكانت المباني المدمرة الأقرب إلى المطار قد استبعدت من المعسكر، أما هنا حيث الحشائش المتطاولة فقد تهيأ لجيم أن ينصب فخاخه.. والواقع أنه بعد أن تمت مناداة الأسماء هذا الصباح، فقد تسلل جيم من خلال سور الأسلاك، تاركاً حذائه على عتبة العنبر، وخاض في القناة الضحلة، ثم زحف خلال الحشائش بين أطلال الأبنية.. وما إن تم له هذا حتى ألقى بنظره إلى الوراء حيث عالم المعسكر المأمون، وثكنات الجنود، وبرج المياه، والمخفر، وعنابر النوم - متوجساً من

أن يكون بهذه الخطوة قد انعزل عن الباب الأمين والحماية إلى الأبد.. ولطالما وصفه الدكتور رانسوم بأنه «روح طليقة» لكثرة جولاته في أرجاء المعسكر، التماسًا لفكرة جديدة يريد تنفيذها!

وفي رقدة جيم هذه بين الأعشاب خلف فخ الطيور البرية أخذت إحدى الطائرات تقلع من مطار لانجهوا، بيد أنه تجاهلها هذه المرة.. وسمع الجندي زميل كيمورا يصرخ للأطفال الذين كانوا يلعبون في شرفة قاعة الاجتماعات المهجورة.. أما كيمورا فقد أخذ يعود أدراجه شطر سور الأسلاك وهو يتفحص بنظره سطح القناة وبقايا الأقصاب الجافة.. والحقيقة أن كيمورا بدا له الآن أكثر نحوًا مما كان عليه من الامتلاء بعد إصابته بنوبة سل رئوي في العهد الأخير، وكان جيم على استعداد لمنازلته مرة أخرى وهو الآن في الرابعة عشرة من عمره، لولا بندقية كيمورا!

ترى هل يصر كيمورا على البحث عنه ومنازلته مرة أخرى؟ وكيف يمكنه أن يشرح لـكيمورا، في مجال تفسير وجوده في هذا المخبأ أن فكرة نصب فخاخ للطيور البرية كانت من بنات أفكار بازي - حتى على الرغم من عدم وجود مثل هذه الطيور بالمرة؟ لكن جيم كان مضطراً لمجاعة بازي، الذي يعرف مصادر متعددة للحصول على القوت.. نعم إنه كان يمكنه أن يبلغ كيمورا عن الراديو السري في المعسكر، لكن لو فعل هذا فإن مصدر الطعام الإضافي سيصبح ولا شك في خبر كان.

وإن أشد ما كان يقلق جيم هو التفكير بأن كيمورا لو ضربه، فإنه سيرد بالمثل.. إن قلة من الفتيان الذين من سنه كانوا يتجاسرون على

مجابهته، وفي السنة الماضية منذ أن بدأت الجراية تتضاءل، كان الرجال الذين يفعلون هذا أقل القليل.. وعلى أي حال فإنه لو رد على كيمورا بالمثل، فهو مقضي عليه بالموت.

لم يلبث جيم أن راح يهدئ نفسه، مفكرًا في أنسب اللحظات لكي يبرز من مخبئه ويسلم نفسه.. وما عليه إلا أن ينحني أمام كيمورا دون أدنى انفعال ظاهر، مؤملًا بأن مئات الساعات التي أمضاها متسكعًا حول المغفر - وخاصة بإيعاز من بازي - كفيلة بأن تحسب لحسابه وتكون له شفيعًا.. ثم إنه ذات مرة أعطى كيمورا دروسًا في اللغة الإنجليزية، ولكن على الرغم من أن اليابانيين كانوا كما هو واضح بسبيل خسران الحرب، إلا أنهم لم يكونوا مهتمين بتعلم الإنجليزية.

وانتظر جيم أن يرتقي كيمورا الضفة ويتقدم نحوه.. وكان واقفًا في وسط القناة ويده جسم أسود له بريق.. وكانت القنوات والبرك والآبار في نطاق معسكر لانجهوا تضم الكثير من الأسلحة الصدئة والذخيرة الفاسدة من مخلفات حرب عام ١٩٣٧ بين اليابان والصين.. وقد راح جيم يحرق من خلال الحشائش إلى الجسم الأسطواني المدبب، مفترضًا أن حركة المد في القناة قد كشفت عن إحدى القنابل التي لم تنفجر.

ثم سمع كيمورا يصرخ للجندي الآخر الواقف لدى سور الأسلاك الشائكة.. وما لبث أن هش الذباب عن وجهه وجعل يناجي هذه الأداة كما لو كان يناجي طفلًا.. ثم رفعها إلى ما خلف رأسه، في الوضع الذي يتخذه اليابانيون قبل إلقاء قبلة.. وانتظر جيم الانفجار، وما لبث أن

أدرك أن الجندي كيمورا كان ممسكًا بسلحفاة ماء عذب كبيرة.. وبرز رأس السلحفاة من غطاءها، فأخذ كيمورا يضحك بانفعال.. كان وجهه الذي اعتراه نحول الدرن أشبه بوجه صبي صغير، مما جعل جيم يتذكر أن كيمورا كان في مراحل نشأته صبيًا، كما كان جيم قبل الحرب!

* * *

بعد أن اجتاز الجنود اليابانيون ساحة العرض اختفوا بين حبال الغسيل المنشور بين أكشاك الثكنات.. وعلى الأثر ظهر جيم لابسا حذاء الجولف الجلدي الذي أعطاه له الدكتور رانسوم وبيده سلحفاة الجندي كيمورا.. كان هذا المخلوق العتيق يحتوي في القليل على رطل من اللحم، ولا بد أن بازي الواسع الحيلة سوف يجد وسيلة لذبحها وسلخها.

كان أمام جيم معسكر لانجهوا، موطنه الحالي وديناه كلها طيلة الأعوام الثلاثة الماضية، أو بالأحرى السجن الخانق لحوالي الألفين من أسرى الحلفاء على اختلاف جنسياتهم.. وبدت متجاورة تحت شمس يونيه أكشاك الثكنات الطابية، وعنابر نوم الأسرى الأسمنتية، وساحة العرض، والمخفر ببرج أطرافه المائل - ترفرف عليها جميعا أسراب البعوض والذباب وافدة من حوض نهر اليانجتسي إلى هذا الملتقى الأثير.. ولكن ما إن تخطى جيم سور الأسلاك الشائكة حتى صافحه الهواء من كل جانب، فأخذ يجري في الدرب غير الممهّد وقميصه المهمل يخفق حول كتفيه العظيمتين مثل قطع الغسيل المنشور بين الأكشاك.

وأثناء جريه لم يلبث أن تعثر بسبب حذاء الجولف.. وكثيرًا ما أضحى هذه الأيام أعجل في خطاه ترقبًا لما تتطور إليه الأمور بعد تكرار غارات الطائرات الأمريكية واحتمال نهاية الحرب.. وفي محاولته الحفاظ على السلحفاة أصيب برضوض في ركبته اليسرى.. فأخذ يعرج في مشيته واضطر إلى الجلوس على درجات محطة مياه الشرب.. وفي هذه المحطة التي كانت تستمد مياهها من البرك في المعسكر تولى فريق عمل من الأسرى غلي مياهها من رصيد الفحم القليل الباقي في مخازن المعسكر، غير أن هذا الفريق المؤلف من ستة من البريطانيين الذين كانوا مكلفين بإيقاد النار ما لبث أن فترت حماسه.. وعلى الرغم من أن الدكتور رانسوم كان يعنفهم إلا أنهم فضلوا أن يقاسوا من الدواستاريا المزمنة على أن يتعبوا من غلي المياه.

وبينما راح جيم يداوي ركبته المرضوضة رأى أفراد هذا الفريق جالسين خارج أحد الأكشاك القريبة يتطلعون إلى السماء وكأنما يتوقعون أن تنتهي الحرب في غضون العشر الدقائق القادمة.. لقد عرف فيهم مستر مولفاني المحاسب السابق في شركة توليد الطاقة في شنغهاي.. وكان بجواره القس بيرس، وهو مبشر كانت زوجته المتكلمة باليابانية تتعاون جهازًا مع الحرس، بإبلاغهم يوميًا عن أنشطة الأسرى.

وما من أحد كان ينتقد مسز بيرس عن هذا العمل.. والحقيقة أن معظم الأسرى في لانجهوا ما كانوا إلا متحمسين للتعاون مع اليابانيين.. وكان جيم يستنكر هذا على نحو ما، غير أنه أقر في دخيلته أن يفعل الإنسان أي شيء لكي يبقى على قيد الحياة.. فبعد ثلاث سنوات رهن

معسكر الاعتقال كانت فكرة الوطنية أوهى أثرًا في نفوسهم.. وبدأ أن أبسل الأسرى - ومع اعتبار التعاون عملية محفوفة بالمجازفة - هم أولئك الذين يشقون طريقهم للفوز بعطف اليابانيين ورضاهم، مما يمكنهم من مساعدة زملائهم بمقادير صغيرة من الطعام والضمادات الطبية.. وفضلاً عن هذا فلم يكن ثمة الكثير من الأنشطة السرية التي يمكن الإبلاغ عنها والوشاية بأصحابها، إذ لا أحد في لانجهوا كان يحلم بمحاولة الهرب من المعسكر، خوفاً من القصاص الذي لا بد أن يعقب ذلك.

وفي وسط ساحة العرض كان لفيف من الصبية في سن الثانية عشرة يلعبون البلي على الأرض.. وما إن وقعت أنظارهم على السلحفاة حتى جروا شطر جيم قائلين:

- جيم! هل يمكن أن نلمسها؟

- ما هذه يا جيم؟

- هل أعطاها لك الجندي كيمورا؟

فقال جيم باسمًا في تعطف:

- إنها قنبلة.

ومد يده بالسلحفاة وسمح لكل منهم بفحصها.. وعلى الرغم من فارق السن بينه وبينهم، فإن العديدين من هؤلاء الصبية كانوا له أصحابًا ودودين عقب وصوله إلى لانجهوا، عندما كان في حاجة إلى كل حليف يمكن أن يجده.. بيد أنه شب عنهم واتخذ لنفسه أصدقاء آخرين - مثل

الدكتور رانسوم، وبازي، والبحارة الأمريكيين في عنبر «إي»، أولئك الذين كانوا يقتنون نسخًا بتاريخ ما قبل الحرب من مجلات «ريدرز دايجست» و«بويولار ميكاتكس» التي راح جيم يلتهمها التهامًا.. وبين حين وآخر، وكأنه كان يستعيد الطفولة الضائعة، كان جيم يعود إلى عالم الطفولة، فيلعب البلي وما إليها.

ومضى الصبية في عجبهم من السلحفاة قائلين:

- أهى ميتة؟ إنها تتحرك..

- إنها تنزف دمًا!

كانت بقعة الدم التي شوهدت على السلحفاة هي من أثر جرح ركبة جيم، بينما قال آخر من الصبية:

- جيم! أنت قتلتها!

ومد أكبر الصبية وهو ريتشارد بيرس يده للمس السلحفاة، غير أن جيم جذبها إلى ما تحت إبطه؛ فقد كان يكره ريتشارد ويخافه قليلًا، وكان يقاربه في البنية.. ثم إنه كان يحسده بسبب ما كانت أمه تؤثر به من الجراية اليابانية.. وفضلاً عن هذا فقد كانت أسرة بيرس تقتني مكتبة صغيرة من الكتب المصادرة، وكانت حريصة عليها ضئيلة بها.

وقد رد جيم متعاليًا:

- هذه رابطة الدم، جمعت بيننا!

فقد رأى جيم أن السلاحف تنتمي إلى البحر، وإلى النهر الطليق المرئي على بعد ميل إلى الغرب من المعسكر، ذلك الرافد الكبير

لنهر يانجتسي، الذي حلم يوماً بأن يبحر على متنه مع أبويه إلى الأمان والحمى في عالم لا حرب فيه.

وهتف جيم محذراً ريتشارد وهو يصدده عنه:

- احترس! فقد دربتها على الهجوم.

تراجع الأولاد عنه.. فقد كانت طباع جيم تقلقهم أحياناً.. على الرغم من أنه كان يحاول أن يحد من مجافاته لهم، فإنه كان يحسد عليهم ملابسهم، وهي وإن كانت من أقمشة مشككة ومن صنع أمهاتهم، غير أنها كانت أفضل من ملابسه الممزقة.. وأكثر من هذا فقد كره أن تكون لهم أمهات وآباء.. والواقع أن جيم بات يدرك تدريجياً خلال السنة الماضية أنه ما عاد يتذكر صورة أبويه وملامحهما.. إن قوامهما الغائم ما زال يخالط أحلامه، بيد أنه نسى وجهيهما.



(٢١)

المهجع

- يا جيم الصغير!

صاح بهذا النداء رجل شبه عار يرتدي قبقابًا و«شورتًا» ممزقًا قرب
المبني السكني «إي».. وكان قابضًا بيديه على عمودي عربة خشبية ذات
عجلات من الحديد.. ورغم أن العربة لم يكن عليها أي أحمال، فإن
عموديهما كادا يخلعان ذراعي الرجل من منبتهما.

- أنا هنا يا مستر ماكستيد!

وأزاح جيم الفتى ريتشارد بيرس جانبًا، وأسرع يجري في الدرب
المشقق شطر المبني السكني.. ولما وقع نظره على عربة الطعام خاوية
خطر له أن وجبة الطعام اليومية قد تفوته.. والواقع أن الخوف من البقاء
دون طعام حتى ليوم واحد كانت أخوف ما يخافه جيم.. ولهذا قال
للرجل:

- إنني وعدتك يا مستر ماكستيد.. وأنا دائمًا على استعداد.

وكان على جيم أن يتوقف عندما وصل إلى مدخل الوحدة.. وبعد

أن هدأت أنفاسه أسرع ويده السلحفاة وارتقى الدرجات إلى الممشى الذي قامت على جانبه سلسلة من الغرف الصغيرة، زودت كل منها بأربع دكك خشبية للنوم.. ذلك أنه منذ الشتاء الأول في المعسكر، عندما توفي كثير من الأطفال في الشكنات القارسة، سمح للعائلات ذات الأطفال بالانتقال للإقامة في مبني كلية التدريب السابقة - برغم أن الغرف وهي غير مدفأة وجدرانها من الأسمنت ظلت فوق درجتي التجمد.

وكان جيم يشترك في غرفة مع زوجين إنجليزين، مستر ومسر فنسنت، وطفلهما البالغ من العمر ست سنوات.. وكان يشغل مساحة بوصات من الغرفة مع الأسرة مدى عامين ونصف، ولكن هذا الوجود المشترك كان مثال الانعزال.. ففي اليوم الذي قدم فيه جيم علقت مسر فنسنت ملاءة قديمة حول الربع المقدر له من حيز الغرفة.. ولم تكف هي ولا زوجها، السمسار السابق في بورصة شنغهاي، عن إبداء مشاعر الاستياء لوجود جيم، وظلا على مدار الشهور والأعوام يعملان على دعم مهجعه بعوازل من أقمشة قديمة وورق مقوى، حتى أصبح هذا الركن مثل الجحور التي يقيمها لأنفسهم متسولو شنغهاي.

ولم يقنع الزوجان بالتضييق على جيم في دنياه الصغيرة تلك على هذه الصورة، وإنما كانا يغتالان منها ما استطاعا، وذلك بدوام تحريك المسامير والحبال وغيرها من أدوات تعليق العوازل.. وراح جيم يدافع عن نفسه بشني المسامير إلى حد أن هذه العوازل المصطنعة لم تلبث أن تهاوت جمعاً ذات ليلة أثناء قيام الزوجين بخلع ملابسهما، ولك

أن تقدر مدى استفظاعهما وارتياعهما! ولما رد جيم بتخطيط حدود مهجعه بالمسطرة والقلم، عززت الأسرة نظامها الدفاعي بمزيد من العوازل والسدود!

وعلى الرغم من كل هذا فإن جيم كان لا يزال يستلطف مسز فنسنت، إذ كانت مليحة شقراء وإن بدت ذابلة، وكانت مشدودة الأعصاب على الدوام، ولم تبد أدنى بادرة للاهتمام بجيم.. وكان يعلم أنه لو تضور جوعاً إلى حد الموت في مهجعه، لالتمست أي عذر مهذب لإمساكها عن مد يد المساعدة له.. وفي غضون السنة الأولى للمقام في لانجهوا كان الأطفال القلائل الذين بلا أهل عرضة للإهمال، إلا إذا أبدوا استعداداً للانتفاع بهم كخدم.. وكان جيم وحده هو الذي رفض هذا، ولم يقبل أبداً أن يجلب أو يحمل شيئاً لمستر فنسنت.

وكانت مسز فنسنت جالسة فوق مرتبتها القش عندما اندفع جيم إلى داخل الغرفة المشتركة وقد شبكت يديها الشاحبتين في حجرها وراحت تحديق إلى الحائط المطلي بالجير فوق فراش ابنها، وكأنما كانت تتطلع إلى فيلم خفي على شاشة عرض.. وكان جيم يساوره القلق إذ يراها تنفق الكثير من وقتها وهي تراقب تلك الأفلام المزعومة.. وعندما نظر إليها من خلال شقوق عوازل مهجعه حاول أن يتكهن بما تستبصره حقاً - لعله فيلم منزلي لنفسها في إنجلترا قبل زواجها وهي جالسة وادعة مسترخية في حديقة المنزل التي تغمرها الشمس، والتي تنتشر في كافة أرجاء الريف الإنجليزي - تلك المسطحات المنبسطة التي تصور جيم أنها هيأت مطارات طوارئ في معركة بريطانيا.. وكان جيم يعلم

من ملاحظاته في شنغهاي أن الألمان لم يكونوا متحمسين لوجود مثل هذه الحقائق.. فهل لهذا السبب خسروا هم معركة بريطانيا؟ كانت هذه الخواطر كلها مشوشة في ذهن جيم، إلى حد أن الدكتور رانسوم ذاته لم يحاول جلاءها له.

قالت له مسز فنسنت مستنكرة:

- إنك تأخرت يا جيم.. إن جميع أفراد مبني «إي» ظلوا ينتظرونك..
- إنني كنت مع بازي، أستمع إلى أحدث أخبار الحرب يا مسز فنسنت..

- يجب عليك ألا تعمل لحساب بازي.. إن تلك الأعمال التي يطلبها منك أولئك الأمريكيون! قلت لك إننا قبلهم..
- مبني «إي» قبل الجميع يا مسز فنسنت.. تمامًا.
ودلف جيم إلى مهبجه، وتمدد فوق فراشه والسلحفاة داخل قميصه.

ولم يلبث أن سمع من يناديه خارج النافذة:

- جيم! موعد المطبخ!

غير أنه ظل ممددًا في فراشه.. كانت رحلة المطبخ شاقة، ولم يكن يرى فائدة في التبكير.. إن اليابانيين قد استقبلوا انتصار الحلفاء الوشيك واحتفوا به بطريقتهم الخاصة، فقد أنقصوا مقادير الجراية القليلة فعلاً بمقدار النصف.. وكان السابقون في الوصول إلى المطبخ يتلقون مقادير أقل من التاليين لهم، خصوصًا عندما تحقق الطهارة من كثرة عدد الأسرى

الذين يقضون نجبهم أو الذين يشتد بهم المرض إلى حد يعجزون معه عن السعي للحصول على أنصبتهم.

يضاف إلى هذا أنه لم يكن ثمة التزام على جيم بأن يساعد في دفع عربة الطعام، وخاصة بالنسبة لمستمر ماكستيد.. ولكن كما لاحظ جيم، فإن الذين استعدوا لمساعدة زملائهم من الأسرى، كانوا يفعلون هذا طواعية، ولم يكن لذلك أثر في حث من هم كسالى لا يحركون ساكناً ويدأبون على الشكوى.. وكان البريطانيون أكثر الشاكين، وهو شيء لم يفعله الهولنديون والأمريكيون قط.. وقدر جيم بارتياح أن مواطنيه المتقاعسين سوف يحل بهم الأمراض فلا يستطيعون حتى رفع الصوت بالشكوى والتذمر!

وابتسم جيم هائناً قرير العين وهو مستلق في فراشه الذي يملأ المهجع والذي يعده عالمه كله.. لقد شبك فوق حوائطه عدة صفحات من مجلة «لايف» القديمة كان بازي قد أعطاها له.. كانت منها صور فوتوغرافية للطيارين في معركة بريطانيا وهم جالسون على مقاعد قرب طائرات «اسبيتفاء»، وصورة لقاذفة قنابل ألمانية محطمة من طراز «هينكل»، وصورة لكاتدرائية سانت بول وهي شامخة كأنها بارجة حربية فوق بحر من النيران.. وإلى جانبها إعلان ملون لسيارة باكار فارهة كانت أبهى في نظره من طائرات «موستانج» الأمريكية التي تكتسح مطار لانجهوا.. فهل يخترع الأمريكيون طرزا جديدة من الموستانج كل عام أو كل شهر؟ وهل تراهم يقومون بغارة أخرى هذا المساء، إذ يتاح له أن يقارن أحدث التصميمات بين طرازي الموستانج

و«السوبر فور تريس»؟ هكذا كان جيم يتشوف إلى الغارات الجوية.

وكان إلى جانب صورة الباكار جزء صغير اقتطعه جيم من صورة أكبر لجمع من الناس خارج بوابات قصر «بكنجهام» عام ١٩٤٠، وكان هذا الجزء يضم رجلاً وامرأة متأبطي الذراعين ذكراه بوالديه.. إن هذين الزوجين الإنجليزيين، اللذين ربما لقيا مصرعهما في غارة جوية، قد أصبحا أو كادا يكونان له أمًّا وأبًّا.. وكان جيم يعرف أن ذينك الشخصين كانا غريبين عنه تمامًا، بيد أنه حرص على إبقاء صورتها ماثلة أمامه وعلى استدامة هذا التمويه، حتى يتهيأ له أن يستبقي ذكرى أبويه شاخصة حية.. أما دنيا ما قبل الحرب، وطفولته في أمهرست أفينو، وتعليمه في مدرسة الكاتدرائية - فذلك كله يمت إلى عالم الفيلم الخفي الذي كانت مسز فنسنت تستشرفه من فوق فراشها المحدود.

ولم يلبث جيم أن ترك السلحفاة تزحف إلى حصيره القش... فإنه لو حملها معه في تجواله لظن الجندي كيمورا أو غيره من الحراس أنه غادر المعسكر... ففي فترة قرب نهاية الحرب هذه يعتقد الحراس اليابانيون أن الأسرى البريطانيين والأمريكيين يبذلون محاولات دائبة للهرب - وإن كانت هذه الفكرة في الواقع هي آخر ما يدور في أذهانهم... وقد حدث عام ١٩٤٣ أن هرب عدد قليل من البريطانيين، مؤملين أن يجدوا المأوى لدى الأصدقاء الحياديين في شنغهاي، ولكن سرعان ما تم اكتشاف أمرهم على أيدي جيش المبلغين الوشاة... وفي صيف عام ١٩٤٤ توجهت عدة جماعات من الأمريكيين إلى مدينة تشونجكنج عاصمة الصين الوطنية على بعد تسعمائة ميل إلى الغرب...

غير أن الإبلاغ عنهم تم بمعرفة الفلاحين الصينيين الذين فزعوا من رد الفعل الانتقامي، فكان تسليمهم إلى اليابانيين وإعدامهم... ومنذ ذلك الحين توقفت كافة محاولات الفرار من الأسر تمامًا... وبحلول شهر يونيو من عام ١٩٤٥ كانت كافة المناطق فيما حول شنغهاي مشبعة بالعداء الشديد ومسرحًا لقطاع الطرق والقرويين المتضوئين من الجوع والهاربين من الجيوش العميلة - إلى حد أن معسكر الأسرى وحراسه اليابانيين كانوا الملاذ الوحيد الآمن.

وراح جيم يمسح بإصبعه على رأس السلحفاة... وبدأ له أن طهوها مدعاة للأسف.. إنه ليحسد هذه الزواحف لأصداها الضخمة، فهي حصن حصين لها ضد العالم!

ومن تحت فراشه جذب صندوقًا خشبيًا ساعده الدكتور رانسوم في إعداده وتسميره... كان يضم ممتلكاته: شارة قلنسوة يابانية أعطاها له الجندي كيمورا - قطع شطرنج - كتيب في مبادئ اللغة اللاتينية من الدكتور رانسوم - سترته الرياضية من مدرسة الكاتدرائية... ثلاثة أزواج من القباقيب كان يتتعلها طوال السنوات الثلاث الماضية.

لم يلبث جيم أن وضع السلحفاة في الصندوق وغطاها بالسترة الرياضية... وما إن رفع طرف الستارة الفاصلة بين مهجعه ومثوى جيرانه حتى وجد مسز فنسنت تراقب كل حركاته... إنها كانت تعامله كما كانت تعامل خدمها الصينيين، وكان يدرك هذا ويحتمله بسماحة لأسباب لا يكاد يفهمها... كان جيم منجذبًا إلى مسز فنسنت، شأنه في ذلك شأن كل الرجال والفتيان الأكبر سنًا في المبنى السكني (أي)، غير

أن استهواءها له كان مبعثه شيئاً مختلفاً... إن الساعات الطويلة التي كانت تمضيها محدقة إلى الحائط، وسهومها حتى عن ولدها المريض بالدوستاريا وهي تحممه وتطعمه وتغير ملابسه دون أن تنظر إليه على مدار دقائق متواصلة - كل ذلك أوحى لجيم أنها ظلت على الدوام فوق المعسكر، فوق عالم الحراس والجوع والغارات الجوية الأمريكية التي كان هو نفسه مشغولاً بها مكرساً أحاسيسه لها... ولكم ود جيم لو يلمسها، لا من قبيل مشاعر المراهقة، ولكن من باب الفضول البحث.

قال لها جيم:

- يمكنك استعمال سريري يا مسز فنسنت، إذا كنت تريدين أن تنامي.

وما إن مد جيم يده إلى كتفها حتى دفعته بعيداً عنها، وتحول سهومها إلى نظرة حادة وهي تقول:

- إن مستر ماكستيد لا يزال ينتظر يا جيم... ربما حان الوقت لكي تعود إلى الأكشاك.

- لا إلى الأكشاك!

قالها وهو يتكلف التألم... وردد الكلمات لنفسه بحمية وهو يغادر الغرفة... إن الأكشاك هي مثال البرودة، وإذا امتدت الحرب إلى ما بعد شتاء عام ١٩٤٥، فإن طوائف أكثر من الأسرى سوف يقضون نحبهم في تلك الثكنات القارسة... ومع ذلك، فمن أجل مسز فنسنت قد يعود إلى الثكنات فعلاً!

(٢٢)

جامعة الحياة

في كل أرجاء المعسكر كانت تسمع صلصلة العجلات الحديدية... وفي نوافذ أكشاك الثكنات، وفوق درجات عنابر النوم، نفر الأسرى جلوسًا وقد أذكتهم من خمولهم لبضع دقائق ذكرى الطعام.

لقد ترك جيم فناء المبني (أي) ووجد مستر ماكستيد وهو لا يزال ممسكًا بذراعي عربة الطعام... فبعد أن أمضى ماكستيد نحو عشرين دقيقة سابقة وهو يعالج إبقاء العربة متوازنة، لم يلبث أن شعر بالوهن والتخاذل... فإن ذلك المهندس المعماري السابق الذي كان يمثل في نظر جيم كل ما كان يعجب به في شنغهاي قد استنزفت قواه سنوات الأسى في لانجهوا... وكان جيم لدى وصوله إلى المعسكر قد سره وجود ماكستيد، أما الآن فقد تجلى له مدى التغيير الذي اعتري هذا الرجل... فقد كانت عيناه تراقبان بلا انقطاع أعقاب السجائر التي يلقيها الحراس اليابانيون، بيد أن جيم وحده كان أسرع إلى جمعها، وكان ذلك يثير غضب جيم، بيد أنه كان يؤازر مستر ماكستيد من قبيل الحنين إلى حلم طفولته في أن يشب يومًا ليصبح مثله.

والواقع أن ركوب سيارة (ستودبكر) الفاخرة ولقاء الفتيات في كازينوهات المقامرة في أمسيات شنغهاي قد أعد مستر ماكستيد إعداداً سيئاً لدنيا المعسكر... وعندما أخذ جيم عنه ذراعي عربة الطعام تساءل في نفسه إلى أي مدى كان يستطيع المهندس المعماري السابق احتمال الوقوف في الدرب الملوث بطفح المجاري... لعله كان يقف طوال اليوم، على مرأى من الأسرى البريطانيين، قبل أن يسقط إعياء دون أن يحركوا ساكناً ويخفوا لمساعدته وهم جلوس على العتبات... كان قصاراهم أن يحدقوا إلى ساحة العرض، غير مكترئين بشيء حتى بتلك المقاتلة اليابانية التي حلقت فوق رؤوسهم... أما المتزوجون فقد خفوا إلى الطابور بأوعية الجراية، دون أن يسلم جيم من تعليقاتهم:

- ... أخيراً وصل!

- ... يا له من ولد!

- ... متحرك في كل مكان!

والواقع أن مستر ماكستيد لم يتمالك إزاء تعليقاتهم أن قال بابتسامة ودودة:

- سوف يستبعدونك إذن من النادي الريفي! لا تهتم بما يقولون!

- لا يهمني شيء!

وعندما تعثر مستر ماكستيد أسنده جيم قائلاً:

- هل أنت بخير يا مستر ماكستيد؟

ولوح جيم بيده مستنجدًا بالرجال القعود فوق العتبات، لكن لم

يتحرك أحد منهم... وما لبث الرجل أن تمالك نفسه واسترد توازنه،
قائلاً:

- هيا بنا يا جيم... هذه عملية لا بد منها.

وفي خلال العام الماضي كان مع هذا الثنائي فرد ثالث هو مستر
كاري صاحب توكيل سيارات البويك في نكنج، غير أنه توفي منذ ستة
أسابيع بالمalaria، فعمد اليابانيون إلى إنقاص معدل الجراية إلى الحد
الذي أكتفي معه بأن يصاحب عربة الطعام فردان فقط.

وأُسرع جيم في الدرب الصواني والعجلات تبعث الشرر
بالاحتكاك، حتى جعل مستر ماكستيد يعتمد على كتف جيم وهو يلهث
لكي يجاريه في سرعته، ولم يتمالك أن قال:

- على مهلك يا جيم... سوف تصل إلى المطبخ قبل أن تنتهي
الحرب!

- ومتى ستنتهي الحرب يا مستر ماكستيد؟

- جيم... هل ستنتهي الحرب؟ سنة أخرى، ربما ١٩٤٦... قل لي
أنت، فإنك تستمع إلى راديو بازي.

- إنني لم أسمع هذا الراديو يا مستر ماكستيد.

كان جيم صادقاً في هذا، فإن بازي كان أمكر من أن يسمح لبريطاني
بالانضواء إلى جماعة المستمعين السرية... وقد أردف جيم قائلاً:

- عرفت أن اليابانيين استسلموا في جزيرة أوكيناوا... وأملّي أن
تنتهي الحرب قريباً.

- ليس بأقرب ما تظن يا جيم... إن مشاكلنا قد تبدأ بعد انتهائها...
هل لا زلت تعطي دروسًا في الإنجليزية إلى النفر كيمورا؟

فكان على جيم أن يعترف قائلاً:

- إنه غير مهتم بتعلم الإنجليزية... في ظني أن الحرب انتهت فعلاً
بالنسبة إلى النفر كيمورا.

- وهل ستنتهي الحرب بالنسبة لك فعلاً يا جيم؟ سوف ترى أمك
وأباك مرة أخرى.

- حسن.

لقد أثر جيم ألا يتكلم عن أبيه، حتى مع مستر ماكستيد... نعم
إن الاثنين جمعت بينهما صعبة قديمة العهد، بيد أن مستر ماكستيد لم
يساعد جيم مساعدة تذكر، ونادراً ما كان يشير إلى ولده باتريك وإلى
زيارات تلاقيهم السالفة إلى أندية وبارات شنغهاي... ولم يعد هو تلك
الشخصية التي كانت تتطاول إلى حوض السباحة من أثر الشراب...
وإنما كان مبعث قلق جيم وهواجسه هو أن أمه وأباه قد طرأ عليهما
أيضاً مثل هذا التغيير... وكان عقب وصوله إلى لانجهوا قد تسامع بأن
والديه بين المعتقلين في معسكر قرب سوشوا، بيد أن اليابانيين رفضوا
مجرد فكرة نقل الأسرى بالتبادل مع معسكر إلى آخر.

ومهما يكن فقد اجتاز الاثنان ساحة العرض واقتربا من مطابخ
المعسكر خلف المخفر... كان ثمة نحو عشرين عربة طعام مع المكلفين
بها مصطفة قرب منفذ التوزيع وهم يتزاحمون مثل ما يحدث بين قائدي

(الريكشات)... وقدر جيم أنه ومستر ماكستيد سيحتلون مكانهما في وسط الطابور بعد أن يتم وصول بقية القادمين الذين كانت عرباتهم تصلصل على الأرض الصوانية، يراقبهم جميعاً عن كشب مئات من الأسرى الهزالي... وقد حدث يوماً في الأسبوع الغائب انعدام الطعام، قصاصاً من اليابانيين للأسرى كرد فعل للغارة الأمريكية التي اكتسحت طوكيو، ويومها ظل الأسرى واقفين يحدقون إلى المطابخ حتى العصر. ومهما يكن فإن جيم ومستر ماكستيد احتلا مكانهما في الطابور... وعن كشب من المخفر كان فريق عمل من الأسرى البريطانيين والبلجيكيين يقومون بدعم سور الأسلاك الشائكة، فكان اثنان منهم يفكان لفافات السلك بينما يقطعه الآخرون ويسمرونه في الأعمدة... وكان عديد من الجنود اليابانيين يعملون جنباً إلى جنب مع أسراهم ولا يكاد أحد يفرق بين أزيائهم العسكرية الممزقة والأسمال الكاكي الحائلة اللون التي كان يرتديها الأسرى.

أما سبب هذا النشاط فكان لوجود جمع من الصينيين يقرب من الثلاثين فرداً خارج بوابات المعسكر... كانوا خليطاً من الفلاحين وجنود الجيوش العميلة والأطفال المشردين، وقد جلسوا في العراء يحدقون إلى الأسلاك الشائكة التي يجري دعمها في مواجهتهم لصدهم... إن أوائل هؤلاء المعدمين الجوعى ظهروا منذ ثلاثة شهور... وفي الليل كان أشدهم بؤساً يتسلقون خلال الأسلاك الشائكة، ليكون مصيرهم الوقوع بين أيدي دوريات الحراسة من بين الأسرى أنفسهم... والذين بقوا منهم على قيد الحياة في المخفر حتى الفجر سيقوا إلى النهر على

أيدي الجنود اليابانيين وضربوا ضرباً مبرحاً على الضفة حتى الموت.
وراح جيم وهم يتقدمون في الطابور شطر منفذ التوزيع يراقب الصينيين.. كان الفلاحون على الرغم من أنهم في الصيف يلبسون ملابسهم الشتوية المبطنة... وغني عن البيان فإنه لم يسمح لأحد من هؤلاء الصينيين بالدخول إلى معسكر لانجهوا، ناهيك عن الحصول على القوت... ومع ذلك فإنهم لم يتوقفوا عن الحضور، منجذبين إلى هذا الموضع الوحيد في الإقليم المقفر حيث يوجد طعام... وكان يقلق جيم أنهم يظنون مرابطين حتى يلقوا حتفهم... وكان مستر ماكستيد على حق عندما قال إنه مع انتهاء الحرب فإن مشاكل الأسرى الحقيقة لن تنتهي، بل سوف تبدأ.

هكذا كان جيم يفكر قلقاً من أجل الدكتور رانسوم ومسز فنسنت وباقي رفاقه الأسرى.. كيف يأمل أن يبقوا على قيد الحياة دون أن يتولى اليابانيون رعايتهم؟ وكان قلقه ينصب بصفة خاصة على مستر ماكستيد، الذي كانت نكاته عن حياة النوادي تبث فيهم روح الأمل، وهو عماد الحياة في المعسكر.

وفي غضون عام ١٩٤٣، حينما كانت رحى الحرب لا تزال دائرة لصالح اليابان، كان الأسرى يعملون متكاتفين متعاونين... فقد شكلت لجنة للترفيه كان مستر ماكستيد رئيساً لها، وقد اضطلعت بتنظيم برامج ليلية للمحاضرات والحفلات الموسيقية... كانت هذه في الواقع أسعد سنة في حياة جيم... فعندما ضاق بالإقامة في المهجع جازاً لمسز فنسنت ومستهدفاً لمحاولاتها في الانتقاص من الحيز المخصص

له في الغرفة المشتركة، فقد أخذ يمضي أمسياته في الاستماع إلى المحاضرات التي كانت تتناول شتى الموضوعات العامة من تاريخية وجغرافية واجتماعية... وكان يحرص على الجلوس في الصف الأول في قاعة الاجتماعات مصغياً بكل جوارحه ومعاوداً الاستماع إلى بعض المحاضرات أكثر من مرة.. وكان يعمل في نسخ من مسرحيتي (ماكبث) و(الليلة الثانية عشرة) لشكسبير اللتين قامت بتمثيلهما (فرقة لانجهوا المسرحية) .. وفي معظم عام ١٩٤٤ أقيمت بالمعسكر فصول تعليمية بإشراف جماعة المبشرين، وجدها جيم مملة بالمقارنة إلى المحاضرات المسائية، غير أنه نزل على رأي بازي والدكتور رانسوم اللذين ألحا عليه في وجوب عدم الانصراف عن درس واحد، وإن تشكك جيم في أنهما فعلاً هذا رغبة في إراحة نفسيهما من نشاطه الدائب وحركته التي لا تنقطع!

غير أنه بحلول عام ١٩٤٤ ما لبث كل هذا أن انتهى؛ فبعد الهجمات الجوية الأمريكية على مطار لانجهوا وأولى الغارات على أحواض السفن في شنغهاي، فرض اليابانيون نظام حظر التجول الليلي... وتلا ذلك قطع الكهرباء عن المعسكر بصورة دائمة، والتزام الأسري بالانسحاب إلى عنابر النوم وملازمة الفراش... واقتصرت وجبات الطعام التي كانت في ذاتها متواضعة على وجبة واحدة في اليوم... وفرضت الغواصات الأمريكية حصاراً على مصب نهر اليانغتسي، وبدأت الجيوش اليابانية في الصين في التراجع إلى الساحل، وهم لا يكادون يجدون الطعام الكافي.

والواقع أن توقع هزيمة اليابانيين والهجوم المنتظر على جزرهم الأم جعلاً جيم يزيد عصبية... وغدا يأكل كل فتات الطعام الذي يقع تحت يده، تحسباً لتزايد عدد الوفيات في المعسكر بسبب الملاريا ومرض (البري بري)... وكان جيم يعجب بطائرات المoustangs والسوبر فورتريس... بيد أنه كان يود أحياناً لو أن الأمريكيين عادوا إلى جزر هاواي وقنعوا بانتشال بوارجهم الحربية الغارقة في ميناء بيرل هاربور... إذن لأصبح معسكر لانجهوا مرة أخرى المقام السعيد الذي عرفه في عام ١٩٤٣.

حينما رجع جيم ومستر ماكستيد بالجراية إلى المبنى (أي) كان الأسرى ينتظرون - سكوتاً وبأيديهم اللعب والأطباق... كانوا وقوفاً على الدرجات... كان الرجال عراة الصدور مهدلي المناكب بارزي عظام الصدور، والزوجات بأرديتهن الباهتة، والجميع يراقبون بأعين جامدة وكأنما يوشكون أن تقدم إليهم جثة ميت... وكان على رأس الطابور مسز بيرس وابنها، يليهما الزوجان المبشران اللذان ظلا طوال اليوم يتصيدان الطعام.

وكانت مئات الذبابات تحوم في البخار المتصاعد من الدلاء المعدنية المحتومة على الحنطة والبطاطا... ولم يلبث جيم وهو يحط عنه عبء ذراعي عربة الطعام أن قطب ألماً، لا من مجهود سحب العربة، ولكن من سخونة حبة البطاطا المسروقة والمخبأة داخل قميصه... وما دام بقي منحنياً على نفسه فلن يكتشف أحد وجود الحبة، ولذلك مضى التقطيب والتوجع:

- آه! آه! يا إلهي!

لقد راقبه مستر ماكستيد وهو يرفع حبة البطاطا خلصة عند انصرافهم من المطابخ، بيد أنه لم يعترض قط... ولم يلبث أن تخلى عن العربة للزوجين المبشرين وصعد الدرجات مسرعًا وهو منحني على نفسه ومرق من خلال الستار إلى مبهجه حيث أسقط حبة البطاطا الساخنة إلى ما تحت حصيره، ثم اندفع عائدًا أدراجة لكي يأخذ مكانه على رأس الطابور... وكان مستر ماكستيد قد غرف الجراية لمسز بيرس وزوجها، ولكن جيم أزاح ابنهما بكتفه وقدم طبقه وتلقى فيه غرفة من الحنطة المسلوقة وحبّة بطاطا ثانية كان قد أشار لمستر ماكستيد عليها عند انصرافهما من المطابخ.

وعندما عاد جيم إلى فراشه استرخى لأول مرة، فجذب الستار وتمدد واضعًا الطبق الساخن على صدره... وعندئذ شعر بالخدر، ولكن شعوره بالجوع كان أغلب، فقوس يديه حول حبة البطاطا وأخذ يقضم، وفي خلال ذلك حانت منه التفاتة إلى صورة الرجل والمرأة الواقفين خارج قصر بكنجهام، فتمنى لو أن أبويه نالا أيضًا حبة بطاطا إضافية مثله، حينما كانا.

ولما رجعت مسز فنسنت وزوجها بنصيبهما من الجراية اعتدل جيم جالسًا وطوى الستار حتى يتمكن من فحص طبقيهما... إنه كان يستطيب أن يراقب مسز فنسنت وهي تأكل وجباتها... وجال جيم بنظره إلى الحنطة المسلوقة في طبقها... كانت الحبوب النشوية بيضاء ومتفخة، لا تكاد العين تميزها من حشرة السوس التي كانت تتعش

بها... وفي خلال السنوات الأولى في المعسكر كان كل واحد يزيح السوس جانبًا، أو يقذف به من أقرب نافذة، غير أن جيم أصبح الآن يستبقه... وكثيرًا ما كان يصطف في طبقه أكثر من مائة سوسة حول حافة الطبق، وإن كان العدد قد أخذ يقل في الفترة الأخيرة... وفي هذا قال له الدكتور رانسوم: «كل السوس»... وقد فعل هذا، وإن كان الآخرون يقذفونه بعيدًا... لكن السوس كان به بروتين، وهي حقيقة بدت مقززة لمستر ماكستيد عندما أخبره جيم بها!

ويمهل جيم في طعامه منتظرًا أن تأخذ مسز فنسنت في أكل بطاطتها... وقال له زوجها وكان رجلًا قصيرًا عمل في السابق سمسارًا وجوكي خيول سباق، وكان ممددًا في فراشه قرب ابنه المريض:

- هل يجب أن تأكل بهذه الطريقة يا جيم؟ إن المعسكر سوف يوحشك عندما تنتهي الحرب... ترى كيف تتصرف عندما تعود إلى المدرسة في إنجلترا؟

فأجاب جيم وهو يلتهم آخر السوس:

- ربما كان هذا غريبًا فعلاً.

غير أنه أضاف وهو يلحق الطبق بإصبعه، متذكرًا عبارة قالها له بازي:

- على أي حال مستر فنسنت، إن أحسن معلم للإنسان، هو جامعة الحياة.

فأنزلت مسز فنسنت ملعقتها قائلة:

- هل يمكن يا جيم أن نكمل أكلنا؟ لقد سمعنا نظريتك عن جامعة الحياة!

- صحيح: ... لكن لا بد لنا من أكل السوس يا مسز فنسنت.

- أعرف هذا يا جيم... هكذا قال لك الدكتور رانسوم.

- قال إننا بحاجة إلى البروتين.

- إن الدكتور رانسوم على حق.. لا بد لنا جميعاً أن نأكل السوس!

وأراد جيم أن يلطف من جو النقاش، فقال:

- هل تعتقدين في الفيتامينات يا مسز فنسنت؟

فحدقت مسز فنسنت في طبقها، وقالت في يأس صادق:

- ولد غريب!

غير أن صدها له على هذه الصورة لم يضايقه... فقد كان كل ما يتصل بهذه المرأة ذات الشعر الأشقر المتناقص يستهويه، وإن كان رغم ذلك لا يطمئن إليها... فقبل ستة أشهر، عندما قدر الدكتور رانسوم أن جيم قد أصيب بالتهاب رئوي، لم تبد أي بادرة للعناية به، واضطر الدكتور رانسوم ذاته إلى القدوم كل يوم ورعايته شخصياً... ومع ذلك، فإنها في الليلة السابقة فقط ساعدته في أداء واجبه في اللغة اللاتينية!

وانتظر جيم إلى أن بدأت مسز فنسنت تأكل بطاقتها... وبعد أن تأكد أن بطاقتها كانت أكبر الحبات الأربع في الغرفة، وبعد أن قرر أن يدخر شيئاً للسلفحفاة تحت الفراش - ما لبث أن رفع القشرة عنها والتهم اللب الساخن... وعندما تلاشت آخر الفتات عاد إلى القدر

وأسدل الستار.. والآن وقد بات وحده- وإن كان آل فنسنت رغم أنهم لا يبعدون عنه أكثر من أقدام فقد عدهم في كوكب بعيد - أخذ جيم يستعرض المهام التي تنتظره هذا اليوم... هناك أولاً حبة البطاطا الثانية التي لا بد له من تهريبها من الغرفة... وهناك واجبه المنزلي في اللغة اللاتينية لكي يراجع الدكتور رانسوم... وهناك المأموريات التي يكلفه بها بازي والنفر كيمورا... ثم هناك الغارة الجوية المنتظرة بعد الظهر... وكل هذه تشكل برنامجاً حافلاً حتى موعد حظر التجوال ليلاً، عندما يتهيأ له أن يطوف بأروقة المبنى (أي) بشطرنجه، مستعداً لملاعبة كل من يرغب في ملاعبته.

هكذا انسحب جيم من مهجعه ويده كتاب اللغة اللاتينية وقد بدت حبة البطاطا بارزة في جيب بنطلونه، غير أنه اعتمد على ملابسات المهرج الذي يقترن بتحركاته لكي يتمكن من الإفلات بسلام...

ومع ذلك فإن مستر فنسنت ترك ملعقته في المسافة بين الطبق وفمه وجعل يحدق إلى البروز البادي في بنطلون جيم بنظرة ملؤها الكآبة... غير أن جيم الذي كان يسره دائماً أن يتحرر من آل فنسنت راغ مسرعاً في الممشى شطر الباب الخارجي تحت سلم الحريق، وقفز من فوق رؤوس الأطفال القاعدين على الدرجات... ثم أنشأ يجري في فضاء المعسكر الأثير لديه والهواء يعبث بأطراف قميصه الممزق.



(٢٣)

الغارة الجوية

توقف جيم في طريقه إلى المستشفى لأداء الواجب الدراسي في قاعة الاجتماعات المدمرة... ومن شرفة الطابق العلوي كان بوسعه أن يلاحظ ليس فقط فخاخ البط التي نصبها عبر الأسلاك الشائكة، بل كذلك الإلمام أولاً بأول بكل ما يجد من الأنشطة في مطار لانجهوا... وعلى الرغم من تهدم السلالم بفعل الغارات الجوية إلا أنه استطاع أن يشق طريقه خلال الحطام ويتخذ له مكاناً فوق الدرجات الأسمنتية التي كانت تشكل الصف الأول في مدرج الشرفة.

وقبل أن يعكف على درس اللغة اللاتينية وضع الكتاب في حجره وأخرج حبة البطاطا الثانية وأكلها متمهلاً هائناً..

ومن مكانه كان يشرف على مطار لانجهوا بما فيه من حظائر الطائرات ومرابض المدفعية المضادة وورش الإصلاح محصنة جميعاً بين الدشم وأكياس الرمل... وكانت طائرات الاستطلاع العتيقة وبعض القاذفات المعدلة هي كل ما بقي في المطار من أسراب الطيران المنيعة التي كانت تحلق من هذا المطار... وبين الحشائش الطويلة وأعواد

الأقصاب الجافة كان يرقد حطام الطائرات اليابانية المدمرة بالقصف الجوي والمتهاوية في المعارك الحامية.

وكانت جماعات من (تجار الخردة) الصينيين منهمكين في تفكيك أجزاء الطائرات المحطمة ونقلها إلى شنغهاي لبيعها في الأسواق، بينما قامت جماعات أخرى من الحمالين بالعمل في استكمال المدرج تحت إشراف الجنود اليابانيين دون توقف ولا كلل... وقد تذكر جيم أنه هو أيضًا قد عمل في إقامة المدرج... وفي خلال السنوات الثلاث الماضية كان جيم كلما راقب طائرة يابانية تقلع من لانجهوا تملكه زهو مشوب بالقلق لأنه ساهم مع الدكتور رانسوم وبازي في بناء المدرج، جنبًا لجنب مع أولئك الصينيين التعمساء الذين انتهت بهم أعمال السخرة إلى المقبرة المجاورة للمطار... ولو أن اليابانيين انتصروا فإن ذلك الشطر الصغير من عقله الذي كان معلقًا بالمدرج قد يطيب ويهدأ... أما إذا كانت الهزيمة نصيبهم فسوف يكون ذلك بداية المتاعب التي تحدث عنها الدكتور رانسوم.

وكان جيم معجبًا على الأخص بطياري (الكاميكازي) اليابانيين، أو الطيارين الانتحاريين... وفي خلال الشهر الماضي فقط وصلت إلى مطار لانجهوا عدة وحدات خاصة منهم، كانوا يتخذونه قاعدة لهم في القيام بالغارات الانتحارية على حاملات الطائرات الأمريكية في بحر الصين الشرقي.

وفتح جيم كتاب اللاتينية وبدأ يحفظ الواجب الذي كلفه به الدكتور رانسوم... وكان اليابانيون قد أغلقوا مدرسة المعسكر انتقامًا

من الآباء والأمهات المنشغلين طوال الوقت بأطفالهم، غير أن الدكتور رانسوم كان مصرًا على تكليفه بواجبات دراسية متعددة... فهناك قصائد شعر للحفظ، ومسائل حساب للحل، وأساسيات العلوم التي كان متقدمًا فيها بفضل اهتمام أبيه ودرايته في هذا المجال... ثم كانت هناك اللغة الفرنسية وإن كان جيم يكرهها... كانت الواجبات كثيرة في نظر جيم، خصوصًا وهو يعلم أن الحرب باتت قريبة من نهايتها... لكن لعل هذه كانت الطريقة التي ارتآها الدكتور رانسوم لكي يستريح من نشاطه ومضايقاته بعض ساعات كل يوم!

وفيما كان جيم منهمكًا في الاستيعاب لاحظ فجأة حركات غير عادية في المطار... فقد وجد العمال يتفرقون ملقين ما بأيديهم على الأرض... وأبصر فوهات المدافع المضادة للطائرات توجه إلى السماء، وسرعان ما أعقب هذا دوى صفارات الإنذار.

شعر جيم بالانفعال لتوقع غارة جوية، وتطلعه إلى السماء من خلال سقف القاعة المدمر... وفي خلال ذلك كان الأسرى يجرون في كل طرقات المعسكر... وأخذ الرجال والنساء المتراخين فوق عتبات الأكشاك يسرعون إلى الداخل، والأمهات يطلن من النوافذ الأرضية لانتشال أولادهن... وفي غضون دقيقة صار المعسكر مهجورًا، تاركين جيم يستشرف وحده الغارة الجوية.

أخذ ينصت مرهف السمع.. كانت الغارات الجوية تزيد تبكيرًا كل يوم تبعًا لتقدم القواعد الأمريكية المتواصل عبر المحيط الهادي وخطر الأراضي الصينية الأم... وفجأة عبر خيال عظيم قاعة الاجتماعات المهدمة

ومرق بسرعة قصوى فوق الأرض شطر محيط المطار المسيحي، وملأت الفضاء قعقة هائلة، برزت من خلالها مقاتلة ذات محرك واحد يبدو فوقها شعار الولايات المتحدة ذو النجوم والأشرطة... وتراءى لعيني جيم جناح طائرة الموستانج وهما لا يعلوان فوق رأسه بأكثر من ثلاثين قدمًا أكثر استعراضًا من حيز القاعة القابع فيها... وثار في أثرها إعصار من الأتربة وأوراق النبات حجب وجه الأرض... واستدارت المدفعية المضادة للطائرات تتعقب الطائرة المغيرة ووهج نيرانها القاصفة يبرق في عيني جيم كأضواء شجرة عيد الميلاد... ثم جاءت في أعقابها طائرة ثانية من نفس الطراز وبعدها ثالثة كانت من الانخفاض بحيث تسنى لجيم أن يبصر قائدها في مقصورته بكل وضوح... واكتسحت المعسكر طائرتان أخريان أدى عادم محركاتهما إلى اقتلاع سقوف الصباح المعرج من فوق أكشاك الشكنات... وعلى بعد نصف ميل إلى الشرق فيما بين معسكر لانجهوا والنهر، انقض سرب آخر من الطائرات الأمريكية قادمًا من البحر، حلق منخفضًا فوق حقول الأرز البور حتى اختفى عن نظر جيم فيما وراء خط المقابر، ثم عاد إلى الارتفاع وهو يعبر حدود المطار، ليهبط بعد ذلك منقضًا بنيرانه على الطائرات اليابانية المرابطة قرب الحظائر.

وكانت قذائف المدفعية المضادة للطائرات تتفجر دراكا فوق المعسكر.. وانفجرت قذيفة منها في وميض خاطف فوق قاعة الاجتماعات المكشوفة حتى تهاوت شلالات من الأتربة والأسمت فوق كتفي جيم، الذي ذهب يعد الانفجارات بالعشرات... ترى هل

كان طيارو الموستانج يعلمون أن بازي وملاحى البحرية التجارية الأمريكية كانوا أسرى في معسكر لانجهوا؟ لقد كان قائدو الطائرات كلما هاجموا المطار يحلقون حتى آخر لحظة فيما وراء منطقة عنابر النوم ذات الثلاث طبقات، على الرغم من أن هذا كان يجذب النيران اليابانية شطر المعسكر، مما أدى إلى قتل عديد من الأسرى.

بيد أن جيم كان مسرورًا بمشاهدة طائرات الموستانج بمثل هذا القرب حتى كانت عيناه تلتهمان كل جزء من أجزائها، وبلغ انفعاله حدًا لم يستطع معه أن يهتف للطيارين، وأخذ يلوح بالكتاب للطائرات وهي تمرق بين قنابل المدفعية المضادة.

إن جيم لم يشهد في حياته من قبل غارات جوية على هذا المستوى... فقد عبرت موجة أخرى من طائرات الموستانج حقول الأرز البور فيما بين معسكر لانجهوا والنهر، وتبعها سرب من القاذفات المقاتلة من ذات المحركين... وعلى مسافة ثلاثمائة ياردة إلى الغرب من المعسكر اندفعت إحدى طائرات الموستانج شطر الأرض بعد أن فقد قائدها السيطرة عليها واصطدمت بضفة قناة جافة ثم انفجرت واشتعلت فيها النيران، واستطاع جيم أن يلمح هيكل الطيار الأمريكي وهو ما يزال موثوقًا في مقعده حتى اختفى عن نظره بين ألسنة اللهب المتلظية.

وانفصلت عن السرب طائرة أخرى معطوبة وهي تجر في أثرها سحابة من الدخان الكثيف ثم ارتفعت مارقة بين قذائف المدفعية المضادة... وراح قائدها يحاول الإفلات من المطار، ولكن عندما بدأت

الطائرة تفقد ارتفاعها قلبها الطيار على ظهرها وهوى سالمًا من مقصورة القيادة... وما لبثت مظلتها أن انفتحت وسقط عموديًا على الأرض، أما الطائرة المشتعلة فقد اعتدلت ثم راحت نهوي فوق الحقول الخاوية، ثم غاصت أخيرًا في النهر.

وفيما ابتعدت الطائرات الأخرى متجهة إلى شنغهاي وخفت هدير محركاتها شوهد طيار آخر بالمظلة هابطًا بين القنوات إلى الغرب من المطار... وفي النهاية هبط الطياران كلاهما بمظلتيهما في اتجاه منطقة المدافن، فيما أسرعت سرية من الجنود اليابانيين بسيارة نقل إلى الطريق الدائرة حول المطار لإدراك الطيارين وقتلهما... ومسح جيم الأتربة عن وجهه منتظرًا سماع طلقات البنادق.

لقد أحرزته مصير هذين الطيارين الأمريكيين، اللذين لقيتا حتفهما على هذه الصورة مشتبكين في حبال مظلتيهما، على مرآة من جاويش ياباني مسلح بطبنجة موزار وصبي إنجليزي مختبئ بين أطلال مبني في المطار... بيد أن نهايتهما ذكرته بنهايته هو أيضًا، تلك النهاية التي طالما هجست في خاطره منذ وصوله إلى لانجهوا... لقد رحب جيم بالغارات الجوية، وهدير طائرات الموستانج تكتسح المعسكر، وروائح الزيوت والشحوم المحترقة، ومصرع الطيارين، بل رحب حتى بنهايته المحتملة... فقد أدرك أنه رغم كل شيء، لا تساوي حياته شيئًا... وما لبث أن طوى كتابه في اللغة اللاتينية وهو يرتعد بظماً خفي يعلم يقينًا أن الحرب هي التي ستروي غلته.

(٢٤)

المستشفى

- جيم! هل أنت فوق؟ هل أصبت في الغارة؟

هتف الدكتور رانسوم بهذه الكلمات وهو واقف بين الأنقاض في الطابق الأرضي من قاعة الاجتماعات المدمرة، مناديًا نحو الشرفة... كان مكدودًا من مجهود الجري من المبنى (د)، ولرئتيه زفيف في تجويفه الصدري... إن السنوات التي قضاها في معسكر لانجهوا قد جعلته أقصر قامة وأشد نحولاً... ومن فوق لحيته الصدئة أبصر بعينه الواحدة السليمة قمة رأس جيم تبدو بيضاء بالأتربة وكأنما شاب من الغارة الجوية.

قال الدكتور رانسوم للفتى مرة أخرى:

- يا جيم... أنا محتاج إليك في المستشفى... قال لي الجاويش ناجاتا إنه يمكنك أن تبقى معي أثناء منادة الأسماء.

استفاق جيم من تأملاته المكتئبة وهبط من الشرفة فيما كانت صفارة انتهاء الغارة تنطلق في أرجاء المعسكر، ورد على الدكتور رانسوم قائلاً:

- أنا هنا يا دكتور رانسوم... أظن أنني كنت على وشك الموت...
هل هناك قتلى بيننا؟

- نرجو ألا يكون هذا.

ونفّض الدكتور رانسوم الأتربة عن لحيته بقبعته القش... وعلى الرغم من أن الغارة نالت من اتزانهِ وإثارته فقد راض نفسه على الصبر حيال جيم وكأنه كان يعدّه مسؤولاً عنها... ومهما يكن فقد مسح بيده غبار الأسمنت عن رأس جيم وفحص فروة الرأس بحثاً عن آثار دماء، قائلاً:

- جيم... إننا اتفقنا على ألا تصعد إلى الشرفة أثناء الغارات... إن اليابانيين عندهم ما يكفيهم... وربما يظنون أنك تحاول إعطاء إشارات إلى الطيارين الأمريكيين!

- إنني فعلت هذا... لكنهم لم يروني! إن طائرات الموستانج أسرع من البرق! اطمئن يا دكتور، إنني حفظت واجب اللغة اللاتينية!

ومن عجب أن الدكتور رانسوم لم يكن مهتماً سواء أحفظ جيم الواجب أو لم يحفظه... ولم يلبث أن اتجه إلى المستشفى، وهو مجموعة من أكشاك البوص أقامها الأسرى قرب المدافن، تقديراً واقعياً منهم لظروف المعسكر وإمكاناته الطبية... وكانت عملية مناداة الأسماء قد بدأت، وخلت الطرقات من الحركة... وانهمك بعض الجنود اليابانيين في تهشيم ما بقي سليماً من زجاج النوافذ بكعوب بنادقهم... وكان مستر سيكورا قائد المعسكر قد أصر على هذه الخطوة التحوطية لوقاية الأسرى من انفجارات القنابل.. أما الواقع فإنه فعل

هذا اقتصاصًا للغارة الجوية، حتى يدفع الأسرى الثمن عندما تهاجمهم أسراب البعوض من البرك الراكدة فيما حول المعسكر... ذلك وقد أخذ ينادي الأسماء صارخًا وخلفه ثلاثة جنود يابانيين بالسونكيات، فيما وقف المئات من الأسرى في ملابسهم المهلهلة صابرين مستسلمين... ففي هذا العام الذي اقتربت فيه الحرب من نهايتها غدا اليابانيون خطرين مرهوبين أكثر من أي وقت مضى.

وعندما وصل الاثنان إلى المستشفى اتخذ جيم مكانه خارج المستوصف مع الدكتور بوين، أخصائي الأذن والأنف والحنجرة السابق في مستشفى شنغهاي العام، وعن كذب مع المبشرات الأرامل اللاتي كن يشكلن هيئة التمريض... وأطل جيم بنظره إلى داخل عنابر المرضى، حيث رقد نحو ثلاثين من المرضى في فرشهم... بعد كل غارة كانت تحدث وفيات قليلة، إما من الصدمة أو الإجهاد... ومهما يكن فإن الباقين من المتعقلين بالحياة، كان الموت لديهم أنباء طيبة... وكان معنى الموت عند جيم هو الحصول على حزام، أو حمالة بنطلون، أو قلم حبر، ومرة ظفر بساعة ذهبية بمعجزة لم يلبسها أكثر من ثلاثة أيام ثم سلمها مع كل شيء غيرها إلى بازي... وكان اليابانيون يصادرون الساعات بأنواعها، وكما قال الدكتور رانسوم، فإنهم أرادوا أن يظل الأسرى في جهل بالوقت... وفي خلال تلك الأيام الثلاثة تدرب جيم أن يقيس الوقت بما يستغرقه عمل أي شيء.

وكان أغلب المرضى يعانون من الملاريا والدوستاريا وأمراض القلب الناجمة عن سوء التغذية... أما الموتى فكانوا يدفنون في المقابر

المجاورة لحديقة المطبخ.

وألقي جيم نظرة أخرى على عنبر الرجال... كان يعرف أن مستر باراكلو سكرتير نادي الريف في شنغهاي كان على وشك الموت، وقد لاحظ أنه يلبس في إصبعه خاتمًا من ذهب... وربما لا يكون من الذهب فعلاً - فلم يكن في كل ما كان يقدمه جيم إلى بازي أي ذهب - ولكنه كان يساوي أي شيء على الأقل.

إن جيم لم يكن يتورع عن السرقة من الموتى... وكان المرضى الوحيدون الذين تبلغ بهم البلاهة إلى حد القدوم إلى المستشفى هم أولئك الذين لا أقارب أو أصدقاء لهم يمكن أن يتولوا رعايتهم في الأكشاك أو العنابر... وبغض النظر عن خلو المستشفى من الأدوية - وإن كانت كمية الدواء القليلة المخصصة من جانب اليابانيين لهذا الغرض قد استنفدت خلال العام الأول - فإن المستشفى ذاته قليلاً ما كان يهوى الشفاء لأحد - وكان اعتقاد اليابانيين بأن من يدخلون المستشفى لا يلبثون أن يقضوا نحبهم، يدفعهم إلى إنقاص الجرايات المحددة بواقع النصف... وحتى بهذا، كما رأى جيم، فقد كانت تمضي فترة غير قليلة قبل أن يعلن الدكتور رانسوم والدكتور بوين وفاة المتوفين رسمياً... وكان جيم يعرف أن عددًا كبيرًا من البطاطا التي يأكلها كانت من النصيب المقرر للمتوفين... وكان الدكتور رانسوم يجهد نفسه في العمل من أجل المرضى، وقد شعر جيم بالأسف؛ إذ رآه في العهد الأخير أقرب إلى فقدان الأمل.

ولم يلبث الدكتور رانسوم أن ناداه قائلاً:

- إنهم وصلوا يا جيم... الزم الانتباه... لا تجادل الجاويش ناجاتا اليوم... ولا تكلمه عن الغارة الجوية.

ولما لاحظ أن نظرات جيم مركزة على الخاتم الذهبي أدار رأسه لمواجهة الجاويش ناجاتا لدى صعوده درجات البوص بقعقة.. كان الدكتور رانسوم يستنكر سرقة القبور، وإن كان يعرف أن جيم يقايض بالأحزمة وحمالات البنطلونات على الطعام... ومهما يكن فإن جيم كان بدوره يعرف أن للدكتور رانسوم مصادره الخاصة للمؤونة... نعم إنه - على خلاف أغلب الأسرى في لانجهوا ممن كان يسمح لهم بأخذ حقيبة ملابس قبل الزج بهم في المعتقل - قد دخل المعسكر وليس معه سوى قميصه وشورت وصندل جلدي - غير أن مهجعه في المبني «د» كان يضم مجموعة قيمة من المقتنيات: غيارات كاملة من الملابس، وجراموفون مع إسطوانات كثيرة، ومضرب تنس، وكرة رجبى، ورف الكتب التي كانت تهىء لجيم دوره... إن هذه المقتنيات كلها، ومثلها كل الملابس التي كان جيم يلبسها في المعسكر وكذلك حذاء الجولف الثمين الذي استرعى نظر الجاويش ناجاتا قد حصل عليها الدكتور رانسوم من عديد المرضى الذين كانوا يتوافدون إليه كل مساء في مهجعه الصغير في المبني «د»... وكثير منهم لم يكن لديه ما يقدمه، غير أن الزوجات الأصغر سنًا كن يتحفن الدكتور رانسوم بما يتيسر لهن لقاء الخدمات الخصوصية التي كان يقدمها لهن... بل إن ريتشارد بيرس قد تعرف على قميصه الذي وجد جيم يرتديه، ولكن بعد فوات الأوان!

وتوقف الجاويش ناجاتا أمام الأسرى... كان واضحًا من هيئته

وملامحه أن معدل الغارات الجوية الأمريكية قد هز كيانه... وقد توقف أمام جيم ونقر على رأسه الأسماء نافضاً سحابة من الغبار الأبيض، قائلاً برصيده الضئيل من الإنجليزية.

- يا ولد! يا شقي!

وانتظر جيم أن يواصل الجاويش حملته عليه... بيد أنه تركه وتقدم إلى عنبر الرجال وهو يصيح باللغة اليابانية في وجه الطبيين... وراح يحدق إلى المحتضرين من المرضى، أولئك الذين لم يتكلف قط أدنى اهتمام بأمرهم، وخطر لجيم لحظتها في مثل خطف البرق أن الدكتور رانسوم يخفي طياراً أمريكياً مصاباً... لقد ود جيم لو يلمس هذا الطيار قبل أن يقتله اليابانيون، ويتحسس خوذته وبذلة طيرانه، ويجري أصابعه فوق التراب والزيت العالق بنظارتة الكبيرة - لولا أن سمع هذا التحذير:

- جيم! كف عن التفكير! الزم مكانك!

صدر التحذير من مسز فيليس، إحدى المبشرات الأرامل، بعد أن ضبطته وهو يهم بالتحرك للاقتراب من الجريح الذي هوى بين حقول الأرز البور، مخبأ بين المرضى... وهكذا تمالك جيم ووقف وقفة انتباه لتفادي نظرة الارتياح التي بدت من الحارس الياباني لدى الباب، منتظراً انتهاء عملية مناداة الأسماء، متجهًا بفكره إلى الغنيمة التي يمكن أن يفوز بها من طيار أمريكي متوفٍ... إن ما يناله من هذا يمكن مقايضته مع بازي بحبات إضافية من البطاطا لشهور قادمة، وربما بمعطف يدفئه في الشتاء.. ولا شك أنه سيتوفر قدر آخر من البطاطا للدكتور رانسوم، إذ كان جيم مصممًا على بقاءه على قيد الحياة.

وعلى مدار ساعة ظل جيم واقفاً في الصف مع المبشرات الأرامل، تحت مراقبة الحارس... وكان الدكتور رانسوم والدكتور بوين قد ذهباً مع الجاويش ناجاتا إلى مكتب قائد المعسكر، ربما لاستجوابهما... وكان الحراس يطوفون بالمعسكر الصامت، منادين الأسماء مراراً وتكراراً... كانت الحرب على وشك الانتهاء، ومع ذلك فقد استحوذ على اليابانيين تفقد الأسرى ومعرفة أعدادهم بدقة.

لم يلبث جيم أن أغمض عينيه تهدئة لفكره، بيد أن الحارس صرخ فيه متوسماً أن يصدر عنه عمل ماكر لا يرضي عنه الجاويش ناجاتا... إن ذكرى الغارة الجوية ما زالت تملك عليه حواسه... فقد كانت طائرات الموستانج تداوم التحليق فوق المعسكر لمهاجمة برج المدفعية المضادة للطائرات... ولم يتمالك جيم أن تصور نفسه في مكان قائد إحدى الطائرات المقاتلة، هاوياً إلى الأرض إذ تنفجر طائرته، ثم محلّقاً مرة أخرى مثل أحد طياري «الكاميكازي» الذين يهتفون باسم الإمبراطور قبل الانقضاض بطائراتهم على حاملات الطائرات الأمريكية في قاعدة أو كيناوا... لسوف يأتي يوم يصبح فيه جيم طياراً جريحاً، هاوياً إلى الأرض بين المقابر في حقول الأرز البور، فيما تتطاير قطع من كسوة طيرانه ومظلة البراشوت، وربما من جثمانه أيضاً، لتتناثر عبر الحقول ثم تستحيل عناصرها إلى غذاء للأسرى خلف الأسلاك الشائكة وللعينين المتضورين جوعاً فيما وراء بواباتها!

وسمع مسز فيلبس تهمس مرة أخرى بصوت كالضحك:

- جيم: .. ذاكر دروسك!

تحامل جيم على نفسه لئلا يطرف بعينه، فيغيط الحارس الياباني ويشيره... وجعل يحدق في ضوء الشمس خارج نافذة المستوصف... بدت له الصورة الشاملة كأنها محاطة باللهب، انعكاسًا من جثمان الطيار الأمريكي المحترق... ولقد امتد الانعكاس فمس الأسلاك الشائكة الصدئة على محيط المطار، وأعواد قصب السكر الجافة الداوية، وجناحي الطائرة الهاوية، وعظام الفلاحين الثاوين في المقابر المكشوفة... واشتاق إلى وقوع الغارة التالية، فتلاحقت أنفاسه من أثر هذا التعطش الفريد للطيران الذي كان الدكتور رانسوم يعلم أنه ليس إلى ريه من سبيل!



حديقة المقبرة

بعد أن تمت مناداة الأسماء جلس جيم يستريح لدى عتبة المستشفى... وقد عاد الدكتور رانسوم والدكتور بوين من مكتب قائد المعسكر وعلى الأثر اعتكفا داخل المستوصف مع المبشرات الأربع الأرامل... وبدا الدكتور رانسوم عصبيًا مثل اليابانيين... ولاح الجرح القديم أسفل عينه محتقنًا بالدم... فهل صفعه الجاويش ناجاتا لاحتجاجة على مزيد من الانتقاص من مقادير الجراية؟

أخذ جيم يمشي الهوينا ويدها في جيوبه في الدرب الحجري خلف المستشفى... وراح يسرح النظر في صفوف الطماطم والفول والبطيخ المزروعة في حديقة المطبخ.. وكان المقصود بهذا المحصول المتواضع تعزيز غذاء المرضى الهزيل، وإن كان الكثير من الخضر يتسرب إلى أفراد البحرية التجارية الأمريكية في المبنى «أي».

ومهما يكن فإن جيم كان يستمتع بعمله مع النباتات... كان يعرف كل نوع منها معرفة شخصية، وكان بوسعه أن يدري بمجرد النظر إن

كان الأطفال قد سرقوا حبة طماطم واحدة... ومن حسن الحظ أن صفوف القبور المتراسة في المقبرة المجاورة قد صدت الأطفال عن السطو على ثمار الحديقة.. وأن النبات، فضلاً عما فيه من منافع غذائية، كان موضوعاً طريفاً يستهوي العقول ويحرك المشاعر... وفي المستوصف كان الدكتور رانسوم يقوم بتشريح وتلوين سيقان وجذور النباتات ويضعها تحت ميكروسكوب الدكتور بوين ويطلب من جيم أن يحدد مئات الخلايا والأوعية الغذائية... إن تصنيف النباتات عالم كبير من المفردات، حتى كان لكل عشبة في المعسكر اسمها الخاص، وحتى لكأن هناك دائرة معارف خفية تشمل كل سياج نباتي أو خندق معشوشب.

وبعد ساعة قضاها جيم في تسميد التربة بالمخلفات البشرية التي كان يجري ترسيبها وتنقيتها في خنادق خاصة، يمم شطر أحد القبور في المقبرة المجاورة لنيل قسط من الراحة... وفي مكانه هذا راح يراقب إحدى الطائرات اليابانية وهي تقلع من المطار متجهة إلى بحر الصين للقيام بغارة انتحارية انتقاماً من الغارة الأمريكية... وفجأة سمع من تقول له:

- هل ما زلت مهتماً بالطائرات يا جيم؟

كانت المتكلمة هي مسز فيلبس، وكانت خارجة من فناء المستشفى مع مسز جليمور... وقد أضافت قائلة:

- ... إذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن تلتحق بسلاح الجو الملكي البريطاني.

- إنني سوف ألتحق بسلاح الطيران الياباني.

- أوه... الياباني؟! -

فاهت المبشرتان الأرملتان بهذه الكلمة استغرابًا وظنًا بأن جيم يمزح، ثم أخذتا تدفعان عربة اليد بعجلاتها الحديدية ذات الرنين في الدرب الحجري فيما كانت جثة المتوفي فوق العربة تهتز في موضعها، في طريقها إلى المقبرة.

وراح جيم يلمع حبات الطماطم الثلاث التي اقتطفها، ولم تكن بأكبر من حجم البلي، لكنها ستكون محل تقدير بازي... وما لبث أن دس الحبات الثلاث في جيب قميصه وأخذ يراقب مسز فيلبس ومسز جليمور وهما تحفران القبر... فما لبثتا أن أدركهما الإعياء وجلسا فوق العربة تستريحان قرب الجثة.

عندئذ تقدم منهما جيم وأخذ المجرفة من يد مسز فيلبس الناحلة... كانت الجثة هي جثة مستر راديك رئيس الطهاة في فندق كاثاي سابقًا... وكان جيم قد أفاد كثيرًا من محاضراته التعليمية عن عابرة المحيط «برينجاريا»، وقد طاب له الآن أن يوفيه الدين.... وهكذا تولى حفر التربة اللينة... وعندما كان الأسرى متمالكين لقواهم البدنية كانوا يحتفرون جانبًا من تربة القبور الضيقة كبعد نظر فيهم توقعًا للأيام القادمة... أما الآن فإن الموتى كانوا يدفنون فوق سطح التربة، ثم يهال عليهم قليل من الأتربة وكانت الأمطار الموسمية الغزيرة تلين طبقة الأتربة العليا، فتشكل بعدها معالم لهياكل الجثث من تحتها... ومن ثم كانت تبرز من هنا أو هناك ذراع أو قدم من القبور... وكانت الجرذان

قد احترقت شقوقاً عميقة في قبر مسز هوج الهولندية التي وصلت إلى معسكر لانجهوا مع بازي والدكتور رانسوم، فذكرت هذه الأخاديد جيم بخنادق خط «ماجينو» التي طالما أقامها في مشارف أمهرست أفينو الصخرية في طفولته، متمثلاً بجيشه وأجناده المعدنية!

وواصل جيم الحفر حتى يوسد رئيس الطهارة في مثنى عميق حتى لا يكون طعاماً فورياً للجرذان، بينما جلست مسز جيلمور ومسز فيلبس فوق عربة اليد قرب الجثة دون تعليق... وكانتا كلما توقف للراحة تبادرانه بابتسامة باهتة كلون الأزهار المطبوعة فوق ثوبيهما القطينين.

- يا جيم... دع هذا وتعال حالاً!

بهذا النداء صاح الدكتور رانسوم من نافذة المستوصف، وطالما كره أن يتولى جيم حفر القبور...

وطنت مئات الذباب حول التربة وهي تستقر على وجه راديك... ومضى جيم يحفر التربة ولا تزال ذكرى «بيرنجاريا» في ذهنه.

- يا جيم! الدكتور يناديك!

- حاضر! القبر جاهز!

وسحبت المرأتان جثة راديك من العربة... وعلى الرغم من كللهما بتأثير هذا الجهد فإنهما كانتا رفيقتين بها ترفقهما بصاحبها في حياته... فهل كان لا يزال حياً في نظر هاتين الأرملتين المتدينيتين؟ كان جيم دائماً شديد التأثير بالمعتقدات الدينية القوية، وكان أبواه متدينين حتى شب وهو ينهج نهجهما... وكان من رأيه أن أولئك الذين يعملون جهدهم

من أجل الآخرين، مثل مسز فيلبس ومسز جيلمور والدكتور رانسوم،
يسلكون دائماً مسلك التدين والصلاح.

وقال جيم وهما توسدان مستر راديك في قبره:

- يا مسز فيلبس... متى تخرج الروح من الجسد؟

أقبل أن يوارى المتوفى في التراب؟

كانت مسز فيلبس قد جثت على ركبتها وأخذت تحفن التراب
وتلقيه على وجه راديك... فردت قائلة:

- نعم يا جيم.. إن روح مستر راديك قد فارقت جسده فعلاً...
الدكتور رانسوم يناديك مرة أخرى... أرجو أن تكون أتممت واجبك
الدراسي؟

- طبعاً.

راح جيم يتأمل هذا كله وهو يتجه إلى المستشفى... كثيراً ما كان
يراقب عيون المرضى وهم في دور الاحتضار، محاولاً أن يستشف ومضة
نور حين تخرج الروح... وذات مرة ساعد الدكتور رانسوم وهو يقوم
بتدليك الصدر العاري لامرأة بلجيكية شابة فتكت بها الدوستتاريا...
لقد قال الدكتور بوين إنها ماتت، بيد أن الدكتور رانسوم اعتصر القلب
تحت الأضلاع، وفجأة رفت عيناها ونظرت إلى جيم... وقد ظن جيم
أول الأمر أن روح المرأة قد رجعت إليها، غير أنها ظلت ميتة... وبعد
ساعة ذهبت بها مسز فيلبس ومسز جيلمور ودفتاها.. وشرح الدكتور
رانسوم الحالة بأن ضخ الدم علا بضع ثوان في المخ.

ودخل جيم إلى المستوصف وجلس إلى الطاولة المعدنية أمام الدكتور رانسوم... وكان يود أن يناقش موضوع روح مستر راديك معه، غير أن الدكتور رانسوم كان يكره على نحو غريب مناقشة أي مسألة دينية مع جيم، على الرغم من أنه كان يواظب على الذهاب إلى الكنيسة صباح كل يوم أحد.

وبدا الدكتور رانسوم منهمكاً أمام صحيفة بها شمع مذاب.. فقد كان كلما شعر بالتعب أو الضيق من جيم يعمد إلى تذويب بضع شمعات ويغمس مربعات من الأقمشة القديمة في السائل الساخن، ثم يعلقها لكي تبرد.. وفي الشتاء الماضي أعد مئات من هذه الرقاع الشمعية كان الأسرى يستخدمونها لكي تكون بديلاً لزجاج النوافذ المكسورة.. وعلى الرغم من أن هذا العمل المضني كان يساعد على صد الرياح القارسة التي تهب من شمالي الصين، فإن القليلين من الأسرى كانوا يقابلون جهود الدكتور رانسوم بالامتنان... ومع ذلك فإن الدكتور رانسوم لم يكن، كما لاحظ جيم، ليهتم بامتنان أحد.

وعندما غمس جيم إصبعه في الشمع الساخن انتهره الدكتور رانسوم بشدة... واستخلص جيم أن المناقشة التي دارت بين قائد المعسكر وبين الطبيب قد ضاقت الدكتور رانسوم وعكرت مزاجه، وكأنه باستعداده للشفاء يحاول إقناع نفسه بأنهم جميعاً سيظلون في المعسكر عند حلوله.

ولم يلبث جيم أن خلع حذاءه الجولف وأخذ يلمعه... فبعد ثلاث سنوات من لبس القباقيب والأحذية البالية كان يلذ له أن يستهوي نظر

الجميع بلمعان هذا الحذاء الجلدي الفاخر... وإذا الدكتور رانسوم يقول له:

- يا جيم... لطيف منك أن تظهر في مظهر أنيق... لكن حاول ألا تلمع حذاءك باستمرار... إن هذا يضايق الجاويش ناجاتا!
- إنني أحب أن يظهر الحذاء لامعاً.

- هو لامع بما فيه الكفاية... ولا بد أنه حتى الطيارون الأمريكيون قد شاهدوه... وربما ظنوا أن عندنا ملعب جولف هنا وضبطوا بوصلاتهم على معدنه!

- هل يعني هذا أنني أساعد المجهود الحربي؟
- ... إلى حد ما.

وقبل أن يلبس جيم الحذاء أمسك الدكتور رانسوم بكعبه، فقد كان به دمل متقيح... وقد أبعد الطبيب صحيفة الشمع المذاب عن المصباح وتولى غلي قدر من الماء في إناء معدني، وبعدها اعتصر الدمى ونظفه بالقطن.

استسلم جيم لهذا دون اعتراض... فقد أقام ارتباطه الوثيق الوحيد في لانجهوا بالدكتور رانسوم، وإن كان يعلم أن الطبيب لا يرضى عنه... وكان مستاء من جيم للإفصاح عن أفكاره صراحة بصدد الحرب، وقوله: إن الناس يبادرون بالنزول على أحطامها وتطبيع أنفسهم مع ظروفها.

ومهما يكن فقد عمد الدكتور رانسوم إلى اختبار جيم في تصريف الأفعال اللاتينية... وعندما اجتاز بنجاح قال له:

- سأحيلك في الدرس القادم إلى مسز فنسنت، فإنها ستساعدك في معرفة المفردات اللغوية... هل تمانع؟

- ليس الآن يا دكتور.. إنني لا أريد منها مساعدة.

ونقل إليه جيم ما يعهده من تقلبات أحوالها، وإن كان قد تكهن بأن الطبيب يساعدها في بعض مشكلاتها النسوية الخاصة... وعلى كل حال فقد تجاوز الدكتور رانسوم عما ارتآه، ووافق على مساعدة جيم في دراسة علم حساب المثلثات... والواقع أنه كان يحب هذا العلم بصفة خاصة، حتى إنه قال للدكتور رانسوم:

- قل لي يا دكتور... إن قاذفات القنابل الأمريكية من طراز الموستانج تطير بسرعة ٣٠٠ ميل في الساعة، فإنني زامنت ظلالها فوق المعسكر بدقات قلبي... وإذا كان لهم أن يصيبوا مطار لانجهوا، فيتعين عليهم أن يلقوا قنابلهم على بعد ألف ياردة من المطار.

- جيم... أنت ربيب الحرب! تصور أن طياري القاذفات يعرفون هذا أيضًا..

فمال جيم في مجلسه إلى الخلف يفكر، وقال:

- ربما لا يعرفون.

- حسن... لا يمكننا أن نقول لهم هذا... أو هل يمكننا أن نقول فعلاً؟ إن هذا يكون إجحافاً للطيارين الأمريكيين... وعلى أي حال فإن اليابانيين يسقطون طائرات أمريكية كثيرة.

فقال جيم مفسراً:

- لكنهم يطلقون المدفعية المضادة وهم فوق المطار، بعد أن تكون الطائرات الأمريكية قد أسقطت قنابلها... لكن إذا أراد اليابانيون منعهم من إصابة المطار، فعليهم أن يطلقوا المدفعية المضادة قبل ذلك بأكثر من ألف ياردة.

والواقع أن جيم كان في حالة انفعال وهو يبدي هذه الفكرة الهندسية، التي لو جرى تطبيقها فوق القواعد اليابانية في كل أنحاء المحيط الهادي، لأدى هذا التكتيك إلى قلب موازين الحرب ضد الأمريكيين، وإنقاذ معسكر لانجهوا من الدمار!

وراح جيم ينقر بأصابعه على المنضدة، مقلدًا ما كان يفعلهُ وهو ينقر على مفاتيح البيانو الأبيض في بيته في أمهرست أفينو.

ولم يلبث الدكتور رانسوم أن قال له وهو يرت برفق على يده فوق المنضدة محاولاً تهدئة انفعاله:

- صحيح.

وغمس قطعة قماش أخرى في ذوب الشمعة، مردفًا:

- ... يحسن الآن أن ندع حساب المثلثات وتذاكر بعض الجبر...
إننا نريد أن تنتهي الحرب يا جيم...

- طبعًا يا دكتور رانسوم.

فعاد الدكتور رانسوم يقول وكان يبدو أكثر الوقت متشككًا:

- هل تريد أن تنتهي الحرب يا جيم؟ إن كثيرًا من الناس هنا لن يبقوا طويلًا على قيد الحياة... وأنت طبعًا متلهف لرؤية أمك وأبيك؟

- نعم... هو كذلك... إنني أفكر فيهما كل يوم.

- جميل... هل تتذكر صورتكما؟

- أتذكر فعلاً.

كان جيم يكره أن يكذب على الدكتور رانسوم، غير أنه كان على نحو ما يفكر في الصور الفوتوغرافية للرجل والمرأة المجهولين التي علقها على حائط مهجعه... إنه لم يعترف أبداً للطبيب بأنه عدهما بديلين لوالديه... فقد عرف أنه من الأهمية بمكان أن تبقى ذكرى أمه وأبيه حية ماثلة، دعماً لثقته في المستقبل، وإن كانت صورتها الحقيقية قد صارت غائمة... وقد لا يقر الدكتور رانسوم أسلوبه في مخادعة نفسه.

- يسرني أنك تتذكرهما يا جيم... ربما يكونان قد تغيرا.

- أعرف هذا... وسوف يكونان جوعانين.

- بل أكثر من جوعانين يا جيم... عندما تنتهي الحرب فعلاً فسوف نجد كل شيء غير ما كان عليه.

- إذن فيجب أن نبقي في المعسكر؟

كان جيم يحب هذه النعمة... إن الكثيرين من الأسرى كانوا يتكلمون عن مغادرة المعسكر دون أي فكرة حقيقية عما قد يحدث لهم... ومضى يقول:

- ... ما دمنا باقين في لانجهوا، فإن اليابانيين سوف يتكفلون بنا.

- لست متأكداً أنهم سيفعلون هذا... إننا أصبحنا عالة عليهم

ومصدر ارتباك لهم... لا يمكنهم أن يطعمونا أكثر من هذا يا جيم...
إذن فهذا ما كان الدكتور رانسوم يوجه الحديث إليه.. لقد شعر
جيم بالتعب ينتابه ويطغى على حواسه... إن الساعات الطوال التي كان
يمضيها في مراكمة السماد البشري، وغرس وري المحاصيل في حديقة
المستشفى، وجر عربة الجراية مع مستر ماكستيد - كل أولئك كان
جزءاً من محاولته لإبقاء المعسكر قائماً... ومع ذلك، وكما كان يعرف
على الدوام، فإن التموين بالطعام كان يعتمد على مزاج اليابانيين... أما
مشاعره الخاصة، وتصميمه على التعلق بالحياة، فلم تكن له قيمة ولا
اعتبار في النهاية... إن نشاطه ومساعيه لم تكن تعني أكثر من اختلاجة
عيني تلك المرأة البلجكية التي بدا وكأنها عادت من الموت.

- هل سيكون هناك مزيد من الطعام يا دكتور رانسوم؟

- نأمل أن يتسرب إلينا بعض الطعام... إن اليابانيين لا يمكنهم بعد
الآن إطعام أنفسهم... الغواصات الأمريكية!

راح جيم يحدق في حذائه اللامع... كان يريد أن تراه أمه وأبوه قبل
موتهما.. وما لبث أن تحامل على نفسه في محاولة منه لاستجماع إرادته
القديمة للبقاء على قيد الحياة... وفكر متدبراً في المسرة الغريبة التي
كان يجدها في رؤية البحث في المقبرة، ولذة الإحساس بوجوده حياً..
وكان يعرف لماذا كان الدكتور رانسوم يكره قيامه بحفر القبور.

وتولى الدكتور رانسوم التأشير له على واجب في كتاب الجبر
وأعطاه صفحتين من ورق الأرز لحل المعادلات الجبرية... وعندما
وقف الرجل أخيراً أخذ حبات الطماطم الثلاث من جيب جيم، ثم

وضعها على المنضدة بجانب صحيفة الشمع ... وقال له:

- هل أخذتها من حديقة المستشفى؟

فرد جيم على تحديق الدكتور رانسوم بمثله وأجاب بصراحة:

- نعم... على أن أعطي بازي شيئاً كلما رأيته.

- أعرف هذا... إنه لشيء طيب أن تكون صديقاً لبازي... هو إنسان

متمسك بالحياة، والمتمسكون بالحياة من طرازه يمكن أن يكونوا

خطرین... إن الحروب توجد من أجل أناس مثل بازي!

ثم وضع الدكتور رانسوم حبات الطماطم في يد جيم قائلاً:

- أريد منك أن تأكلها يا جيم... وسأعطيك شيئاً لبازي.

- يا دكتور رانسوم!

أراد جيم أن يجد كلاماً يطمئن به الطبيب، فمضى يقول:

- ... إذا نحن أخبرنا الجاويش ناجاتا عن مسألة الإصابة من مسافة

ألف ياردة - فإن اليابانيين قد لا يسقطون طائرات أخرى، ولكنهم ربما

يعطوننا بعض الطعام؟

ابتسم الدكتور رانسوم لأول مرة... وفتح دولاب الأدوية وأخرج

من علبة معدنية عازلين ذكرين من المطاط، قائلاً:

- يا جيم... أنت إنسان نفعي... أعط هذين لبازي، وسوف يتحفك

بشيء عنهما... الآن كل حبات الطماطم واذهب.

(٢٦)

فريق لانجهوا التمثيلي

توقف جيم وهو يجتاز ساحة العرض متجهًا إلى المبني السكني (أي) لمشاهدة فريق لانجهوا التمثيلي وهم يقومون ببروفة حفل الكونسير التالي عند مدخل الكشك رقم (٦) ... كان قائد الفريق هو مستر ونتويرث مدير بنك كاثاي السابق الذي كان أسلوبه المسرحي المبالغ فيه يستهوي جيم... إنه كان يستمتع بالأعمال الدرامية التي يقوم بها الهواة الذين يغدون محط الاهتمام في محيطهم هذا... ومرة أدى جيم صفحة في مسرحية هنري الخامس، وهو دور استطابه... وكان الزي الذي أعدته له مسز ونتويرث من المخمل القرمزي هو الرداء اللائق الوحيد الذي لبسه منذ ثلاثة أعوام.

كانت (البروفة) غير ناجحة... فقد وقفت فتيات الكوراس الأربع في الزي التمثيلي فوق خشبة المسرح المتخذة من صناديق تعبئة وهن يحاولن تذكر الأغنيات... وأما النسوة المتفرجات اللاتي كن متأثرات بالغارة الجوية فقد تجاهلن مستر ونتويرث وأخذن يتسمعن إلى

السماء... وعلى الرغم من حرارة الشمس فقد جعلن يدلكن أذرعهن التماسًا للدفع.

ولم يلبث جمهور المتفرجين من الأسرى أن أخذوا ينصرفون تباغًا، ورأى جيم أن يحذو حذوهم ويترك الممثلين لشأنهم.

ومر جيم في طريقه بالمخفر وهو يلقي نظرة فاحصة عجل على المعسكر... كان ليف من الأسرى قد تجمعوا قرب البوابة ينتظرون وصول سيارة النقل العسكرية التي تحمل الجراية اليومية قادمة من شنغهاي... ولم يكن أي إعلان رسمي قد صدر عن إزماع قطع الجراية، ولكن هذا الخبر كان قد انتشر فعلاً في أرجاء المعسكر.

ودلف جيم إلى المبني السكني (أي) وهو عنبر نوم الرجال وصعد السلالم إلى الدور الثالث... وكان الأسرى البريطانيون في هذا المبني يمضون كل وقتهم تقريباً رغم حالة الطقس فوق أسرتهم... وكانت قلة منهم قد اشتدت بهم حمى الملاريا حتى أعجزتهم عن الحركة، فانطرحوا فوق حصر القش غارقين في العرق والبول.. بينما غيرهم ممن كانوا من القوة بحيث يستطيعون المشي راحوا يتسكعون عن كذب منهم وهم يتفحصون أيديهم على مدار الساعات أو يحدقون في الجدران.

إن مشهد هؤلاء الرجال الكامل النضج العازفين عن التعامل مع واقع المعسكر طالما عبر جيم... بيد أنه سرعان ما نفص عنه هذا الإحساس حالما وصل إلى عنبر النوم الخاص بالأمريكيين... كان جيم يميل إلى هؤلاء الأمريكيين ويقر مسلكهم في كل منحى... وكانت

روحه المعنوية تنتعش كلما دخل إلى هذا الركن المنغلق المسالك الذي يشيع فيه مع ذلك جو السخرية من الحياة والتفكه بمفارقاتها.

كانت غرفتان من غرف الفصول التعليمية السابقة مشغولتين بأفراد البحرية التجارية الأمريكية... وكانت الأبواب الفاصلة قد أزيلت واتسعت الغرفة الواحدة ذات السقف العالي لنحو ستين رجلاً... ووقف جيم يسرح البصر في هذا التيه من المهاجع... إن البريطانيين في المبنى السكني (أي) كانوا يعيشون في عنابر نوم مفتوحة، غير أن كل واحد من البحارة الأمريكيين قد أعد لنفسه مهجعاً صغيراً من أي مادة كانت تصل إليها أيديهم: أقمشة بالية، حصر القش، خيزران مضافور... وبين حين وآخر كان لفيف من الأمريكيين يخرجون ويلعبون كرة اليد، ولكنهم كانوا عادة يلزمون مهاجعهم، حيث يسترخون على أسرتهم، ويستضيفون جماعات لا ينقطع توافدها من الفتيات المراهقات والنساء الإنجليزيات العازبات، وحتى قلة من المتزوجات - للتسلية والمنادمة... ويبدو أن الممارسة الجنسية استتبعت فيضاً من الهدايا اعتبرها جيم ذخيرة ثمينة... إن هذا الكنز قد أدخل إلى المعسكر على أيدي البحارة الأمريكيين، وأصبح متداولاً كعملة ثانية: من كتب فكاهية، ونسخ من مجلات (لايف) و (ريدارز دايجست) و (ساترداي ايفنينج بوست)، وأقلام الحبر، وأصابع أحمر الشفاه، ومساحيق التجميل، ومشابك ربطات العنق المطعمة، وقداحات السجائر، وأحزمة السيلولويد وأزرار أكمام القمصان المذهبة - إلى جانب تشكيلة متنوعة من اللعب المثيرة التي استهوت جيم بسحرها ورافتها مثلما كانت تستهويه مقاتلات المoustangs.

- انظروا! هذا جيم فتى شنفهاي!

- يا غلام! إن بازي يكاد يجن بسببك!

- هل تحب أن تلعب الشطرنج يا بني؟

- يا جيم! أنا محتاج إلى ماء دافئ لحلاقة الذقن.

- يا جيم! هات لي (بريمة) وجردل بخار.

- لماذا يجن بازي من أجل جيم؟

وهكذا راح جيم يتبادل التحيات مع الأمريكيين: (كوني) ساحر كرة اليد وعاشق الشطرنج.. (تيتري) الوقاد الطيب والملقب الكتب الفكاهية.. (هيتون)، المضيف البحري والفيلسوف... د، متي، أخصائي المبرقات في منطقة لانجهوا - كانوا جميعًا أفرادًا محبوبين يختصون جيم بالمودعة... ومن أجلهم، وإكرامًا لأمريكا، كان يؤدي لهم خدمات لا تنقطع.

وكان الكثير من المهاجع مغلقًا، إذ كان شاغلوها من البحارة منهمكين في منادمة زائريهم.. أما الآخرون فقد رفعوا ستائرهم حتى يتسنى للبحارة أن يستلقوا على أسرتهم ويتطلعوا إلى الدنيا وهي تتعاقب أمامهم... وكان اثنان من البحارة الأكبر سنًا مصابين بالمalaria، غير أنهم لم يقيموا لهذا وزنًا... وصفوة القول فقد كان شعور جيم هو أن الأمريكيين هم ألطف الناس معشرًا، وليسوا في مثل غرابة واستعلاء اليابانيين، ولكنهم أسمى كثيرًا من البريطانيين المعقدين!

لكن لماذا كان بازي غاضبًا من جيم؟ فكر جيم في هذا وهو يجتاز

المنمشى الضيق بين الستائر المعلقة... وترامى إلى سمعه صوت امرأة إنجليزية من الكشك رقم ٥ وهي تشكو من زوجها، وأصوات فتاتين بلجيكيتين تقيمان مع أبيهما الأرمل في المبنى السكني (ج) وهما تتضحكان بصدد شيء كان يعرض عليهما.

كان مهجع بازي في الطرف الشمالي الشرقي من الحجرة الكبيرة، وبه نافذتان هياتا له مشهداً شاملاً للمعسكر كله.. وكان كعادته جالساً في فراشه، ناظراً بعين إلى الجنود اليابانيين خارج المخفر وهو يتلقى أحدث تقرير من (ريمارست) ساكن المهجع المجاور وتابعه الأول... وكان قميصه القطني الطويل الكمين يبدو باهتاً ولكن ثنياته كانت منتظمة... فقد كان بازي بعد أن يغسل جيم قمصانه ويجففها له، يضعها تحت فراشه فتخرج في النهاية مطوية كما لو كانت تحت المكواة... ولما كان بازي لا يفارق فراشه إلا نادراً فقد بدا في عيني جيم أهدأ حالاً وأوفر نشاطاً من مستر سيكورا، وفي أغلب الأحوال كانت السنوات التي أمضاها في معسكر لانجهوا أخف وطأة عليه مما كانت على هذا القائد الياباني ذاته.

- ادخل يا بني! كف عن التنفس الكثير... إنك بهذا تجعل بازي يشعر بحرارة الطقس!

كان المتكلم هو (ديمارست)، (البارمان) سابقاً، والذي كانت الكلمات تخرج من فمه منسابة دون تحريك شفثيه.

- الفتى على ما يرام!

قالها بازي مومئاً إلى جيم بالجلوس، فيما انسحب (ديمارست) إلى مهجعه المجاور.. وأردف بازي قائلاً:

- ... المشكلة هي أنه لا يوجد هواء يكفيه في لانجهوا كلها! أليس كذلك يا جيم؟

حاول جيم أن يسيطر على نفسه، ورد قائلاً:

- أنت على حق يا بازي... إن طائرات المoustangs أخذت معها كل الهواء... هل شاهدت الغارة الجوية؟

- سمعتها يا جيم.

ونظر بازي إليه مقطباً وكأنه يعده مسؤولاً عن الضوضاء، وأضاف قائلاً:

- ... إن أولئك الطيارين الفلبينيين لا بد أنهم تعلموا الطيران في مدرسة (كوني إيلاند)!

- ... الفلبينيين؟ هل كان الطيارون من الفلبين حقاً؟

- بعضهم يا جيم... هناك سربان يعملان تحت قيادة ماك آرثر... وباقي الطيارين من أطقم (النمور الطائرة) العاملة في قاعدة تشونجكنج. قال بازي هذا وهو يهز رأسه هزة العارف الخبير متوقعاً من جيم تقدير معلوماته الوافرة..

وردد جيم متسع العينين:

- ... تشونجكنج؟!!

وفي الحق أن جيم كان يطرب كثيراً لمثل هذه المعلومات، حتى وإن كان يعرف أن بازي يسبغ عليها لمسات لنفعه الذاتي.. فقد كان ثمة راديو مخبأ في مكان ما في المعسكر، ولم يتمكن أحد من اكتشاف

موضعه، لا لأنه في مخبأ آمن محكم، بل لأن اليابانيين كانوا في حالة ارتباك بسبب المعلومات الزائفة التي كان يزودهم بها الأسرى المتعاونون معهم... وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها جيم فإنه لم يستطع تعقب موضع الراديو، الذي كان يتعطل لفترات طويلة، وعندها كان بازي يزود جيم بنشرات إخبارية من عندياته، تكون فيها تطورات الحرب متوازنة لدى الطرفين... وكان جيم يتظاهر دائماً بتصديق ما يسمع، إذ كان من المهم أن تبقى العلاقات بينه وبين بازي وثيقة.

وقال جيم بعد تفكير:

- هل هناك أخبار أخرى يا بازي؟ متى يقدم الأمريكيون بالنزول في ووسانج؟

غير أن بازي بدا مشغول الفكر... فقد أسند رأسه إلى الوسادة وجعل يحدق في محتويات المهجع وكأنما كانت كل مقتنياته تثقل عليه... وللوهلة الأولى كان المهجع يبدو وكأنه مملوء بالخرق البالية والسلال المضفورة، ولكنه كان في الحقيقة يضم مشتملات متجر عمومي... ففيه مجموعة من أواني الألومنيوم... وتشكيلة من البنطلونات والبلوزات النسائية... ومضارب تنس مختلفة... وعدد من الأحذية غير المتزاوجة... ومجموعات قديمة من مجلات (ريدارز دايجست) و(بوبيولار ميكانيكس)... وكانت هذه وغيرها حصيلة المقايضة، وإن لم يعرف جيم قط ما الذي كان بازي يقدمه في المقابل... فهو مثل الدكتور رانسوم جاء إلى المعسكر خاوي اليدين.

ومن الناحية الأخرى فقد بدا لجيم أن أكثر هذه الأشياء كانت عديمة

النفع... فلم يكن أحد من الأسرى في صحة تمكنه من لعب التنس، وكانت الأحذية مليئة بالثقوب، ولم يكن ثمة طعام يمكن طهوه في أواني الألومنيوم... وكان المضيف البحري السابق، على الرغم من كل دهائه، هو ذاته ذلك الرجل المحدود الأفق الذي التقى به جيم لأول مرة في أحواض إصلاح السفن في نانتاو. ولم تكن مواهب بازي تتسع لأكثر من إمكاناته المتواضعة في السرقة من كل ما حوله... ومن ثم كان جيم يشعر بالقلق لما قد يؤول إليه حال بازي عندما تضع الحرب أوزارها.

ومهما يكن فقد قال بازي أخيرًا:

- لندخل في صميم العمل يا جيم... قمت طبعًا بنصب الفخاخ للبط... فإلى أي مسافة تقدمت؟ حتى الخليج؟

- بل تجاوزت الخليج يا بازي... إلى قرب أرض الرمان القديمة..

- بديع.

- لكنني لم أشاهد أي بط يا بازي... ولا أظن أنه سيوجد شيء منه... فالمنطقة التي وصلت إليها قريبة من المطار ذاته.

- بل توجد طيور يا جيم... لكننا نحتاج إلى تحريك مواضع الفخاخ حتى طريق شنغهاي.

وتطلع إلى جيم بدهاء وهو يضيف:

- ... وفي هذه الحالة سنعمل على وضع شرك خداعي، مثل بطاقة اصطناعية!

- من السهل أن نوجد مثل هذا الشرك الخداعي يا بازي.

فقد تكهن جيم بوجود هذا الشرك الخداعي فعلاً - في شخصه...
إن كل عملية نصب الفخاخ لم تكن أصلاً بقصد صيد البط.. فربما كان
أحد الأمريكيين يخطط لزيارة شنغهاي، فاستخدموا جيم أداة لاختبار
طريق الهروب... والأغلب أن هؤلاء البحارة اتفقوا معاً على لعبة،
وراهنوا فيما بينهم على المدى الذي يمكن أن يبلغه جيم بتقديم مواضع
الفخاخ مسافة بعد أخرى، قبل أن يدركه الحراس اليابانيون برصاصهم
من فوق برج الحراسة! وعلى الرغم من محبتهم لجيم، فهم أهل
للمقاومة بحياته... هذا طبع أمريكي من طراز فريد جداً!

لقد اهتز جيم من فرط التعب، وود لو استطاع أن يتمدد عند ذيل
الفراش... وكان بازي يراقبه مستشرفاً أحواله... ومن النافذة كان
بوسعه أن يبصر جيم وهو يعمل في حديقة المستشفى، وكان ينتظر
أن يأتيه بحبات من الفول أو الطماطم... إذ كان بازي يطلب دائماً هذه
الأطياب... وكان هو أيضاً كريماً بأسلوبه الخاص... فحين كان جيم
أصغر سنّاً كان بازي يمضي الساعات الطوال وهو يصنع له لعباً من
أسلاك النحاس أو رقائق القطن، أو يخيط له أسماكاً من الورق تتدلى
من عائمات مرفرفة في الهواء... وفي عيد ميلاد جيم كان بازي هو الذي
يهديه وحده هدية العيد.

- بازي... إنني جئت لك بشيء.

وأخرج من جيبه العازلين اللذين أعطاهما له الدكتور رانسوم...
فما كان من بازي إلا أن جذب من تحت الفراش علبة بسكويت
صدئة، وعندما رفع غطاءها رآها جيم مملوءة بمئات من مثل هذه

العوازل المطاطية... ذلك أنه بعد نفاد مخزون السجائر، أصبحت هذه العوازل وحدة العملة الرئيسية المتداولة في معسكر لانجهوا... وعلى مدار ثلاث سنوات لم يكذب يتناقص هذا الرصيد، لا لقلة الممارسات الجنسية في لانجهوا، ولكن لقيمة العوازل كوحدات للمعاملات لا يصح تبديدها في أغراض تافهة... وكان البحارة الأمريكيون في لعبهم للبوكر يستخدمون أكوامًا من العوازل بدلًا من (فيشات) اللعب... وكان من عوامل السخرية كما سمع جيم من الدكتور رانسوم أن قيمة العوازل استمرت في الصعود حتى على الرغم من أن أغلب الأسرى في المعسكر كانوا في حالة عجز أو عقم جنسي.

وتولى بازي فحص العوازل متشككًا في صلاحيتها، قائلاً:

- من أين جئت بها يا جيم؟

- هي جيدة يا بازي... إنها من أحسن نوع.

- أهكذا هي؟ لعلك ألقيت نظرة في درج الأدوية الخاص بالدكتور رانسوم؟

- لم يكن فيه أي طماطم يا بازي.. إن الغارة الجوية أتلقتها.

- يا لأولئك الطيارين الفلبينيين! لا بأس.. كلمني عن درج أدوية الدكتور رانسوم... فيه أدوية كثيرة كما أظن؟

- فيه أدوية مثل البيود والمركروكروم.

أما الواقع فإن الدرج كان خلواً من أي أدوية، وإنما راح جيم يتذكر دولاب الأدوية الذي يضمه حمام أبيه وما كان يحتويه من المسميات الغريبة التي يستخدمها الرجال مما يسمونه الهرمونات ومشتقاتها...

وقبل أن يردد ما علق بذاكره منها قال له بازي:

- أراك تعبت الآن يا جيم... تمدد قليلاً... ووضع بازي ذراعه حول كتفي جيم وأخذ الاثنان ينظران من النافذة إلى الأسرى المتجمهرين في انتظار سيارة التموين القادمة من شنغهاي بعد أن فات موعداها... ستأكل كثيراً عما قريب... انس كل ما يقال عن قطع اليابانيين للتموين.
- إنهم قد يفعلونها يا بازي... نحن مصدر مضايقة لهم.

- مضايقة؟ إن الدكتور رانسوم هو الذي يضايقك بمثل هذه الكلمات... صدقني يا جيم: إننا أصغر شأناً من أن نضايق اليابانيين.
ومد يده إلى ما تحت الوسادة وأخرج حبة بطاطا صغيرة قائلاً:

- كل هذه ريشما أفكر في المهمة التالية لك.. وعندما تفرغ سأعطيك نسخة من مجلة (ريدارز دايجست) لكي تأخذها معك إلى المبنى السكني (ج).

- شكراً لك يا بازي.

وأخذ جيم يلتهم حبة البطاطا... كان يحب ارتياد مهجع بازي... وكان تنوع المقتنيات فيه رغم زهادتها يثبت الطمأنينة في نفسه، بنفس القدر الذي كانت تبثه دروس اللاتينية والجبر من قبل الدكتور رانسوم... كان فيهما الكثير من بواعث الطمأنينة والثقة في المستقبل.

وقد صدق ما تنبأ به بازي... فبينما كان جيم يلحق أصابعه بعد التهام لب حبة البطاطا مدخراً قشرتها للمساء - أقبلت السيارة العسكرية من شنغهاي حاملة تموين الأسرى.

(٢٧)

الإعداد

وقف جنديان يابانيان بالسونكي المشهر خلف مقصورة القيادة في سيارة النقل العسكرية ونصفهما الأسفل غائص بين أكياس البطاطا والقمح المجروش... ومع ذلك استطاع جيم وهو يطل من نافذة بازي أن يرى أن التموين قد خفض إلى النصف... وقد سر بوصول بعض الطعام، غير أنه شعر في نفس الوقت بخيبة أمل... وأخذت عدة مئات من الأسرى تتبع السيارة شطر المطابخ وأيديهم في جيوب بنطلوناتهم القصيرة المهلهلة. والبقايب في أرجلهم ترن على الأرض.. ترى كيف كانوا يتصرفون لو أن السيارة كانت خاوية؟ لم يكن بين هؤلاء الأسرى، حتى الدكتور رانسوم نفسه، من كان يستطيع أن يستجمع عزمه تأهبًا للمراحل الأخيرة للحرب... إن جيم ليكاد يرحب بالجوع في سبيل أن تكتحل عيناه مرة أخرى برؤية طائرات المoustang، بأضوائها الغريبة.

ومن حوله كان الأمريكيون يخرجون من مهاجمهم ويتزاحمون على النوافذ... وبدأ (ديمارست) وهو يشير إلى أعمدة دخان كانت

ترتفع من مناطق الأرصفة البحرية شمالي شنغهاي... وعلى الرغم من أنها كانت تبعد أكثر من عشرة أميال، فقد كان بوسع جيم أن يسمع أصداً عميقة لقصف القنابل وهي تتفجر... وكانت التموجات الصوتية التي تهز النوافذ بمثابة إنذار نهائي لأسرى معسكر لانجھوا المتململين. وراح جيم يلتمس بين سحب الدخان علامات للطائرات الأمريكية... وبدأ له أن الطائرات اليابانية المرابطة في مطار لانجھوا لم تصعد واحدة منها لاعتراض أي طائرات مغيرة..

- هل الطائرات الأمريكية المهاجمة من نوع «ب-٢٩» يا بازي؟
- هو ذاك يا جيم... أو قاذفات (السوبر فورتريس)... ولها قدرة على الطيران الطويل من قاعدة (جوام).
- من جوام يا بازي!؟

لقد بهر جيم وهو يفكر في قدرة هذه القاذفات ذات المحركات الأربعة على القيام بتلك الرحلات الطويلة عبر المحيط الهادي، لكي تقصف أحواض ميناء شنغهاي، حيث كان يمضي ساعات طوَّالاً سعيداً وهو يلعب ويرتع... كانت القاذفات «ب-٢٩» تثير عنده الرهبة والانبهار... وكانت تحلق عادة فوق المدفعية المضادة اليابانية بمنأى عن نيرانها... ولكن منذ يومين شاهد جيم إحدى طائرات (السوبر فورتريس) هذه وهي تعبر حقول الأرز إلى الغرب من المعسكر بارتفاع لا يزيد على خمسمائة قدم من سطح الأرض... وكان اثنان من محرقاتها قد اشتعلت فيهما النيران، غير أن مشهد القاذفة العملاقة ذات الذيل المرتفع المقوس أقنع جيم بأن اليابانيين قد خسروا الحرب...

وكان قد رأى ملاحين جويين أمريكيين أسرى اعتقلوا مدى ساعات معدودة في مخفر لانجهوا... وإنما كان مبعث انبهاره الشديد هو أن تلك الطائرات الجبارة البالغة التعقيد تعودها رجال من أمثال -كونو- وتيتري- ودينتي- ممن هم في عداد الأسرى.

وقال له بازي وقد رأى صدره يخفق انفعالاً بتأثير خواطره تلك:

- هون عليك يا فتى... إنهم بعيدون جداً عن لانجهوا... وسترهق نفسك بغير لزوم.

- أنا على ما يرام يا بازي... إن الحرب توشك على النهاية... أليس كذلك؟

- هو ذاك... ومع ذلك لا تستعجل نهايتها... والآن دعنا نلتفت إلى أعمالنا.

وعلى مدار الساعة التالية انهمك جيم في أداء التكاليفات التي حددها له بازي... كان هناك أولاً الماء يجلبه من البركة القائمة خلف المخفر... وعندما عاد بالدلو إلى المبنى (أي) أخذ في جمع الوقود لإشعال الموقد... فقد كان بازي لا يزال مصراً على غلي ماء الشرب، وإن كان نقص الوقود قد جعل هذه المهمة عسيرة... ومهما يكن فبعد إتمام غلي الماء وضع قدرًا منه في وعاء وصعد به إلى مهجع بازي ووضعته على حافة النافذة لكي يبرد... ثم جمع ملابس بازي وغسل القمصان المتسخة في الماء المتبقي ونشرها لكي تجف في فترة وقوفه في الطابور للمجيء بجراية بازي... وكان الرجال من الأسرى في المبنى (أي) هم آخر من يحصلون على الجراية كل يوم، وقد اصطفوا لدى المطابخ...

وكان جيم يطيب له دائماً الانتظار الطويل للحصول على جراية بازي من البطاطا والقمح المجروش، إذ كان يعد هذا دلالة على اندماجه في سلك الرجولة وفي عالم الرجال... وكانت صفوف الأسرى العارقين الذين تملوهم التقرحات ولدغات البعوض تثير النفور، ومن ثم فهم جيم لماذا كان الحراس اليابانيون يتباعدون عنهم... ثم كانت أحاديثهم البذيئة بعيدة عن مداركه، خصوصاً عباراتهم الفجة اللاذعة عن أجسام النساء وعوراتهن، وكأن أولئك الذكور الهزالي كانوا يحاولون استشارة مشاعرهم بوصف ما لا يستطيعونه!

وعندما عاد جيم في النهاية إلى المبنى «أي» ومعه قمصان بازي وجرايته شعر بأن من حقه أن يجلس عند حافة فراشه، وأخذ يراقبه وهو يأكل القمح المجروش مطوَّحاً بالسوس هنا وهناك... وقال له بازي:

- إننا عملنا عملاً شاقاً اليوم يا جيم... وإن والدك يمكن أن يفخر بك... قلت في أي معسكر كان هو؟

- معسكر سوشوا المركزي... وأمي أيضاً... سيكون لك أن تلتقي بهما قريباً.

وكان جيم يريد أن يكون بازي حاضراً عند التئام شملهم، حتى يتسنى أن يؤكد هوية جيم لوالديه إذا أخفقا في التعرف عليه.

فقال بازي:

- بودي أن ألتقي بهما يا جيم - إذا لم يكونا قد نقلنا إلى مكان آخر..

استرعت نبرات صوت بازي انتباه جيم، فقال:

- ... مكان آخر؟

- حسن... هذا ممكن يا جيم... قد يعمل اليابانيون على نقل الناس من المعسكرات القريبة من شنغهاي.

- سوف تكون الحرب قد انتهت وقتها؟

- نعم، وستكون أنت بعيدًا عن الحرب، ما في ذلك شك.

وأخفى بازي حبة البطاطا بين الأواني تحت سريره... وأخذ يفتش بين الأحذية ومضارب التنس حتى أخرج نسخة من مجلة (ريدارز دايجست)، فأخذ يقلب صفحاتها المتسخة المبقعة التي قرأها عشرات المرات نزلاء المبنى (أي) وقال له:

- يا جيم! هل ما زلت تقرأ هذه المجلة؟ عدد أغسطس عام ١٩٤١... إنه يحتوي على موضوعات مفيدة.

كان بازي يتلذذ بكل مشاعر الانفعال التي تعترى جيم... وكانت هذه الإثارة العائدة هي جزء من أسلوبه في هذا الشأن... وكان جيم ينتظر صابرًا، مدرّكًا تمامًا أن بازي يستغله، بما يعتمد إليه من تشغيله كل يوم في مقابل الحصول على المجلات القديمة، خصوصًا مجلات (لايف) و(كوليرز) التي كان جيم مشغوفًا بها إلى أقصى حد شغفه بحبات البطاطا الإضافية التي كان يتحفه بها بازي... كانت المجلات زائدًا طيبًا يغذي خياله المنهوم.

لقد كانت هذه المقايضة غير المتكافئة، مقايضة المجلات بتكليفات العمل، هي أيضًا جزء من الصمود الذي التزمه جيم لاحتمال الحياة في

المعسكر، مهما كان الثمن... كانت أنشطته تلك تدرأ عن عقله مخاوف كان يحاول كبتها، وهي أن تؤذن سنوات إقامته في لانجهوا بالنهاية، فيواجه تشغيله في بناء مدرج الطائرات من جديد... وما دام يؤدي التكاليفات لحساب بازي وسمارست وكوني فيما بين المطابخ ذهاباً وعودة، وحماً للحياة والملاعبة بالشطرنج - ففي هذا إحياء للنفس بأن الحرب مستمرة إلى النهاية، وما أضيق العيش لولا نسمة الأمل!

* * *

جلس جيم على الدرجات خارج المبنى (أي) ويده مجلة (ريدارز دايجست).. كانت أشعة الشمس تزيع بصره فيضطر إلى الكف عن تصفح المجلة.. وكانت جماعات الأسرى تتسكع في الشرفات بعد تناول وجبة الطعام... وكانت الظلال بين الأعمدة مقصورة على المرضى، الذين جلسوا القرفصاء معاً مثل جماعات المتسولين الذين كانوا يرابطون خلف المباني المكتبية في شنغهاي.

وكان بجوار جيم شاب كان رئيساً لأحد الأقسام في متاجر (سنيسي) الكبرى في شنغهاي، وهو الآن في المراحل الأخيرة من حمى الملاريا، حتى بدأ يرتعد وهو جالس على الدرجات الأسمنتية عارياً متجهاً بنظره إلى فريق لانجهوا النسائي التمثيلي وهن يؤدين (البروفة)... وبدأ لجيم أن يساعد هذا الهيكل العظمي بما يخفف عنه قليلاً، فقدم إليه نسخة المجلة، وسرعان ما ندم على مبادرته تلك... فقد أطبقت أصابع الشاب على المجلة وهصر صفحاتها هصرًا وكأن الكلمات المطبوعة أضرمت نيران ذكرياته... وفي نفس الوقت تحدر منه البول حتى سال بين قدميه

وهو يلقي المجلة، ولولا أن أسرع جيم بالتقاطها لغرقت... وفجأة سمع جيم صوت صفارة الإنذار بغارة جوية صادراً من المخفر... ولكن بعد ثوان معدودة وقبل أن يندفع الأسرى للاحتماء، توقفت الصفارة، وراح الجميع يحملقون إلى السماء الخالية، متوقعين أن تهدر طائرات الموستانج آتية عبر حقول الأرز.

كانت صفارة الإنذار تنبئ بشيء آخر مختلف تماماً... فقد برز من المخفر أربعة جنود يابانيين بينهم النفر كيمورا وهم ملتفون حول حمال صيني يجر عربة (ريكشة) أقلت أحد ضباطهم من شنغهاي... وكان الحمال لا يزال مكدوداً من رحلته الراكضة الطويلة، حتى راح يجر قدميه المتعلتين للصندل القش جراً أليماً وقد نكس رأسه وهو يسحب ذراعي الريكشة ولاحت عليه علامات الجزع.

ولم يكن الجنود مسلحين وهم يمضون بالحمال ولكنهم كانوا يحملون عصياً أخذوا يضربون بها العجلات وينهالون بها على كتفي الحمال حتى أوقعوا الريكشة وانكفأ الرجل على الأرض... ووقف مئات الأسرى حول ساحة العرض يراقبون ما يجري دون أن يتحركوا في أماكنهم... ومضى الجنود يوجهون ضرباتهم إلى الريكشة حتى حطموها تحطيماً، وإلى الحمال حتى أسالوا دمه وهو خانع بين أيديهم. وأخذ جيم يسوي صفحات المجلة وهو يتساءل في نفسه هل يقرأ أو يبرح هذا المكان... غير أن كل من كانوا حوله من الأسرى ظلوا وقوفاً يراقبون ما يجري دون أن يحركوا ساكناً، حتى بعد أن تدفقت دماء الحمال من تأثير الضربات المتلاحقة على رأسه بالعصى دون هواده..

كان جيم يعرف أن الجنود سيقتلون الحمال في غضون عشر دقائق... وعلى الرغم من أنهم كانوا في حالة ارتباك بسبب القصف الجوي واقترب نهاية الحرب، إلا أنهم كانوا الآن أقرب إلى الهدوء... وكانت هذه المظاهرة كلها تستهدف تعريف الأسرى البريطانيين بأن اليابانيين يحتقرونهم، أولاً لكونهم أسرى، وثانياً لأنهم لم يجسروا على التقدم قيد أنملة لإنقاذ الحمال الصيني.

لقد أدرك جيم أن اليابانيين كانوا محقين في تقديراتهم... كانوا موقنين أن أحداً من الأسرى البريطانيين لن يجرؤ على رفع إصبعه اعتراضاً أو احتجاجاً، حتى لو ضرب عشرات من أمثال الحمال حتى الموت أمام أبصارهم... وظل جيم يسمع الضربات تنهال على الحمال والدماء تسيل غزيرة من رأسه وصرخاته المكتومة محتبسة في حلقه... وربما كان الدكتور رانسوم يحاول وقف هذا العدوان لو أنه كان حاضراً، لكن الطبيب كان حريصاً على الابتعاد عن ساحة العرض.

فكر جيم في مسألة الجبر التي يتعين عليه حلها، وإن كانت عقدتها قد بدت له سهلة... وبعد عشر دقائق عاد اليابانيون إلى المخفر، فانفضت جموع الأسرى عائدين أدراجهم، واستأنفت فتيات الفريق المسرحي إتمام بروفتهن، فما لبث جيم أن دس نسخة المجلة في صدر قميصه وعاد إلى المبني (ج) سالكاً طريقاً آخر.

وفي المساء أتى جيم على ما بقي من حبة البطاطا التي نالها من بازي، ثم انطرح على فراشه في النهاية وفتح المجلة... لم يجد فيها إعلانات، وهو ما عده جيم قصوراً فاضحاً، لكنه استعاض عن الإعلانات بالنظر

إلى صورة سيارة الباكار الفارحة المثبتة على حائط مهجعه... وسرى إلى سمعه حديث الزوجين فنسنت الهامس، وصوت سعال ابنهما العليل... وكان جيم حال عودته من المبني (أي) قد وجد هذا الغلام يلعب على الأرض بالسلفاة... وعند ذاك حدثت مواجهة بين جيم ومستر فنسنت الذي حاول منعه من رد السلفاة إلى علبتها تحت فراشه... بيد أن جيم صمد أمامه، مؤقتاً أن مستر فنسنت لن يقوى على مصارعة... وراحت مسز فنسنت تنظر أمامها ساهمة بعد أن جلس زوجها في الفراش يحدق إلى قبضتي جيم المتحفزتين وهو مغلوب على أمره.



(٢٨)

هروب

- هل انتهت الحرب مرة أخرى يا مستر ماكستيد؟

فيما وقف جيم ينتظر قرب أبواب المطبخ، كان الأسرى في كل مكان حوله يدفعون عربات الجراية وهم يصيحون ويشيرون إلى البوابات... وكانت صفارة الأمان قد دوت عبر المعسكر، كنواح طائر مهيب يحاول الاختفاء من القاذفات الأمريكية... ووقف الأسرى متشابكي الأذرع على المناكب يراقبون الجنود اليابانيين وهم يغادرون المخفر وقد حمل كل فرد من الثلاثين بندقيته ذات السونكي المشرع وكيس حاجياته الشخصية، بالإضافة إلى مجموعة من حصير القش ومضارب كرة البيسبول وجرامفون حصلوا عليها من الأسرى في مقابل سجناء وطعام وأخبار الأقارب في المعسكرات الأخرى.

وعلى أي حال فقد رد مستر ماكستيد على استفهام جيم قائلاً وهو يحك بشرة صدره المتهرئة:

- الظاهر يا جيم أن أصحابك هؤلاء راحلون... إنني سأحتفظ لك بمكانك هنا إذا أردت أن تودع النفر كيمورا.

- هو يعرف عنواني يا مستر ماكستيد... إنني لا أحب مراسم الوداع!
ويحتمل أنهم سيعودون آخر النهار عندما لا يجدون مكاناً يذهبون إليه.
وما لبث جيم، نفوراً من التخلي عن مكانه على رأس طاوور المطبخ
حيث ظل هو ومستر ماكستيد ينتظران منذ الفجر - ما لبث أن اعتلى
عربة الجراية، وراح يراقب من فوق رؤوس الأسرى الجنود اليابانيين
وهم خارجون من بوابة المعسكر... ثم رآهم يصطفون على الطريق
مولين ظهورهم إلى حطام طائرة يابانية قادمة في حقل الأرز على مسافة
مائة ياردة... كانت طائرة من ذات المحركين، وقد هاجمتها منذ يومين
وهي تقلع من مطار لانجهوا مقاتلات أمريكية من طراز (لايتننج) في
غاراتها المباغثة.

ولمح جيم وهو يوازن موقفه فوق عربة اليد النفر كيمورا يتطلع
قلقاً إلى الأفق الشرقي من حيث كانت الطائرات الأمريكية تنبلج فجأة
وكأنها فلق الشمس... وعلى الرغم من حرارة شمس أغسطس فقد بدا
وجه كيمورا أبيض كالشمع، وكأنما يخامرهُ القلق والعصبية لمفارقة
دنيا الأمان في معسكر لانجهوا... وفيما أمامه كانت جماعات الفلاحين
الصينيين جالسين فوق منطقة الحشائش خارج الأسلاك الشائكة،
محدثين في البوابات التي طالما صدتهم عنها خلال الشهور المتعاقبة
والتي كانت الآن بلا حراسة... وكان جيم موقناً أن هؤلاء الصينيين
المتضوئين جوعاً عاجزون في غمرات مونغم الوشيك المحتوم عن
إدراك معنى وجود البوابات مفتوحة بغير حراسة.

وفي الحق أن جيم ذاته وجد من العسير عليه وهو يستشرف كل هذا أن يتقبل فكرة إمكانية خروجه هو أيضًا من البوابة إلى رحاب الحرية... ثم وقع نظره على الجندي القائم في برج الحراسة يهبط السلم إلى سقف المخفر... ثم ظهر الجاويش ناجاتا من المخفر وانضم إلى رجاله خارج المعسكر.. فمئذ اختفاء قائد المعسكر في فوضى الأسبوع السالف غدا الجاويش ناجاتا هو الأكبر رتبة في سلك القيادة بالمعسكر.

قال جيم لصاحبه:

- يا مستر ماكستيد... الجاويش ناجاتا ذاهب... الحرب قد انتهت!

- انتهت مرة أخرى يا جيم؟ أظن أنه لا يمكننا احتمال هذا!

قال مستر ماكستيد هذا متأثرًا بما حدث في الأسبوع الماضي، عندما اكتسحت شائعات انتهاء الحرب أرجاء المعسكر وظلت تتردد كل ساعة... وقتها لم يطق مستر ماكستيد أن يحتمل مظاهر ارتفاع الروح المعنوية من جانب جيم.. ففي خلال جولاته المتكررة في طرقات المعسكر للقيام بأنشطته المتعددة، راح جيم يصيح هاتفًا أمام كل من يصادفه، ملوحًا للأسرى الجالسين على عتبات أكشاك الثكنات، متوثبًا بين المدافن في مقبرة المستشفين عندما كانت الطائرات الأمريكية تحلق فوق الرؤوس - ولم يكن كل أولئك سوى جزء من محاولة ستر عوامل القلق وهواجس التظنن والارتياح لقرب مواجهة العالم المجهول فيما بعد المعسكر... بل إن الدكتور رانسوم ذاته لطمه مرتين وهو يرى منه ذلك.

ومع هذا فإنه لم يلبث وهو يلمس الآن نهاية الحرب أن انحاز إلى الهدوء على نحو غريب... فعما قريب سيرى أمه وأباه، ويعود إلى

بيته في أمهرست أفينو، وإلى العز القديم المنسي الذي قوامه الخدم والحشم وسيارات الباكار وأرضيات الباركيه... وفي نفس الوقت بدا لجيم أن الأسرى ينبغي لهم أن يحتفوا فيطوحوا ببقاقيهم في الهواء ويستولوا على صفارة الإنذار ويطلقوها أماناً لعودة الطائرات الأمريكية الوشيكة... بيد أن أكثرهم كانوا أشبه بمستر ماكستيد، يحدقون صامتين في اليابانيين... كانوا يبدون واجمين حذرين، رجالهم عراة في بنطلوناتهم القصيرة المهلهلة، ونساؤهم في جلابيهن القطنية الكالحة الحائلة، وأعينهم جميعاً التي مستها الملاريا لا تقوى على مواجهة وهج الحرية... وفي وقوفهم معرضين للضوء الذي كان يغمر المعسكر، بدت أجسادهم وهي أشد سمرة وهزالاً، ولاح لأول مرة كأنهم متأثمون من جريمة.

كانت الشائعات والبلبل قد أضنت كل إنسان في لانجهوا... ففي خلال شهر يوليو غدت الغارات الجوية الأمريكية شبه مستديمة، وكانت موجات من طائرات الموستانج ولاينتج تحلق قادمة من القواعد الجوية في جزيرة أوكيناوا، مكتسحة المطارات القائمة حول شنغهاي، ومهاجمة القوات اليابانية المتمركزة لدى مصب نهر يانجتسي... ولخشية اليابانيين من طائرات الموستانج، كانت قوافلهم لا تتحرك إلا بعد الغسق، وكان هدير الطائرات يجعل الجميع أيقاظاً ليلة بعد ليلة... وتوقف الجاويش ناجاتا وأفراد حرسه عن كل محاولة للقيام بالدوريات في دائرة المعسكر خوفاً من إطلاق النار عليهم من جانب البوليس الحربي المشرف على القوافل.

وبحلول آخر يوليو كانت مقاومة اليابانيين للقاذفات الأمريكية قد توقفت أو كادت.. وفي هذه الأيام الأخيرة للحرب كان جيم يقضي الساعات في مبنى الجمعية العمومية المخرب، منتظرًا رؤية القاذفات من طراز «سوبر فورتريس» التي تطير على ارتفاعات شاهقة، والتي طالما استهوت خياله بلمعان هياكلها وأجنحتها الفضية... كانت هذه الطائرات تظهر في السماء فوق رأسه دون سابق نذير، وكأنما ابتعتها فجأة عقله المنهوم.. وكان هديرها المتجاوب يتقدم عبر اليابسة صادرًا من مناطق أحواض السفن في نانتاو.

كان توزع المشاعر وتراوح الولاءات نتيجة الخوف مما قد يحدث للأسرى متى تحققت هزيمة اليابانيين - كان ذلك يؤثر تأثيرًا بالغًا في نفوس كافة من في المعسكر... وكثيرًا ما كانت تتصاعد الهتافات من الأسرى المذهوبي التفكير المقرفين خارج أكشاك الثكنات كلما أبصروا طائرة «ب - ٢٩» تهوي من داخل التشكيل... وكان الدكتور رانسوم على حق فيما تنبأ به من أن التموين المقرر للمعسكر لا بد أن ينتهي عاجلاً... فمرة واحدة في الأسبوع كانت سيارة نقل وحيدة تصل من شنغهاي وليس بها سوى أكياس قليلة من البطاطا المتخمرة مختلطة بأكل البهائم والسوس وفضلات الفئران... وسرعان ما كان ينشب القتال بين الأسرى وهم يصطفون للحصول على نصيبهم الضئيل من الجريحة... وقد ضاق لفيف من البريطانيين من المبنى «أي» بما رآوه من مرابطته طوال اليوم لدى أبواب المطبخ، فدفعوه جانبًا وقلبوا عربيته الحديدية.. وبعدها راح جيمس يلتمس مساعدة مستر ماكستيد، وما

زال يلح على هذا المهندس المعماري السابق حتى حمله على مغادرة فراشه ومزاملته في طلب القوت.

وفي غضون الأسبوع الأخير من شهر يوليو أخذ الاثنان يراقبان طريق شنغهاي معاً، مؤملين ألا تستهدف سيارة التموين لهجوم إحدى طائرات الموستانج من ارتفاع منخفض.. وخلال تلك الأيام الموسومة بالجوع اكتشف جيم أن أغلب الأسرى في المبنى «ج» قد عمدوا بهدوء إلى ادخار احتياطي يسير من البطاطا، وأنه هو ومستر ماكستيد الذي تطوع لأخذ الجراية اليومية، كانا بين الأقلية التي لم تنل نصيبها الكافي من الطعام.

وهكذا جلس جيم على فراشه وبين طبقه الخاوي يراقب الزوجين فنسنت وهما يتشاطران قطعة بطاطا معطنة.. وذهما يقضمان قلبها بأسنانهما المصفرة... وفي النهاية أعطته مسز فنسنت قطعة صغيرة من قشرتها... فهل خافت أن ينقض جيم على زوجها؟ من حسن حظ جيم أنه كان ينال غذاءه من الرصيد المتواضع الذي كان الدكتور رانسوم يجمعه من المتوفين من مرضاه.

ثم انقطع بحلول أول أغسطس ورود حتى تلك المقادير الضئيلة... وراح جيم ومستر ماكستيد يطوفان بأرجاء المعسكر بعربتهما وكأنما يعللان النفس بالعثور على قدر من الأرز أو القمح المجروش ملقى بمعجزة تحت أعمدة خزان المياه أو بين المدافن في المقبرة.

وفي تلك الأيام آنس جيم خواء غريباً يطبق على المعسكر... وتوقف الزمن في أرجاء لانجهوا... واقتنع أكثر الأسرى بأن الحرب قد

انتهت فعلاً... وفي اليوم الثاني من أغسطس عقب شائعة دخول روسيا الحرب ضد اليابان انسحب الجاويش ناجاتا مع جنوده إلى المخفر وكفوا عن القيام بدوريات حول المعسكر، تاركين المعتقل لنزلائه... وقام لفيف من الأسرى البريطانيين باجتياز الأسلاك الشائكة والتجوال في حقول الأرز المجاورة... وتجاوز آخرون هذه المنطقة متوين السير إلى المدينة.. ومنهم من تجمعوا حول المخفر وراحوا يسخرون من الجنود اليابانيين الذين جعلوا يراقبونهم من نوافذهم.

وطيلة النهار آنس جيم انهيار النظام في المعسكر... وكره أن يعتقد أن الحرب قد انتهت... ولم يلبث أن تسور الأسلاك الشائكة وأمضى بعض الوقت بين فخاخ البط، ثم عاد إلى المعسكر وجلس وحيداً في شرفة مبني الجمعية العمومية المخرب... وعندما تمالك جأشه ذهب للبحث عن بازي.. غير أن البحارة الأمريكيين لم يعودوا يستضيفون زائريهم من السيدات، وسدوا أبواب عنابر النوم... ثم نادى بازي من نافذته جيم وحذره من مغادرة المعسكر.

لكن الحق أن مقولة انتهاء الحرب لم تعش طويلاً... فعند الغسق مر بالمعسكر طابور مدرع من الجنود اليابانيين في طريقهم إلى هانجشاو... وأعاد البوليس الحربي البريطانيين الستة الذين حاولوا الاتجاه إلى شنغهاي سيراً على الأقدام بعد أن أشبعوهم ضرباً حتى لقد ارتموا غائبين عن الوعي على عتبة المخفر ثلاث ساعات بأسرها... وعندما سمح الجاويش ناجاتا بنقلهم إلى مضاجعهم راحوا يصفون القوضى الفاشية في المناطق الجنوبية والغربية من شنغهاي، والألوف

المؤلفة من الفلاحين اليائسين وهم يردون على أعقابهم إلى المدينة في غمار اليابانيين المتقهقرين وعصابات قطاع الطرق والجنود الجياع من الجيوش الصينية العميلة التي تركت وشأنها لتدبير أمورها.

وعلى الرغم من هذه المخاطر، ففي نفس اليوم التالي هرب من معسكر لانجهوا كل من بازي وديمارست وكوني.

تزامم الأسرى حول المخفر الخاوي وأحذيتهم الخشبية تدق على الطريق الحجري... وعلى الرغم من تدافع هؤلاء الرجال شبه العراة فقد صمد جيم متشبثاً بذراعي عربته الحديدية... وكان الكثيرون قد تخلوا عن عرباتهم، بيد أن جيم صمم ألا يتزحزح من مكانه إذا جاءت سيارة التموين... فهو لم يأكل منذ بعد ظهر أمس - وبرغم أن الأسرى كانوا على وشك السيطرة على المخفر، فهو لم يستطع أن يفكر في شيء سوى القوات.

وقفت جماعة من النساء البريطانيات والبلجيكيات قرب البوابة تنادين من خلال الأسلاك الشائكة على الجنود اليابانيين المصطفين في الطريق، أولئك الذين أرهقتهم أحمالهم من البنادق ولفائف الفرش في قيظ أغسطس ووقدة شمسهم.

وبدا النفر كيمورا وهو يحرق بلا مبالاة في حقول الأرز المهجورة وكأنما يود لو عاد إلى الأمان والاستقرار في حمى المعسكر.

وانتهزت النساء هذه الفرصة لنفث غضب السنين المكثوم على حراسهم السابقين، فأخذن يبصقن في اتجاههم من خلال الأسلاك الشائكة صائحات هازئات.

أما جيم فقد استمر متشبهاً بذراعي عربته، نائياً بنفسه عن النساء الباصقات وأزواجهن المنفعلين... ولقد راح يسائل نفسه: ترى أين بازي؟ ولماذا هرب؟ وعلى الرغم من شائعات نهاية الحرب، فقد أدهش جيم أن يعمد بازي إلى مغادرة لانجهوا ويعرض نفسه لكافة المخاطر التي يعج بها الإقليم... إن ذلك المضيف البحري كان مثال الحذر، ولم يكن أول من يحاول شيئاً جديداً أو يجازف بأمنه وسلامته... وقد خطر لجيم أن بازي ربما سمع رسالة تحذير عن طريق الراديو السري... فقد هجر مهجعه حاملاً معه كل ذخيرته التي جمعها على مدار السنين من الأحذية ومضارب التنس ومئات عوازل المطاط.

لقد تذكر جيم أن بازي تحدث عن احتمال نقل نزلاء المعسكرات القريبة من شنغهاي إلى داخلية البلاد... فهل كان يقصد تحذيره بأن الوقت قد حان للابتعاد قبل أن يتقهقر اليابانيون بغير انتظام كما فعلوا في نانلنج عام ١٩٣٧؟ لقد اعتادوا قتل أسراهم قبل الانتقال إلى مواقع جديدة للصمود... لكن بازي كان مخطئاً، ولعله في هذه اللحظة ممدد صريع في خندق بعد أن اغتاله قطاع الطرق!

وعندما بدت أضواء على طريق شنغهاي ارتدت النساء عن منطقة الأسلاك الشائكة... ولاحت سيارة عسكرية يابانية تقترب، تتبعها قافلة من سيارات النقل الحربية مكتظة بالجنود المسلحين... وقد توقفت إحداها ووثبت منها سرية من الجنود إلى الطريق جرى أفرادها عبر الحقول قريباً من الحد الغربي للمعسكر، حيث اتخذوا مواضعهم في مواجهة الأسلاك شاهري السونكيات.

ولم يلبث مئات الأسرى الذين عمهم السلوك أن استداروا

لمراقبتهم... وبدأت سرية أخرى من شرطة سلاح الطيران راحت تخوض القناة الفاصلة بين المعسكر ومطار لانجهوا.. وفي الجانب الشرقي كان المنحني الطويل لنهر هوانجيو يكمل الدائرة بسلسلة متصلة الحلقات من الخلجان والمصارف المائية.

وعندما وصلت القافلة أخذ الجنود المسلحون يتواثبون إلى الأرض مشرعي السونكيات في بنادقهم... واستطاع جيم من رؤية ملابسهم العسكرية الجديدة وعنادهم المرتب أن يعرف أن قوات الأمن هذه هي وحدات ميدانية خاصة من الشرطة اليابانية... وقد تقدموا مسرعين من خلال البوابة واتخذوا مواقعهم خارج المخفر.

وعندئذ ارتد الأسرى وهم يصطدمون بعضهم ببعض مثل قطع من الأغنام... وانحشر جيم في هذا الارتداد غير المنظم وسقط من عربته بتضاغط الأجسام... وظهر رقيب ياباني قصير قوي البنية يتدلى من وسطه مسدس موزار في جرابه، فأمسك بذراعي العربة ودفعها شطر البوابة... وقد هم جيم أن يندفع وينتزع ذراعي العربة من الياباني، غير أن مستر ماكستيد قبض على ذراعيه قائلاً:

- جيم! أستحلفك بالله! دعها!

- لكن... هذه العربة تابعة لمبني «ج»!

- هل في نيتهم قتلنا يا مستر ماكستيد؟

- جيم! لنبحث عن دكتور رانسوم!

فقال جيم وهو يبعد مستر ماكستيد عن المكان وقد سئم اضطرابه

إلى معاونة هذا الرجل العليل:

- هل ستأتي سيارة التموين؟

- فيما بعد يا جيم... ربما تأتي فيما بعد.

- لا أظن أنها آتية!

وفيما كان الجنود اليابانيون يضطرون الأسرى للتراجع عبر ساحة العرض، أخذ جيم يراقب أفراد الحرس وهم يقدمون بالدورية حول الأسلاك الشائكة. إن رؤيته لليابانيين مرة أخرى ردت الثقة إلى نفسه... إن توقع الاستهداف للقتل قد أثار انفعاله، وبعد البلبلة والشكوك التي سادت في الأسبوع الماضي، بات يرحب بأي نهاية.. وقد فكر في مسز فيليبس ومسز جيلمور وحديثهما عن اللحظة المضبوطة التي تفارق فيها الروح جسد المقضي عليه بالموت... لقد بدا لجيم أن روحه فارقت جسده فعلاً ولم تعد بحاجة إلى عظامه الناحلة وآثار جروحه المفتوحة لكي تظل ماثلة... وهو ميت فعلاً، ومثله في ذلك مثل مستر ماكستيد ودكتور رانسوم... وكل من في معسكر لانجهوا ميتون... ومن السخف أنهم عجزوا عن إدراك هذه الحقيقة!

ووقف جيم ومستر ماكستيد بين الحشائش خلف جموع الأسرى الذين ملئوا الآن ساحة العرض... وما لبث أن قال جيم:

- إنهم ليسوا بحاجة إلى قتلنا يا مستر ماكستيد.

- بالطبع هم في غير حاجة إلى هذا يا جيم.

- إنهم ليسوا بحاجة إلى هذا، لأن...

- جيم.

وتسمع ماكستيد هذه الكلمة بوكزة منه، ثم ضم رأس الفتى إلى صدره الناحل قائلاً:

- ... تذكر أنك بريطاني!

لم يتمالك جيم أن ابتسم وانحاز إلى الهدوء، ثم تملص برفق من ذراع مستر ماكستيد بعد أن تغلب على مشاعر الهزيمة والضعف إلى الحد الذي لم يجد معه لشد عزمه سوى تذكيره بأنه... ولقد ساوره الأسى الآن لحال هذا المهندس المعماري السابق عندما تذكر جولاتهما الماضية بسيارة «الأستودمبيكر» في نوادي شنغهاي الليلية، وما صار إليه الآن من انهيار الروح المعنوية، بريطاني.

* * *

في خارج المخفر حيث اتخذ قائد الشرطة العسكرية مقره، وقف زعماء الأسرى يتخاطبون مع جاويزش ياباني... ووقف بينهم الدكتور رانسوم شاحب الوجه وبيده قبعة من القش وقد تهدل كتفاه في قميصه القطني... ودخلت مسز بيرس إلى المخفر وهي تسوي شعرها وخديها وبدأت الآن تعطي الأوامر إلى أحد الجنود بلغتها اليابانية المتسارعة. وما لبث الأسرى الواقفون في طليعة الجمع أن استداروا وأخذوا يجرون في ساحة العرض وهم يصيحون للآخرين:

- حقيبة ملابس واحدة! الكل يعودون إلى هنا في خلال ساعة!

- إننا مرتحلون إلى نانتاو!

- الكل يخرجون! الوقوف في صف واحد عند البوابة!

- إنهم قاموا بحجز التموين في نانتاوا!

- حقيرة واحدة!

وتزامن مع هذا الحوار وقوف الزوجين المبشرين على درجات المبنى «ج» وبید كل منهما حقیته وكأنهما استشعرا على نحو ما هذه النقلة الوشیكة... وأراد جیم أن یطمئن نفسه وهو یراقب هذا، فعزاه إلى أن المعسكر إنما یجري نقله فقط، وليس إغلاقه نهائياً... وقال لصاحبه:

- هيا يا مستر ماكستید... إننا عائدون إلى شنغهاي!

وأعان الرجل الواهن للوقوف على قدمیه، وأخذ یوجهه من خلال مئات من الأسرى الجارين... وعندما وصل جیم إلى غرفته وجد مسز فنسنت قد حزمت حاجياتها فعلاً... ولما كان ولدها نائماً في فراشه فقد وقفت لدى النافذة تراقب عودة زوجها من ساحة العرض... وقدر جیم أنها بدأت تنفض عنها كل ذكريات المعسكر.

- إننا راحلون يا مسز فنسنت.. سنذهب إلى نانتاوا.

- إذن فعليك أن تحزم حاجياتك.

وبدا أنها تنتظر أن یذهب، حتی یسنى لها أن تخلو إلى نفسها في الغرفة بضع دقائق أخيرة.

- أصبت يا مسز فنسنت، إنني كنت في نانتاوا من قبل يا مسز

فنسنت...

- وكذلك أنا... لا یمكنني أن أتصور لماذا یريد الیابانیون أن نذهب

إلى هناك مرة أخرى.

- إن التموين المخصص لنا موجود في مستودع هناك.

في هذه اللحظة راح جيم يتدبر فيما إذا كان يسوغ له أن يحمل حقيبة مسز فنسنت... إن الحرص على إيجاد حلفاء جدد شيء محمود، ووجود حليف مثل مسز فنسنت التي ينبنى نصفها الأدنى بقوة الاحتمال رغم نحولها فيه من الرجاء أكثر مما لدى مستر ماكستيد... أما بصدد الدكتور رانسوم فإنه سيكون مشغولاً بمرضاه، أولئك الذين سيقضي أكثرهم نحبه عما قريب.

- إنني سأرى والدي قريباً يا مسز فنسنت...

- أنا مسرورة بهذا.

وأضافت بتهكم يسير:

- هل تظن أنهما سيعطيانك مكافأة؟

ارتبك جيم، ولم يجد إلا أن يطرق برأسه.

في فترة مرضه حاول جيم خطأ أن يرشو مسز فنسنت بوعده حصولها على مكافأة، وإن كانت لم تحرك إصبعاً لمساعدته... فيا لها من مفارقة إذ يوحى ردها بالتهكم! وقد تردد جيم قبل مغادرة الفرقة... إنه أمضى قرابة ثلاث سنوات مع مسز فنسنت، وما زال يشعر بأنه يكن لها المودة.. وكانت واحدة من القلائل في معسكر لانجهوا الذين يجيدون في التندر والتفكه.

وأراد جيم أن يجاريها في منحهاها، فقال له أخيراً:

- مكافأة؟! تذكر يا مسز فنسنت أنك بريطانية!

(٢٩)

المسيرة إلى نانتاو

كانت المسيرة من معسكر لانجهوا إلى أحواض السفن في نانتاو والتي بدأت بعد ما تقدم بساعتين أشبه بهجرة سيرك ريفي يائس إلى موقع آخر... ووقف جيم يراقب تجمع الأسرى من مكانه عند رأس الطابور وقد بدوا منهكين مكدودين بتأثير الانتظار الطويل، حتى قبل أن يبدأوا المسيرة.. وتحت أنظار أفراد الشرطة اليابانيين المملولة المتضجرة أخذ الأسرى يخرجون محاذرين من خلال البوابة، رجالهم يحملون الحقائب ولفائف الفراش، ونساؤهم مثقلات بسلال من القش ملئت بملابس مهلهلة بالية... وكان الآباء يحملون أبناءهم على ظهورهم، بينما تمسك الأمهات بأيدي أطفالهن... وفيما وقف جيم خلف سيارة القيادة التي ستتقدم المسيرة، لم يتمالك دهشته لرؤية كل تلك المقتنيات التي كانت تتجمع تحت الأسرة طوال سني الأسر في لانجهوا... ومن عجب أن عشرات من مضارب التنس والكريكيت والجولف كانت مشدودة إلى حوامل الحقائب، وكأن أصحابها حين اصطحبوها عند اقتيادهم للمعتقلات كانوا يتوقعون أن يحيا نفس الحياة المرفهة المترفة قبل الحرب!

ومهما يكن فإن الأسرى بدأوا المسيرة بملابسهم المهلهلة وبطونهم الخاوية متتبعين أحذيتهم الخشبية في موكب طوله ثلاثمائة ياردة.. بينما وقف جنود الشرطة لدى سياراتهم يراقبون في غير مبالاة ويدخنون سجائرهم غير متعجلين أسراهم، بل كانوا يتطلعون إلى طائرات الاستطلاع الأمريكية القليلة التي كانت تحلق بين حين وآخر دون أن يحاولوا سب الأسرى أو حثهم على الإسراع... وما لبثت اثنتان من السيارات أن قامتا بدورة في المعسكر بجمع المرضى من المستشفى وأولئك الأسرى القابعين في عنابر النوم ممن أعجزهم المرض عن الحركة والانتقال.

وجلس جيم فوق صندوقه الخشبي محاولاً أن يروض عقله وعينه على التكيف مع مشاهد العالم الطليق خارج المعسكر... إن عملية الخروج دون قمع من أبواب المعسكر كانت تجربة غريبة... بيد أنه تشاغل عن هذا بفحص الصندوق الذي يضم مقتنياته: كتاب اللغة اللاتينية، وسترته الرياضية المدرسية، وإعلان سيارة الباكار والصورة الفوتوغرافية المنشورة بالجريدة اللذين كانا معلقين في مهبجه... الآن وهو يوشك أن يرى أمه وأباه الحقيقيين فقد فكر في تمزيق صورة الرجل والمرأة المجهولين المصورين خارج قصر باكنجهام - اللذين اتخذ منهما أبوين له طوال تلك السنوات... بيد أنه أثر في آخر لحظة أن يدس الصورة في جيبه كإجراء احتياطي.

ومهما يكن فإن جيم قرر أن يولي ظهره للمعسكر، متذكراً تموين الأسرى المحتجز في مستودعات ناتاو... كان من المهم أن يبقى

في طليعة الموكب، وأن يسعى إذا لزم الأمر إلى كسب ود الجنديين اليابانيين الواقفين بجانب سيارة القيادة... وفيما هو يتدبر هذا إذ دنا منه شخص في بنطلون قصير ممزق وحذاء خشبي وبادره قائلاً:

- جيم... كنت أعرف أنني سأعثر عليك هنا.

كان مستر ماكستيد الذي بدا يتحلب عرقاً ويزيد هزاً.. وقد مضى يقول:

- ... هذا إذن هو ما كنا ننتظر أن يحدث؟

- إنك لم تحضر أمتعتك يا مستر ماكستيد.

- كلا يا جيم... لا أظن أنني سأحتاج إلى أي أمتعة... لا بد أنك ستري المشاهد مختلفة هنا.

فقال جيم وهو يسرح الطرف عبر الحقول المترامية التي لا يتخللها سوى القبور المتناثرة والقنوات المائية:

- ما عاد شيء يختلف في نظري... قل لي يا مستر ماكستيد... هل تظن أن شنغهاي ستكون متغيرة؟

فلاحت ابتسامة شاحبة على وجه مستر ماكستيد ابتعثتها ذكريات الأيام السعيدة الخوالي، ورد قائلاً:

- إن شنغهاي يا جيم لن تتغير أبداً... لا تقلق... سوف تلتقي بوالدتك ووالدك.

- هذا ما كنت أفكر فيه فعلاً.

وفي هذا اللحظة انبعث دخان حار من عادم سيارة القيادة ووقف

الجوايش الياباني فوق المقعد الخلفي يلوح للأسرى بالسير.. وفي نفس الوقت تقدم جنود مسلحون في الطريق العمومي على جانبي طابور الأسرى وهم يستحثونهم صائحين.. وعلى الأثر ارتفع صفق الأحذية الخشبية على الأرض كصوت مئات من الرقاع الخشبية على الأرض كصوت مئات من الرقاع الخشبية تحتك بعضها ببعض... ونشط جيم فحمل صندوقه وهو يلوح للجندي الياباني وتقدم بعزم في الطريق الريفي المؤدي إلى نانتاو.. وترامى عبر منطقة المدافن وشبكات الخنادق القديمة صوت الطائرات الأمريكية وهي تقصف أحواض السفن إلى الشمال من شنغهاي.. وعلى مسافة نصف ميل إلى الغرب كان الطريق الرئيسي المؤدي إلى شنغهاي لا يزال يعج بقوافل السيارات العسكرية اليابانية ومدفعية الميدان وهي تتقدم صوب المدينة.

ومضى جيم في طليعة الموكب محاولاً أن يسمع أصوات الرجال والنساء من خلفه... ولكنه لم يسمع سوى أصوات تنفسهم، وكأن تجربة الحرية الوشيكة قد عقلت ألسنتهم... وعلى الرغم من نشاطه الدائب في لانجهوا، فإنه لم يمتحن بمثل هذه المسيرة الشاقة العانية، محتضناً صندوقه الخشبي.. وخلال الساعة الأولى كان منشغلاً بالقلق لما يعانیه مستر ماكستيد من إجهاد حتى إنه لم يلق بالآ إلى إجهاده هو نفسه... ولكن ما إن وصلوا إلى خط السكة الحديدية لشنغهاي - هانجسو حتى اضطر مستر ماكستيد إلى التوقف بسبب تدرج الأرض في الارتفاع، وقال، الرجل:

- إننا سنصعد يا جيم... يبدو أنها منطقة تلال شنغهاي.

- لا بد لنا من مواصلة السير يا مستر ماكستيد.

- نعم يا جيم... أنت مثل أبيك في مثابرتة...

ظل جيم يلاوم مستر ماكستيد وهو ضائق به ولكن عاجز عن مساعدته... ووقف الرجل في وسط الطريق ويداه حول خاصرتيه الغائرتين مومئًا برفق إلى الأمام قائلاً:

- استمر في طريقك يا جيم... اذهب إلى رأس الصف.

- سأحتفظ لك بمكانك يا مستر ماكستيد.

عند هذا الحد كان بضع مئات من الأسرى قد مروا بجيم، وقد استغرق نصف ساعة في الوصول إلى مكانه في الطليعة.

ووصلوا إلى قناة اصطناعية كانت تمتد غربًا من النهر إلى سوشوا... وعند قنطرة خشبية عتيقة كانت تمتد عبر القناة تقدمت السيارات ببطء فوق الألواح الخشبية المتهالكة، فيها جلس ألف وثمانمائة من الأسرى لدى الضفة فوق الحشائش الكثيفة على امتداد ربع ميل، متخفين من حقائب أمتعتهم ومضارب التنس والكريكيت، محدقين في المياه المليئة بالطحالب وهم أقرب إلى الخدر والنعاس... وكانت مياه القناة تجري حول هيكل سفينة صينية مدرعة جانحة لدى الضفة الثانية.

أما جيم فقد ارتاح للجلوس... لقد شعر برغبته في النوم فيما هو أقرب إلى شعور المحموم وقد أرهقته حرارة الشمس وشدة انعكاس الضوء على الحشائش المصفرة... ولاح له الدكتور رانسوم واقفًا في آخر السيارات الثلاث وهو يهتز متأرجحًا بين المرضى فوق نقالاتهم، ولكنه كان يبعد عنه بنحو مائة ياردة.

ولم يلبث كثير من الرجال أن هبطوا إلى حافة المياه تحت مراقبة الحراس وملأوا أوعية الجراية وأخذوا يشربون... وكان جيم على حذر من المياه، بعد أن تذكر المياه الملوثة في نانتاو من أثر جثث الموتى التي كانت تلقي في النهر وحيث كان يغلي المياه من أجل بازي بلا انقطاع... فهل كانت مياه القناة هذه تضم جثث بعض البحارة الغرقى في السفينة الصينية الماثلة؟

لم يلبث جيم أن فتح صندوقه الخشبي وأخرج وعاء جرائته وهبط إلى الضفة، فيما بين النساء المستريحات مع أطفالهن المنهكين... وقرص فوق الضفة الضيقة وملأ الوعاء بحذر من المياه السطحية، مؤملاً أن يجد في الطحالب ما يسد رمقه... وبعد أن شرب ملأ الوعاء مرة أخرى وارتقى إلى موضع صندوقه، حيث كانت مسز فيلبس ممددة عن كثر إلى يساره، وقد بدت شديدة شحوب الوجه مركزة نظراتها عند نقطة بعيدة في السماء، حتى لم يتمالك جيم أن لمس وجهها متوجساً من أن تكون قد فاضت روحها... وقال لها:

- مسز فيلبس... إنني جئت لك بقليل من الماء... فابتسمت له وارتشفت الماء ثم قالت:

- شكرًا لك يا جيم... هل أنت جائع جدًا؟ فقال جيم وهو يفكر في نكتة قد ترفع روحها المعنوية:

- كنت جائعًا هذا الصباح... إن ما ينقصني هو الهواء أملأ به رئتي بعد طول المشي، وليس الطعام.

- نعم يا جيم.

قالت هذا وفتحت حقيبتها المجدولة وتحسست بداخلها ثم

أخرجت حبة بطاطا صغيرة قائلة:

- ... إليك هذه... تذكر أن تصلي من أجلنا جميعًا.

- آه! سأفعل هذا حقًا!

وسارع جيم يقضم حبة البطاطا قبل أن تغير رأيها... وأضاف قائلاً:

- ... سأرد لك هذا الجميل عندما نصل إلى نانتاو.... إن التموين الخاص بنا كله هناك.

- إن خدماتك كثيرة يا جيم، وقد وفيتني حقي سلفًا... هل أعجبتك البطاطا؟

- كانت لذيذة جدًا مسز فيلبس.

واسترعى نظر جيم تحديقها المستمر في السماء، فقال لها:

- قولي لي يا مسز فيلبس... هل تتطلعين إلى الرب في علاه؟

- نعم يا جيم؟

- هل تعنين أنه فوقنا؟

- إن عرشه يا جيم في كل مكان، بين السماوات والأرض...

وقبل أن يترسل جيم في أسئلته للمبشرة أمسكت بيده مواسية، ثم قالت له:

- نانتاو هي وجهتنا يا جيم... ترى إلى أين يذهبون بنا بعدها؟

- كل ما أعرفه أن تمويننا موجود في المستودع هناك.

وتلفت جيم إلى ناحية الحراس اليابانيين... كانت السيارات الثلاث

قد عبرت القنطرة المتهالكة، واستطاع أن يلمح الدكتور رانسوم يتحرك

بين مرضاه وقد حمل طفلاً صغيراً بين ذراعيه كانت صرخاته تتردد
رنانة... وكان مئات الأسرى لا يزالون جالسين في الشمس الوهاجة،
بينما جلس اليابانيون القرفصاء قرب سياراتهم يأكلون عصيدة أرز
مسلوق أخرجوها من أوعيتهم.

وقع نظر جيم على مسز فنسنت وهي تهبط بحذر إلى حافة المياه
على بعد خمسين ياردة... وبعد أن وجدت بقعة بين المياه راقتها ملأت
وعاء لزوجها وولدها... واستطاع الدكتور رانسوم بدوره أن يستعين
بالرجال الجالسين على حافة القناة قرب السيارات حيث تبادلوا نقل
سلسلة من الدلاء المملوءة بالماء وتوصيلها إلى المرضى.

هز جيم رأسه مبهوراً بكل هذا الجهد... لقد خطر له أن اليابانيين
إنما ينقلونهم إلى أقصى الريف لكي يقتلوهم دون أن يبصرهم الطيارون
الأمريكيون... ولا شك أنه سيكون خيراً للجميع لو ماتوا كلهم...
سيكون في هذا ختام حياتهم بعد أن كان هذا واضحاً منذ أن أغرقت
السفينةُ الحربية اليابانية «أيد زومو» السفينة «بيتريل» وبعد أن استسلم
البريطانيون في سنغافورة، دون قتال! فإذا سلم الأسرى بهذه الحقيقة
فليس لهم بعد الآن أن يخشوا رحلتهم هذه إلى موطن الإعدام...
وتحرك جيم بين الحشائش، وقال لمسز فيلبس:

- مسز فيلبس... إنني فكرت في هذه الحرب... وقد همّ أن يقول
لها إنها ميتة لا محالة، غير أن المبشرة العجوز كانت نائمة... وبدلاً من
ذلك قال لها:

- ... مسز فيلبس... ليس لنا أن نقلق بعد الآن.

وعندئذ برقت الأنوار وتحركت سيارة القيادة على امتداد الطريق...
فهبط الجنود اليابانيون من الضفة وأخذوا يلوحون ببنادقهم للأسرى
للنهوض، فيما أدارت السيارات في مؤخرة الطابور محرقاتها متحضرة
للمسير... وبينما استقبل الرجال والنساء والأطفال الطريق حاملين
حقائبهم ومتاعهم، لزم آخرون موضعهم بين الحشائش، كارهين مفارقة
هذه القناة الوداعة.

أما جيم فقد رقد على جنبه متوسداً ذراعه وقد شعر بالنعاس بعد أن
أكل من البطاطا التي قدمتها إليه مسز فيلبس، وبدأ له هدير القصف وأصوات
النساء البريطانيات بعيداً كأنه من مكان سحيق... لقد جعل يحدق في نصال
الحشائش محاولاً تقدير سرعة نموها - أؤمن بوصة كل يوم؟

وما لبث أن لاحظ وجود جندي ياباني واقف قربه... إذ ذاك
كان جميع الأسرى باستثناء مائة قد اصطفوا في الطابور خلف سيارة
القيادة... وفيما حول جيم ظل أسرى قلائل متمددين بهدوء... ومدت
مسز فيلبس قابضة بيدها على حقيبتها المفقودة.

وفيما وقف الجندي الياباني يتعرف على حالة جيم في رقدته، لم
يشعر جيم في هذه المرة بأي قلق... إنه ليود أن يبقى مكانه قرب المياه
غير المتسارعة ويساعد مسز فيلبس في تأملاتها الدينية.

- هيا يا جيم... نحن في انتظارك!

فقد هبط الضفة رجل ناحل بدأ بالانحناء والابتسام للجندي الياباني
ثم هوى بين الحشائش وجذب جيم من ذراعه قائلاً قولته تلك.
كان مستر ماكستيد... وقد أردف قائلاً:

- يا ولدي الطيب... إننا نتابع الطريق إلى نانتاو.

- إنهم ذاهبون بنا إلى أقصى الريف يا مستر ماكستيد... وأفضل أن أبقى هنا مع مسز فيلبس.

- أظن أن مسز فيلبس تريد أن تستريح... إنهم حجزوا التمويل عنا في نانتاو يا جيم... ونحن محتاجون إليك لكي نتقدمنا في الطريق...
وشد مستر ماكستيد بنظونه القصير وانحنى مرة أخرى للجندي الياباني ثم ساعد جيم للنهوض على قدميه.

وأخذ الموكب يزحف إلى الأمام في أثر سيارة القيادة... ونظر جيم إلى الخلف ليصر المائة أو نحو ذلك من الأسرى المتخلفين عند الضفة... وظل الجندي الياباني واقفاً يلحق حبات الأرز الملتصقة بذقنه فيما تمددت مسز فيلبس عند قدميه بين الحشائش المصفرة... أما الجنود الآخرون فقد تحركوا على امتداد الضفة حاملين بنادقهم وهم يتخطون الأسرى المستسلمين للراحة... فهل يمكن أن يساعدوا فيما بعد مسز فيلبس والباقيين للوصول إلى نانتاو؟

لقد تشكك جيم في هذا... وما لبث أن نفى مسز فيلبس من خاطره ورفع صندوقه الخشبي ووضع قدمه في البصمات المتربة المتخلفة عن الرجل الذي سبقه وهو يعرج.. وفي خلال ذلك تخلف مستر ماكستيد عن مكانه في الصف... إن الراحة القصيرة التي ظفر بها الأسرى على ضفة القناة قد أتعبتهم جميعاً.

وعلى مسافة نصف ميل من القنطرة، قرب سيارة ذخيرة محترقة،

انعطف طريق ناتتاو عن القناة وامتد متعامداً إلى جسر بين حقلي أرز مهجورين... وعندئذ توقف الموكب... ولبث الأسرى ينتظرون مستسلمين في الشمس تحت مراقبة اليابانيين الذين لم يحاولوا حثهم على الإسراع... وكان جيم يتسمع لهث أنفاسهم المكدودة... وبعد فترة عاد زحف الأحذية الخشبية وتحرك الموكب من جديد.

وفي نظرة خلفية من جيم إلى سيارة الذخيرة المحترقة روعه أن شاهد مئات من حقائب الأمتعة ملقاة على قارعة الطريق الخاوي... فإن الأسرى بعد أن أجهدهم وأضناهم عبء حمل أمتعتهم، ما لبثوا أن تخلو عنها دون كلمة واحدة... وهكذا تكونت الحقائب والسلال المضفورة ومضارب التنس والكريكيت تحت أشعة الشمس وكأنها أمتعة فريق من طلاب الرحلات الحكومية اختفوا عن العيان.

أما جيم فقد تشبث بصندوقه ووسع خطاه... فبعد سنوات طوال بغير متاع لم يكن في نيته أن يتخلى الآن عما أصبح يقتنيه... وفي خلال ذلك عاد به الفكر إلى مسز فيلبس وإلى حديثهما على ضفة القناة، ذلك الموقع الذي كان أبعث على البهجة من موقع حديثهما الأسبق لدى مقبرة المعسكر، حيث اعتاد أن يسألهما في شؤون الحياة والموت... لقد كان كرمًا من مسز فيلبس أن أعطته حبة البطاطا الأخيرة معها، وقد تذكر فيما تذكر أفكاره الحالمة عن أن الموت قد أدركه فعلاً... لكنه لم يمت... ولم يتمالك جيم أن ضرب الأرض بحذائه، متحرراً مما اعتراه من ضعف وتخاذل.

(٣٠)

الاستاد الأولمبي

طوال ما بعد الظهيرة تحرك الموكب شمالاً عبر سهل نهر هوانجيو،
خلال شبكة مترامية من البحيرات والقنوات التي كانت تفصل حقول
الأرز، مخلفين مطار لانجهو وراءهم.

وهنا، عند مشارف إقليم نانتاو، بدا الدمار الذي أحدثه القصف
الجوي الأمريكي شاملاً، إذ كانت الحفر العميقة تغطي كافة الحقول،
وقوافل سيارات الإمدادات والذخيرة المدمرة بادية في كل مكان.

وكانت أسراب الذباب تلاحق الأسرى، خصوصاً عندما توقفوا
لقضاء الضرورة... ولما استرعى نظر جيم وجود مستر ماكستيد جالساً
على حافة سيارة ذخيرة محطمة اقترب منه قائلاً:

- إننا على وشك الوصول يا مستر ماكستيد... أكاد أشم رائحة
الأرصقة البحرية!

- لا تقلق يا جيم... وعليك بالصبر.

- إن التموين المقرر لنا...

فما كان من مستر ماكستيد إلا أن مد يده وأمسك بمعصم جيم يشد
عليه... ومرت بهما سيارات الحراسة الثلاث وعجلاتها تسحق حطام

الزجاج المتناثر في كل مكان... وبدأ مرضى المستشفى متلاصقين كأنهم
سحاجيد ملفوفة... ووقف الدكتور رانسوم في السيارة الأخيرة مولياً
ظهره إلى مقصورة القيادة وقد اختفت قدميه بين الأجساد المحشورة في
السيارة... وعندما أبصر جيم أمسك بجانب السيارة هاتفاً:

- ماكستيد! استمر يا جيم وتقدم! اترك صندوقك!

وراح جيم يراقب الجنود اليابانيين الثلاثين الذين كانوا يشكلون
مؤخرة الموكب... كانوا يسرون الهويانا وبنادقهم معلقة على أكتافهم
ونظراتهم ساهمة... وارتفعت من السيارات سحب من الغبار الأبيض
حجبت الدكتور رانسوم وذكرت جيم بالغبار المنعقد في مطار لانجهوا.
وما لبث مستر ماكستيد أن نهض قائلاً:

- لا بأس يا جيم... لنكمل المسيرة إلى نانتاو.

وتعلق بمنكب جيم وأخذ يخطو متثاقلاً وحذاؤه الخشبي يسحق
شظايا الزجاج المحطم... ولما عجزا عن إدراك سيارات الحراسة شقا
طريقهما خلال سحب الغبار حيث انضموا إلى المتخلفين القلائل في
مؤخرة الطابور... وكان عدد من الأسرى قد أدركهم اليأس فجلسوا مع
أطفالهم على أطراف السيارات المدمرة وكأنهم ليف من النور ارتأوا
أن يبدأوا حياة جديدة بين بقايا السيارات المعطوبة.

وحوالي الغروب توقف الأسرى لدى جسر الخط الحديدي الممتد
إلى مستودعات وأحواش نانتاو... وأخذت سيارات الحراسة تدرج مهتزة
بعنف فوق الطنطنات، فيما لاحت على بعد ميل القاعدة البحرية للطيران

في نانتاو والأرصفة الجنائزية التي التجأ إليها جيم فيما مضى مع بازي... ترى هل عاد المضيف البحري السابق إلى مخبئه القديم؟ خطر هذا لجيم وهو يساعد مستر ماكستيد على اجتياز الخط الحديدي، متجهين في عداد الموكب إلى الجسر المحاذي للنهر... وإلى الغرب من الأرصفة البحرية استرعى نظر جيم هيكل قاذفة أمريكية محترقة من طراز «ب-٢٩» غارقة في المياه الضحلة لأحد الخلجان وقد ارتفع ذيلها كأنه لوحة إعلانية فضية تعلن عن نوعيتها - فأخذ يحدق ساهمًا، ثم جلس إلى جانب مستر ماكستيد بين الأجساد المكدسة في الغسق... كان الجوع يعتصر أحشاءه حتى أخذ يمتص أصابعه غير عابئ بما بها من تقرحات وصديد، ثم انتزع سيقان الحشائش من جانب الضفة وأخذ يمضغ أوراقها الحريفة.. ولاح عريف ياباني وهو مرافق الدكتور رانسوم ومسر بيرس شطر أرصفة الأحواض التي شملها الدمار فيما شمل الإقليم عن آخره.

ووقف جيم قرب النهر وصندوق أمتعته عند قدميه... وبدت المياه تبرق بالزيوت المتسربة من سفن الشحن الغارقة في ميناء شنغهاي... ومهما يكن فقد اغترف من النهر بإناء جرايته وشرب محاذراً، ثم وقف يراقب المياه وهي تترجرج حول الصندوق... إنه ظل يحمل الصندوق طوال الطريق من معسكر لانجهوا، متشبثاً بمقتنياته القلائل التي جمعها بكل جهد... إنه ظل متعلقاً بها معلقاً النفس بما كانت ترمز له في نظره من بواعث الأمن الذي عرفه في المعسكر... أما الآن فقد حان الوقت لكي يتخلص من لانجهوا وكل ما ارتبط بها ويواجه الحاضر مواجهة سافرة، مهما يكن مزعزعاً موسوماً بالشك... وهكذا دفع بالصندوق في سطح المياه الزيتي... وفيما راح الصندوق يطفو متباعداً، مثل تابوت

طفل صيني ميت، أخذت حلقات الزيت تتسارع وتطوقه مرسله بصيصاً
من انعكاسات الضوء عبر النهر.

وأخيراً ارتقى جيم إلى حيث كان الأسرى يستريحون وجلس قرب
مستر ماكستيد... وقد ناوله وعاء الماء ثم أخذ ينفذ الرمل عن حذائه.

- هل أنت بخير يا جيم؟

- لا بد أن تنتهي الحرب يا مستر ماكستيد.

فرد مستر ماكستيد وقد سرى إليه انتعاش يسير:

- سوف تنتهي يا جيم... إننا عائدون إلى شنغهاي هذه الليلة.

- شنغهاي...؟!!

خطر لجيم أن مستر ماكستيد يهذي إذ يحلم بشنغهاي، مثلما فعل
الأسرى المحتضرون في مستشفى المعسكر عندما راحوا يهزون عن
العودة إلى إنجلترا... وأضاف سائلاً:

- أليسوا ذاهبين بنا إلى داخلية الريف؟

- ليس الآن.

قال مستر ماكستيد هذا وهو يشير من خلال الظلام إلى سفينة
الشحن المحترقة لدى حاجز الميناء والتي يبدو أنها كانت ستقلهم إلى
داخلية الريف، حيث يتم إعلام الأسرى قرب سوشو.

وعلى الرغم من شعوره بالارتياح لهذا الكلام فإن جيم خاف
الإحباط، وقال:

- وما هو مصير التموين الخاص بنا يا مستر ماكستيد؟

- إنهم ينتظروننا في شنغهاي... مثل أيامنا القديمة يا جيم.

ورآه جيم يتهالك بين الأسرى المنهكين... لقد بذل الرجل آخر جهده لكي يتجلد ويتشدد، محاولاً إقناع جيم بأن كل شيء على ما يرام، وأن الحظ المحالف ومهارة قاذفة أمريكية محكمة التسديد كالتى أنقذتهم من «السجن» على ظهر السفينة المدمرة، قد يحالفهم مرة أخرى إلى ما فيه خلاصهم.

- قل لي يا مستر ماكستيد... هل تريد أن تنتهي الحرب؟ لا بد لها من نهاية سريعة!

- إنها على وشك الانتهاء... فكر في أمك وأبيك يا جيم... إن الحرب قربت من نهايتها!

- لكن يا مستر ماكستيد... متى تبدأ الحرب القادمة؟

في خلال ذلك كان الجنود اليابانيون يسرون على امتداد الخط الحديدي، يتبعهم الدكتور رانسوم ومسز بيرس... وكان العرفاء يتصايحون وأصواتهم تتجاوب فيما بين القضبان... ثم بدأ المطر ينزل رذاذاً... فعمد الحراس المنتظرون قرب السيارات إلى كيس حرملاتهم... وارتفع بخار من القضبان الدافئة فيما كان الأسرى ينهضون قائمين ممسكين بصغارهم، متنادين في الظلام، والنساء تشبب بأيدي أزواجهن.

وأمسكت امرأة تحمل طفلاً نائماً على كتفها بذراع جيم بيد أنه نحاه عنه وحاول أن يسند مستر ماكستيد... فالكلام والنهر الجاري

جعلاهما أقرب إلى الدوار، وباتا مهددين بالتعثر والوقوع بين القضبان في أي لحظة... وما لبث الأسرى أن تركوا الجسر تتقدمهم السيارات الثلاث وتجمعوا لدى الرصيف النهري قرب المستودعات المدمرة... ذلك وقد تخلف مائة منهم فوق البحر بعد أن بلغ منهم الإعياء حدًا جعلهم يعجزون عن مواصلة السير ويستسلمون لأي مستقبل يدخره اليابانيون لهم... وهكذا جلسوا في المطر أدنى مسار الخط الحديدي، يراقبهم اليابانيون مدثرين بحرملاتهم التي يقطر منها المطر.

وفيما استأنف طابور الأسرى المسيرة قدر جيم أن ربع عدد الأسرى الذين غادروا معسكر لانجهوا ذلك الصباح قد تخلفوا في الطريق... وحتى قبل أن يصلوا إلى مداخل الترسانة ارتد عديد من الأسرى عائدين أدراجهم، أو هائمين على وجوههم.

وصل الموكب بعد ساعة من حلول الظلام إلى الاستاد الرياضي عند الضواحي الغربية لنانتاو... كان هذا الملعب الخرساني قد شُيّد تنفيذًا لأوامر مدام «شنج كاي شك» على أمل أن تكون الصين هي المضيفة لدورة الألعاب الأولمبية عام ١٩٤٠... وبعد استيلاء اليابانيين عليه عقب غزوهم للصين عام ١٩٣٧ أصبح الاستاد مقرًا للقيادة العسكرية في إقليم جنوب شنغهاي.

وقد اجتاز طابور الأسرى ساحة وقوف السيارات التي يخيم عليها الصمت حيث بدت فيها حفر القنابل واصطفت عشرات السيارات الحربية المحطمة... ثم أفضوا إلى نفق خرساني موصل إلى الساعة الكبرى للملعب، وعندئذ شكل الجنود اليابانيون كردونًا حول الطريق

الدائري والمطر يقطر من حرملاتهم ويلمع فوق سونكياتهم وأفواه
بنادقهم، فيما جلس طلائع الأسرى فوق الحشائش المبتلة، وتهالك
مستر ماكستيد عند قدمي جيم وكأنما فك من عقال كان يشده... وجلس
جيم القرفصاء بجانبه وهو يطرد البعوض الذي تبعهم إلى داخل الاستاد.
ثم ظهرت السيارات الثلاث من النفق وتوقفت في الطريق
الدائري... فتخطى الدكتور رانسوم المرضى وهبط من باب السيارة
الخلفي... وترجلت مسز بيرس من مقصورة القيادة في السيارة الثانية
تاركة زوجها وابنها بجانب السائق الياباني... ومن خلال المطر سمع
جيم صوت الدكتور رانسوم وهو يتجادل مع اليابانيين... وكان الرقيب
الأعلى رتبة بين مجموعة الشرطة اليابانيين والمدثر بحرملته يراقبه دون
اهتمام، وما لبث أن أشعل سيجارة وسار الهوينا إلى حيث مقاصير
المتفرجين الخاوية وجلس في الصف الأمامي وكأنما يوشك أن يشهد
عرضاً ليلياً لفرقة أكروبات.

وشعر جيم بالارتياح عندما عادت مسز بيرس إلى مكانها في
السيارة... وبدا أن مجادلات الدكتور رانسوم الشاكية لا محل لها في
استاد نانتاو... وبعد دقائق معدودة من وصول الأسرى إلى الاستاد
خيم السكون على هذا الجمع الذي بلغ عدده الآن ألفاً ومائتي
أسير... فقد هجعوا متلاصقين فوق الحشائش تحت مراقبة الحراس
في المقصورات... وعاد الدكتور رانسوم يتنقل بين النساء والأطفال
دائماً في محاولاته لتفقد أحوالهم الصحية كما كان يفعل في معسكر
لأنجهوا.

واستمر المطر يسقط في الاستاد، وتمدد جيم على الأرض تاركًا المطر ينحدر على وجهه مدفئًا خديه الباردین... وعلى الرغم من المطر فإن آلاف الذباب لم ينقطع عن ملاحقة الأسرى والاستقرار على وجوههم في كل موضع..

وآنس جيم تنفس ماكستيد الواني وفكر فيما يمكن أن يفعله لمساعدته، وفي هذا ساوره الندم للتخلص من صندوقه في الیم... كانت تلك البادرة منه إيماءة انفعالية، ولكن بلا معنى ولا مغزى... فقد كان بوسعه أن يقايض حاجاته ببعض الطعام لمستمر ماكستيد... وكان بعض الجنود اليابانيين من الكاثوليك ويتبعون القداس اللاتینی... وعلى الخصوص فإن أحد الحراس المدثرین بالحرملة التي يقطر منها المطر ربما كان يقدر قيمة كتاب اللاتينية الذي احتواه الصندوق فيما احتوى، وربما قبل أيضًا أن يعطيه جيم دروسًا في اللاتينية!

ولكن مستر ماكستيد رقد في سلام... وبدأت أنفاسه الرمادية تخرج من خلال الذباب المرابط فوق شفتيه، ومن شفاه الأسرى الآخرين في حوار.. وعندما توقف المطر بعد ساعة أضاءت ومضات غارة جوية أمريكية الاستاد... كان هذا الوميض الصامت للغارات الليلية التي تدور في مكان ما على القواعد البحرية اليابانية لدى مصب نهر اليانجتسي، يضيفي من بريقه سناء كابيًا على ذراعي جيم وساقیه... كان أشبه ببتار الغبار الأبيض الذي شهده لأول مرة وهو يساعد في بناء مدرج الطائرات في مطار لانجهوا، وأحس الآن بأنه يتراوح بين اليقظة والنوم الذي لن يخلو من أحلام الحرب.

إمبراطورية الشمس

ملأت شمس الصباح المشوبة بالرطوبة أرجاء الاستاد، وكان لها انعكاس على برك المياه التي غطت ساحة الألعاب الرياضية، وشمل الانعكاس هياكل السيارات الأمريكية المصفوفة خلف أعمدة مرمى كرة القدم في الطرف الشمالي للاستاد... وراح جيم وهو مستند إلى منكب مستر ماكستيد يسرح الطرف في مئات الرجال والنساء الراقدين فوق الحشائش الدافئة... ولكنه انثنى لكي يهش الذباب عن فم مستر ماكستيد وعينه... فقد تمدد المهندس المعماري السابق دون حراك وقد برزت عظام صدره وكأنما توشك أن تنفطر، وإن استطاع جيم أن يسمع حفيف أنفاسه.

- أنت أحسن الآن يا مستر ماكستيد... سأتيك بشيء من الماء...

قال جيم هذا وهو يدير رأسه إلى ناحية السيارات المصفوفة، وإن كانت هذه الحركة قد جعلته يشعر بالدوار... وما لبث مستر ماكستيد أن تلفت وأخذ يحرق في جيم الذي كان يشير إلى السيارات... كان ثمة نحو خمسين سيارة من طراز كاديلاك وبويك ولنكولن... فهل جاءت

هذه السيارات لكي تقل أصحابها البريطانيين بعد أن انتهت الحرب؟ لقد جعل جيم يدلك خدي مستر ماكستيد، ثم مد يده إلى تجويف الصدر الغائر محاولاً تدليك القلب أيضاً.. إنه لمن بواعث الأسى أن يقضي مستر ماكستيد نحبه في الوقت الذي جاءت فيه سيارته الستوديبكر لكي تعود به إلى مغاني شنغهاي ونواديها الليلية!

ومهما يكن فقد جلس الجنود اليابانيون على المقاعد الخرسانية قرب النفق يحتسون الشاي عن كثر من موقد فحم كان دخانه يتصاعد فيما بين سيارات المستشفى... وكان جنديان شابان يمرران دلاء الماء إلى الدكتور رانسوم المكدود، ولكن جنود الحراسة بدوا أقل اهتماماً بأسرى معسكر لانجهوا في ملعب كرة القدم هذا مما كانوا أثناء مسيرة اليوم السابق.

ونفض جيم قائماً على ساقين مرتعشتين وأخذ يتفحص السيارات المصفوفة ليرى بينها سيارة الباكار الخاصة لوالديه... أين سائقوها؟ كان يجب أن يكونوا وقوفاً ينتظرون قرب السيارات كما كانوا يفعلون دائماً خارج النوادي في شنغهاي وضواحيها! وعندئذ لاحظت سحابة ممطرة صغيرة حجبت الشمس، واكتسى الاستاد بضوء حسير... وبعد أن أنعم جيم النظر في الصدا الذي يشوب السيارات، أدرك أن هذه السيارات الأمريكية ظلت مرابطة في موضعها تلك مدى سنوات.. فقد غطى زجاجها الأمامي وسخ الشتاء، وقامت فوق عجلات مسطحة، ولم تكن سوى غنائم استولى عليها اليابانيون من رعايا الحلفاء.

لم يتمالك جيم أن ظلل عينيه ليتفادى وهج الشمس، ومضى يدلك خدي مستر ماكستيد ويدفع الذباب عنه، ومن حولهما تمدد أسرى

معسكر لانجهوا فوق الحشائش الرطبة يحدقون في ممتلكاتهم السابقة التي بدت كسراب، لعز سالف.

ثم بدا لجيم أن اليابانيين كثيرًا ما كانوا يستخدمون الاستاد كمعسكر انتقالي، إذ كانت الحشائش المتآكلة مغطاة بالخرق الملوثة بالزيوت ورماد النيران المتعددة المواضع وأجزاء من خيام وصناديق شحن ومخلفات آدمية كانت تنهات عليها أسراب الذباب.

وفعلًا سمع صوت محرك سيارة المستشفى يدار في جلبه، وهبط الجنود اليابانيون من المقصورات وأخذوا يشكلون طابورًا لمسيرة جديدة... وتقدم ثلاثة أسرى إنجليز وساعدوا الدكتور رانسوم في إنزال أولئك المرضى الذين لفظوا أنفاسهم أو كانوا في حالة مرضية متفاقمة لا تسمح لهم باستئناف رحلة يوم آخر، فاستلقوا على الأرض في الفجوات المخلفة من عجلات السيارات وكأنهم يحاولون أن يطووا الثرى حول أجسادهم الفانية.

وما لبث جيم أن انحنى فوق مستر ماكستيد وأخذ يضغط على الحجاب الحاجز في صدره كمنفاخ، إذ وجد الدكتور رانسوم من قبل يستخدم هذه الطريقة في بث الحياة في المرضى المحتضرين، وكان يهمله أن يتعافى مستر ماكستيد حتى ينضم إلى المسيرة... ومن حولهم جلس الأسرى منتصبين، وبعضهم وقفوا بجانب زوجاتهم وأطفالهم المكومين بعضهم على بعض... وفي خلال الليل توفي العديد من الأسرى المسنين... وآخرون كان من حولهم برك ضحلة من المياه نجمت عن ثقل أجسادهم على الحشائش الطرية.

ثم شعر جيم بكلل وألم في ذراعيه من فرط ضخ الهواء في صدر مستر ماكستيد... وانتظر أن يقفز الدكتور رانسوم من سيارة المستشفى ويخف للعناية بمستر ماكستيد... غير أن السيارات الثلاث كانت بسبيلها إلى خارج الاستاد، ولم يبصر جيم الدكتور رانسوم وهو يخفض رأسه في سيارة المستشفى وهي تجتاز النفق، فخطر له أن يجري خلف السيارة، لكنه شعر أنه لا بد له أن يبقى لملازمة مستر ماكستيد ورعايته... فقد تعلم أن رعايته للغير صنو لرعاية الغير له.

وأنصت جيم للسيارات وهي تجتاز ساحة وقوف المركبات... وبدأ الأسرى يشكلون موكب المسيرة قرب النفق... وكان قوامهم نحو ثلاثمائة من الأسرى البريطانيين... واصطف الأصغر سنًا مع زوجاتهم وأطفالهم قرب ساحة الجري، وأخذ يتفقدتهم جاويز من الحراس... أما الذين بلغوا من الإجهاد حدًا عجزوا معه عن الجلوس أو الوقوف فقد تمددوا فوق الحشائش وكأنهم مصابون في ميدان حرب.

وبعد ساعة تحرك الطابور، وسار الأسرى متساقلين خلال النفق دون أن يلحقوا نظرة إلى الوراء، يتبعهم ستة من الجنود اليابانيين، أما بقيتهم فقد تخلفوا لحراسة مستودع الغنائم هذا من سيارات ومنقولات... وانتظر الرقباء من الجنود قرب النفق يراقبون طائرات الاستطلاع الأمريكية التي كانت تحلق على ارتفاع منخفض، دون أن يبذلوا أي محاولة لحث الأسرى المتخلفين في الاستاد على الانضمام إلى رفاقهم... غير أنه بدأ في غضون ربع ساعة تجمع فريق آخر منهم، وتقدم اليابانيون لتفقدتهم. وما لبث جيم أن مسح يديه في الحشائش الندية ودس أصابعه في

فم مستر ماكستيد... وإذا بشفتي المهندس المعماري السابق ترتعشان حول عقد أصابعه... وعندما استرعى نظره وجود بركة مياه في الممر القريب انتظر ابتعاد الحارس واجتاز الحشائش واغترف من الماء غرفة شربها، فأحس به يجري أسفل حلقه مثل زئبق مثلج، وسرى فيه تيار كهربائي كاد يوقف قلبه... وقبل أن يأمره الحارس بالابتعاد أسرع فاغترف غرفة أخرى من الماء فحملها إلى مستر ماكستيد.

وعندما قطر الماء في فم الرجل وقرص شفثيه تنفس جيم الصعداء إذ أحس بلسانه يندفع بحركة لا إرادية... فقال في محاولة لتشجيعه:

- مستر ماكستيد! إن التموين لا بد أن يوافينا عاجلاً.

فانبعث رده بهذه الكلمات:

- يا لك من فتى طيب يا جيم! استمر.

وكان ممدداً بجانب مستر ماكستيد شخص مسن هو الميجور جريفين الضابط الهندي المتقاعد الذي كان يحاضرهم في معسكر لانجهوا عن أسلحة المشاة في الحرب العظمى... وكان الرجل من الضعف بحيث عجز عن الجلوس... وقد أشار إلى يدي جيم اللتين كان يغترف بهما الماء، مردداً اسمه... فقال جيم:

- حاضر يا ميجور جريفين.

وذهب جيم مرة أخرى وعاد بغرفة ماء، فقرص قرب الميجور وسقاه وأخذ يدلك خديه.

وفي خلال ذلك لاحظ وجود مسز فنسنت جالسة فوق الحشائش على بعد نحو عشرين قدمًا... وكانت قد تركت ابنها وزوجها مع جماعة من الأسرى في ملعب كرة القدم بالاستاد... ولما عجزت عن التقدم أكثر من هذا القدر تطلعت إلى جيم بنظرات تفيض يأسًا وهي تهتف باسمه، ولسان حالها يهيب به أن يخف لخدمتها متابعة لمساعيه الإيثارية في معسكر لانجهوا - تلك المساعي التي هيأت له أن يبقى على قيد الحياة في لانجهوا.

وفيما اغترف جيم غرفة أخرى من ماء البركة تذكر كيف رفضت مسز فنسنت أن تساعد في فترة مرضه... ومع ذلك فإنه كان دائمًا مفتونًا بصورتها وهي تأكل... وقد ظل ينتظرها الآن وهي تشرب من يديه... وبعد أن فرغت ساعدها على الوقوف قائلاً:

- مسز فنسنت... إن الحرب منتهية الآن.

دفعت يديه عنها وهي شبه مغضبة، بيد أن جيم لم يعد يهتم بما يحدث... وراقبها وهي تمشي بخطى غير متزنة بين المرضى القاعدين... فعاد إلى الجلوس بجانب مستر ماكستيد وأخذ يهش الذباب عن وجهه، ذلك وما زال يستشعر ملمس لسان مسز فنسنت على أصابعه!

ونودي جيم مرة أخرى وكأنه تابع صيني يؤدي خدمات لساته الأوروبيين... غير أنه شعر بدوار جعله يتمدد قرب مستر ماكستيد... لقد حان الوقت لكي يتوقف عن القيام بهذه التكاليفات... وشعر بيديه تتجمدان من برودة مياه البركة... إن الحرب قد دامت أطول مما ينبغي... إنه قد بذل كل ما في طاقته للتعلق بالحياة في المعتقل الصغير

وفي معسكر لانجهوا، أما الآن فإن شطرًا من كيانه يريد أن يموت...
كان ذلك هو السبيل الوحيد الذي يمكن أن ينهي به الحرب!

راح جيم يقلب النظر بين مئات الأسرى المتفرقين بين
الحشائش... كان يريد لهم أن يموتوا جميعًا وهم محوطين بما جمع
من سياراتهم ومنقولاتهم المكدسة في الاستاد... إن الكثيرين من
الأسرى قد فارقوا الحياة فعلاً مما كان مدعاة لرضاء الذين ما زالت
لديهم القدرة على المسير والذين أخذوا يشكلون طابورًا ثانيًا... لقد
بدا له أنهم يساقون إلى الموت في قلب الريف، بيد أنه كان يريد
لهم البقاء في الاستاد وملاقة حتفهم على مرأى من سياراتهم الفارهة
ومقتنياتهم النفيسة!

اندفع جيم يهش الذباب بعنف عن وجه مستر ماكستيد... ولم
يتمالك أن ضحك ساخرًا من مسز فنسنت وأخذ يهتز على ركبتيه أمامًا
وخلفًا كما كان يفعل في طفولته مترنمًا بأغنية أثيرة عنده.

ومر بقربه جندي ياباني وتوقف عنده محدقًا فيه من عل... لقد
أثاره الصوت حتى هم أن يرفسه بحذائه الثقيل... لكن لاح في هذه
اللحظة وميض ضوء وهاج ملأ شعاب الاستاد وتوهج في أرجاء
مختلف الملاعب الرياضية وكأن قبلة أمريكية ضخمة انفجرت في
موضع ما من شمال غرب شنغهاي... لقد وقف الجندي الياباني
مرتدًا، ملقيًا نظرة فيما كان الضياء من خلفه يشتد سطوعًا... ثم
خفت الضوء في غضون ثوان معدودات، غير أن بريقه المصفر
غطى كل شيء في أرجاء الاستاد، من غنائم السيارات والمقتنيات

إلى الأسرى المتهالكين بين الحشائش... كانوا كمن يجلسون فوق أرضية فرن أوقدته شمس ثانية.

راح جيم يحرق في يديه وركبتيه، وفي وجه الجندي الياباني المتغير الذي بدا أن الضياء قد كدره... ولبت كلاهما ينتظر الصوت القاصف الذي يعقب ومضات القنبلة، غير أن سكونا لا يتخلله صوت خيم فوق الاستاد والأرض المحيطة به... ولم يجد جيم إلا أن يتسم للجندي، وبوده لو استطاع أن يخبره أن الضياء كان نذيرًا بموته، وشاهدًا على أن روحه الصغيرة توشك أن تلحق بالروح الأكبر للعالم المائتة!

استمرت هذه الهواجس وهذه الهلوسة حتى وقت متأخر بعد الظهيرة، عندما حدثت غارة جوية في هونجكيو أضاءت الاستاد مرة أخرى... وتمدد جيم في يقظته الحاملة شاعرًا بالأرض ترتج من تحته، ووميض الضوء يتعاقب في أرجاء الاستاد فيحيل السيارات والمقننات إلى لوحات ضوئية سريعة التبدل لا تثبت على حال وكأنها انعكاس لحيوات أصحابها من الأسرى.

وعند الغسق تجمع آخر فوج للمسيرة لدى النفق... وجلس جيم بجانب مستر ماكستيد يراقب الخمسين أسيرًا وهم يشكلون طابورًا... ترى إلى أين هم ذاهبون؟ إن كثيرًا من الرجال والنساء ما كانوا يقوون على الوقوف إلا بشق النفس، وقد تشكك جيم فيما لو استطاعوا المسير إلى أبعد من ساحة وقوف السيارات خارج الاستاد.

ولأول مرة منذ مغادرة لانجهوا بدا اليابانيون نافذي الصبر... وتحرك الجنود عبر ملعب كرة القدم وهم متلهفون للخلاص من أواخر

الأسرى غير القادرين على السير... وقد راحوا يلطمونهم ويجذبونهم من الأكتاف... وأمسك رقيب ملثم بقناع القطن ببطاريته وراح يسلط ضوءها على وجوه الموتى، ثم يأخذ في تقليبهم على ظهورهم.

وجاء موظف مدني أوراسي يلبس قميصًا أبيض وأخذ يساعد أولئك الأسرى الذين أمروا بالانضمام إلى المسيرة، وكان في إقباله على هذا العمل أشبه بمندوب كفاء لشركة سياحية... وعند أطراف الملعب انهكم الجنود في تجريد أجساد الموتى من أحذيتهم وأحزمتهم.

وفي لحظة صفاء أخيرة جلس جيم مشدود الظهر مدركًا أنه لا بد له من مفارقة المهندس المعماري المحتضر والانضمام إلى فوج المسيرة الأخيرة، وهكذا قال له!

- مستر ماكستيد... لا بد أن أذهب الآن... إن الوقت قد حان لانتهاه الحرب.

وفي محاولة الوقوف شعر بيد مستر ماكستيد تمسك بمعصمه

- لا تذهب معهم- يا جيم! ابق هنا!

انتظر جيم حتى يلفظ مستر ماكستيد أنفاسه... بيد أن الرجل المحتضر ضغط على معصمه فوق الحشائش، وكأنما يحاول تشييته على الأرض... وراقب جيم فوج المسيرة الأخيرة وهم يزحفون شطر النفق... وعجز من بينهم رجل عن التقدم أكثر من ثلاث خطوات، فهوى على الأرض دون أن يعبأ به أحد... واستمع جيم إلى أصوات اليابانيين وهم يقتربون وأنفاسهم تكاد تحتبس خلف أقنعتهم... ثم

أحس بجندي يركع بجانبه ويمد يديه القويتين حول صدره وخاصرتيه
متحسّساً جيوبه... وبعنف وغلظة شعر بحذائه ينزع نزعاً... فتمدد جيم
مكانه دون حراك، فيما كانت ألسنة النيران المتصاعدة من مستودعات
البترول في هونجكيو تلقي وهجها عبر الاستاد مضيئة كل ما يضمه من
سيارات وعتاد ومقتنيات.



القسم الثالث

(٣٢)

الأوراسي

سرت في الاستاد أشعة الشمس تبث فيه الدفء والسكينة... ومن
سماء خلو من السحاب هبطت رخة برّد أضواء الشمس بلوراتها وهي
تسقط فوق ملعب كرة القدم، مثل ظلة من زخارف عيد الميلاد.

وجلس جيم من رقدته وأخذ يلمس حبات البرد الذهبية وهي تتناثر
بين الحشائش... وإلى جانبه بدأ جثمان مستر ماكستيد مكسّواً بثوب من
الأضواء وقد اصطبغ وجهه الشديد الامتقاع بألوان قوس قزح... ولكن
لم تمض ثوان حتى بدأ البرد يذوب بين الحشائش... ورَكَع قليل من
الأسرى بين الحشائش يأكلون البرد قبل ذوبانه ويتحدثون بعضهم مع
بعض عبر جثث رفاقهم الذين فارقوا الحياة.

أما اليابانيون فقد ذهبوا... كان جنود الحرس قد حملوا عتادهم
واختفوا أثناء الليل... ولم يلبث واحد من الأسرى البريطانيين أن سار
يحجل فوق حذائه الخشبي البالي من خلال النفق تتبعه زوجته في ثوبها
المهلهل ويداها فوق وجهها.

لقد انتظر جيم أن تنطلق رصاصة بندقية تصرع الرجل عند قدمي
زوجته... بيد أن الزوجين تقدما إلى ساحة وقوف السيارات وأخذوا

يحدقان إلى مظاهر العطب التي لحقت بها... فترك جيم مستر ماكستيد ومشى قاصداً أن يتبعهما، غير أنه أثر الحذر وقرر أن يصعد إلى المدرجات.

بدأت له الدرجات الخرسانية وكأنها ترتقي إلى السماء، فتلبث ليستريح، وشرب من ماء المطر الدافئ المتجمع في بقع حواليه.... ومن تحته كان الثلاثون أسيراً أو نحوهم الباقون في ملعب كرة القدم يعالجون الوقوف متهاكين كمن كانوا في رحلة خلوية شاقة... وكانت النساء جالسات فوق الحشائش يسوين شعرهن هادئات بين من كانوا أصدقاء الأمس، بينما راح قلة من الأزواج يحاولون النظر من خلال نوافذ السيارات المتربة إلى ما بداخلها.

لقد توفي أكثر من مائة من الأسرى، تناثرت جثثهم فوق ملعب الكرة وكأنما هووا من السماء أثناء الليل... ولم يلبث جيم أن أدار ظهره إليهم وواصل صعوده بين برك المياه إلى أعلى المدرج.. ثم بدا له بعد أن ترك مستر ماكستيد أنه قد ارتكب جريمة إذ تركه يموت، وهي جريمة مرتبطة بحذائه المنهوب... ولما نظر إلى آثار قدميه المبتلة قال لنفسه إنه كان يجدر به أن يبيع حذائه لليابانيين في مقابل حفنة أرز أو قطعة بطاطا... أما وقد سبق السيف العذل، فإنه إذ تظاهر بالموت قد فقد كلا من مستر ماكستيد والحذاء.

بيد أن الموتى قد هيأوا له أسباب الحماية وأنقذوه من المسيرة الليلية... ففي رقدته بين جثثهم خلال ساعات الظلام، نائماً ويقظان في آن واحد، شعر بأنه أقرب إليهم منه إلى الأحياء... وقد ظل لفترة طويلة

بعد أن سرت البرودة في أطراف مستر ماكستيد وهو يدلك خديه ويذود الذباب عنه، إلى أن تيقن أن روحه قد فارقت.

وهبت فوق الاستاد ريح رطبة آتية من النهر، ومرة أخرى لاح له ذلك الضياء الغريب المنبعث من الطرف الشمالي الغربي والذي غطى أرجاء الاستاد من قبل - كاسفًا وجه الشمس برهة يسيرة... فأخذ يحدق إلى يديه المصفرتين... كان يعرف أنه لا يزال على قيد الحياة، غير أنه شعر في نفس الوقت أنه ميت مثل مستر ماكستيد... ربما كانت روحه قد خمدت وتجمدت في رأسه، بدل أن تفارق جسده!

وعندما عاوده العطش من جديد أخذ يهبط الدرجات من جديد ويغترف الماء من حيث يجده متجمعًا.. لو أن الحرب انتهت فقد حان الوقت للبحث عن أمه وأبيه... غير أنه بغير وجود اليابانيين لحمايته ومن بقي معه، فمن الخطر أن يقصدوا سيرًا على الأقدام إلى شنغهاي.

ولم يلبث أن لمح أحد الأسرى البريطانيين وقد وقف بجانب سيارة كاديلاك ورفع غطاء محركها وأخذ يفحص أجزائه... وعندئذ نفص جيم عن نفسه هذا التراخي وأسرع يهبط الدرجات، متلهفًا لكي يكون دليل السائق المحتمل... فهو لا يزال يتذكر كل شارع وحارة في أرجاء شنغهاي.

وفيما هو يجتاز إحدى الساحات لاحظ أن ثلاثة رجال قد دخلوا الاستاد.. كان اثنان منهم من الحمّالين الصينيين، كلاهما عاري الصدر يلبس بنطلونًا قطنيًا أسود مربوطًا عند الكعبين فوق صندل من القش... وكان الثالث هو الأوراسي لابس القميص الأبيض الذي رآه جيم مع أفراد الحرس اليابانيين.. وقف ثلاثتهم لدى النفق فيما أخذ

الأوراسي يفحص الاستاد... وقد ألقى نظرة على الأسرى الجالسين على الحشائش، ولكن اهتمامه كان مركزاً بوضوح على الأثاث النفيس المكس في المدرجات.

وإلى ذلك كان الأوراسي يحمل مسدساً أتوماتيكياً مشدوداً إلى حزام بنطلونه، بيد أنه ابتسم متودداً لجيم وكأنهما صديقان قديمان فرقت بينهما ويلات الحرب... وقال له بعد أن تفحص قميصه وبنطلونه القصير الممزقين وقدميه الحافيتين اللتين علتها الأوساخ والتمزقات: - قل لي يا فتى.. هل أنت بخير؟ أنت من أسرى لانجهوا؟ أظنك قاسيت الكثير؟

راح جيم يحدق في الأوراسي بثبات ورباطة جأش... لم تكن عينا الرجل رغم ابتسامته تمنان عن تعاطف... وكان يتكلم بلهجة أمريكية اكتسبها حديثاً، قدر جيم أنه تعلمها أثناء استجواب الطيارين الأمريكيين الأسرى... وكان يلبس حول معصمه ساعة من معدن الكروم، وكان المسدس المدلى من وسطه شبيهاً بتلك المسدسات التي أخذها الحراس اليابانيون في لانجهوا من طياري قاذفات (السوبر فورتريس) الهاوية.

وعندما رأى اثنين من الأسرى البريطانيين يحجلان عن كذب قال لجيم:

- هل أمك وأبوك هنا؟ الظاهر أنكم تحتاجون إلى كيس أو اثنين من الأرز... سل أصحابك هنا إن كان عندهم أساور أو خواتم زواج أو شيء مثل ذلك؟ بالإمكان أن نعمل معاً كشركاء.

- هل انتهت الحرب؟

غض الأوراسي بصره متأثراً بذكرى عابرة... وما لبث أن تمالك وابتسم قائلاً:

- هذا مؤكد.. في أي وقت الآن يمكن أن يربط الأسطول الأمريكي في الميناء.

وعندما بدا له أن جيم لم يقتنع تولى البيان قائلاً:

- يا فتى! إنهم ألقوا قنابل ذرية! إن العم سام ألقى قطعة من الشمس في مدينتي نجازاكي وهيروشيما، وقتل مليوناً من الناس! ضياء عظيم ووهج شامل!

- لقد شاهدته!

- يا فتى! هل أضاء السماء كلها؟!

بدا رنين الشك يخالط نبرات الأوراسي، بيد أنه حول نظره عن الغنائم المكدسة في المدرجات وأخذ يفحص جيم... كان برغم أسلوبه الناعم غير مطمئن إلى سلامة موقفه، وكأنما أدرك أن قرب وصول الأسطول الأمريكي قد لا يكون أعون له على تحقيق مآربه.. وما لبث أن تطلع إلى السماء بحذر وقال:

- قنابل ذرية! هذا سيئ جداً لليابانيين، ولكنه خير لك يا فتى.. ولأملك وأبيك!

أخذ جيم يتدبر هذا الكلام، فيما تقدم الأوراسي إلى مستودع القمامة الخرساني وأخذ ينش بداخله... فقال جيم:

- هل انتهت الحرب حقيقة؟

- نعم... انتهت... ونحن جميعاً أصدقاء... إن الإمبراطور أعلن
الاستسلام منذ فترة قصيرة.

- أين الأمريكيون؟

- إنهم قادمون يا فتى... لا بد لهم من المعجىء إلى هنا، بقنابلهم
الذرية!

- هل يخرج منها ضياء أبيض؟

- صدقت يا فتى... إن القنبلة الذرية هي السلاح الأمريكي
المتفوق... ربما كان ما شاهدته هو قنبلة نجازاكي.

- نعم... إنني رأيت القنبلة الذرية... ماذا أصاب الدكتور رانسوم
يا ترى؟

وعندما بدت الدهشة والحيرة على وجه الأوراسي أضاف جيم
قائلاً:

- ... والناس الذين ذهبوا في المسيرة؟

فهز الأوراسي رأسه قائلاً وكأنما فاته ذلك:

- هذا سيئ جداً يا فتى... القنبلة الأمريكية تتولد عنها مصائب...
ربما يقدر لصاحبك النجاة.

وهم جيم أن يتعد، عندما تحول الأوراسي عن مستودع القمامة
وفي إحدى يديه حذاء خشبي بال رماه في الطريق على الأثر، وفي
اليد الثانية كان حذاء الجولف الجلدي الخاص بجيم، مضموناً برباط

الحذاء... وعندما انثنى الأوراسي لمخاطبة رفيقيه المنتظرين تقدم منه جيم قائلاً بحزم:

- هذا حذائي! أعطانيه الدكتور رانسوم!

قال هذا وجذب الحذاء من يد الأوراسي، وانتظر أن يجذب مسدسه! ويأمر الحمالين بالانقضاض عليه وطرحه أرضاً.

وعلى الرغم من إنهاك جيم بتأثير الجوع وصعود السلالم إلى المدرجات إلا أنه قرر أن يثبت صلابته عوده، فانحاز الأوراسي إلى المسألة قائلاً:

- لا بأس يا فتى... لك أن تسترد الحذاء... قل هذا لأملك وأبيك!

وتقدم جيم شطر النفق الذي غمره الضوء.. فوجد جماعات من الرجال والنساء البريطانيين يجولون على غير هدى بين الدبابات والسيارات المحترقة في الساحة الخارجية، وكأنهم نجوا من الموت في الحرب لكي يلقوا حتفهم في هذا التيه.. ففي خارج الاستاد كانت شمس أغسطس أشد قيظاً والسكون يخيم مطبقاً فوق حقول الأرز البور والقنوات، والأرض كلها بدت مهجورة يغلفها جمد أبيض... ترى هل يبست الحقول وجف الزرع والضرع بفعل القنبلة الذرية التي وصفها الأوراسي؟! لم يتمالك جيم أن تذكر الضياء الأبيض الصامت الذي ملأ شعاب الاستاد وسرى إلى الأحياء في أسماهم والموتى في أجداثهم! ولهول الذكرى..

(٣٣)

الطيار الانتحاري

وقف جيم راسخ القدمين في حذائه قرب المبني الخرساني المخصص لحراسة السيارات في ساحة الانتظار.. وبدأ طريق شنغهاي يمتد بعد مدخل الاستاد شطر الضواحي الجنوبية للمدينة.. ولم تكن ثمة حركة ما في الحقول المحيطة، ولكنه شاهد على بعد ثلاثمائة ياردة سرية من الجنود الصينيين العميلة جلس أفرادها في خندق مضاد للدبابات قرب الطريق، وكانوا ممسكين ببنادقهم فيما بين ركبهم وما زالوا يلبسون كسيتهم البرتقالية المخضرة وقد التفوا حول موقد فحم مشتعل.. وما لبث واحد منهم برتبة صف ضابط أن صعد من الخندق ووقف ينتظر ويداه على خاصرتيه مراقباً جيم وهو يتقدم في الطريق..

أيقن جيم أنه لو اقترب منهم لقتلوه من أجل حذائه، وكان يعرف أنه في حالة ضعف شديد لا تمكنه من السير إلى شنغهاي، ناهيك عما ينتظره من شتى المخاطر في الطريق المكشوف.

هكذا اختار الطريق الآمن إلى مطار لانجهوا وهو لا يبعد أكثر من نصف ميل من طرفه الغربي، في منطقة تكسوها الحشائش والأقصاب البرية وتتكاثر فيها براميل الوقود الفارغة وأجزاء الطائرات المهشمة.

وفي تجواله بين هياكل الطائرات المحطمة لم يستطع مقاومة إغراء الوقوف في ظلها ولمس محركاتها وعددها وهو مفتون بها.. حتى إذا أدركه التعب جلس للراحة فوق ذيل طائرة يابانية مقاتلة من طراز هاياتي.. وتطلع بنظره إلى السماء فوق شنغهاي وهو يتوقع أن يصل الأمريكيون إلى مطار لانجهوا.. وعلى الرغم من أنه لم يأكل شيئاً منذ يومين، فقد شعر بصفاء ذهني فريد.

- آه!.. آه!

انبعث هذا الصوت المعبر عن زفرة غضب واستسلام عميقة من طرف مهبط للطائرات.. وقبل أن يتمكن جيم من الاختباء شعر بارتطام العواسج الشوكية خلف الطائرة، وإذا طيار ياباني يقف على بعد عشرين قدماً من مكانه.. وكان يرتدي زي الطيران كاملاً، وقد خيطة في كمة رقعة تحمل شعار القوات الجوية الانتحارية.. ولم يكن الطيار مسلحاً، وإن حمل عصا صنوبرية اقتلعها من سياج المطار وقد راح يهدي بالعصا على العواسج والأقصاب فيما حوله ويحدق في مضض إلى الطائرات الصدئة مرسلًا زفرات حرى وكأنما يحاول أن يثبت فيها الحركة والقدرة على الطيران.

لم يلبث جيم أن جثا على ركبتيه، مؤملاً أن يتمكن من الاحتجاب خلف ذيل الطائرة التي استراح عندها.. وقد استرعى نظره أن هذا الطيار

الضابط لم يكـد يجاوز التاسعة عشرة من عمره.. وبدا له من ضـمور بشرته وبروز عقد معصميه أن هذا الطيار الحديث العهد بالتخرج كان مثله يتضور جوعاً.

وفي تـريد الطيار الانتحاري لزفرات التبرم والضيق التي كانت تبدر منه فطن إلى وجود جيم عند ذيل الطائرة ولبث يراقبه برهة عبر العواشج والأقصاب البرية.. ثم ما لبث أن تحول عنه واستأنف تجواله المـرور لدى حوافي المطار.

وأخذ جيم يراقبه وهو يضرب الأقصاب، وربما كان يحاول أن يفسح فراغاً لطائرة هيلكوبتر لكي تهبط.. ترى هل أعد اليابانيون سلاحاً سرياً رداً على القنبلة الذرية، مثل مقاتلة صاروخية فتاكة تحتاج إلى مدرج أطول من مدرج لانجهوا؟ انتظر جيم أن يشير الطيار إلى الحراس الذين لمـهم على مـعدة، بيد أنه رآه يهز رأسه ويتقدم بين الطائرات المـطمة.. فتبعه جيم وأخذ يسير خلفه على مسافة خمسين ياردة، ثم توقف عندما وجد الطيار يقف عند طائرة يابانية مقاتلة معطوبة من طراز (زيرو) ويحاول تشغيل روافعها.. وانتظر جيم إلى أن تقدم الياباني مرة أخرى، فسار في أثره دون أن يحاول الاختفاء عن نظره.

وعلى مدار ساعة كاملة تقدم الاثنان حول الطرف الجنوبي للمطار وجيم في أثر الطيار.. ولاحـت للنظر أكشاك الشـكنات وعنابر النوم في معسكر لانجهوا.. وعلى مسافة أبعد عبر المطار بدا أفراد القاعدة الدولية اليابانية يتسكعون قرب الحـظائر المـحترقة.. وعلى الرغم من أن الطيار الفتى، كان شاعراً بأن جيم يتبعه طول الوقت إلا أنه لم يحاول

استدعاءهم.. وحدث فقط عندما وصل الاثنان إلى مرمى النظر من جنديين يحرسان مريضاً لإطلاق المدافع الرشاشة أن توقف الطيار وأوماً إلى جيم أن يتقدم منه.

ووقف الاثنان معاً إلى جانب طائرة صدئة جردت من أجنحتها على أيدي تجار الخردة... وأخذ الطيار يستنشق الهواء بقوة وهو مشتت البال بما آنسه من نظرات التقدير والإعجاب البادية في عيني جيم... وعلى الرغم من شبابه الغض إلا أنه بدا وهو أقرب إلى اليأس.. وقدر جيم أن الطيار كان موقناً من نهايته القريبة حالما تعود قوات الكومنتانج الشيوعية لاحتلال شنغهاي.

وما لبث الطيار أن رفع عصاه وقذف بها بين الحشائش، بحركة نائم أفاق من حلم... وفيما أجفل جيم من هذه الحركة مد الطيار يده إلى أحد جيوبه الفضفاضة وأخرج حبة مانجو صغيرة.

تناول جيم حبة المانجو من يد الطيار الناحلة، وكانت لا تزال دافئة بتأثير جسده.. وقد تحمل جيم على نفسه فلم يأكل حبة الفاكهة من فوره اقتداء بما أبداه الطيار من التزام بضبط النفس، ووقف ينتظر فيما راح الطيار يحدق ببصره شطر مدرج المطار.

ثم ما لبث الطيار أن ندت منه صرخة اشمئزاز أخيرة وتقدم من جيم ولطمه على رأسه مشيراً إليه أن يلتزم سياج المطار، تحذيراً له مما قد يحل به إذا هو مضى في متابعته.



(٣٤)

ثلاجة في السماء

كان لملمس حبة المانجو في فم جيم مثل ملمس لسان مسز فنسنت في يديه.. وعلى مسافة عشرة أقدام من السياح جلس جيم فوق خزان فارغ ساقط من طائرة بين الأعشاب قرب حقل أرز مغمور.. وقد ازدرد جيم اللب الطري وأخذ يمتص البذرة استخلاصًا لرحيقها... وعلى الأثر راح يفكر في حبة المانجو التالية... فلو استطاع جيم أن يرتبط بهذا الطيار الياباني الشاب ويؤدي له بعض الأعمال ويغدو مفيدًا له، لربما يفوز بمزيد من المانجو.. وبعد أيام قلائل يكون من القوة بما يمكنه من السير إلى شنغهاي... وفي خلال ذلك يصل الأمريكيون، ويتاح لجيم أن يقدم لهم الطيار الانتحاري كصديق... وسوف يتجاوز الأمريكيون لطيفة قلبهم عن الهجمات الانتحارية التي قام بها هذا الطيار ورفاقه على سفنهم حاملة الطائرات في أوكيناوا.. وعندما يستتب السلم قد يعلمه هذا الياباني الطيران!

وتهالك جيم على الأرض بتأثير عصير المانجو الذي كاد أن يكون له فعل المسكر، مسندًا ظهره إلى الخزان الفارغ.. وجعل يحدق في سطح الحقل المغمور، مقررًا أن يكون جادًا مع نفسه.. وأول كل شيء، هل يمكنه أن يتيقن أن الحرب قد انتهت فعلاً... إن الأوراسي لابس القميص الأبيض كان سلسًا لينًا بشكل مريب، موجهاً كل اهتمامه إلى سرقة الأثاث والسيارات المخزونة في الاستاد... أما فيما يتصل بتعلم الطيران، فإن الطيار الانتحاري قد لا يكون هو المعلم الأمثل.

ثم اعترى سماء أغسطس أزيز معهود، منبعث من محركات، وسرعان ما انتفض جيم قائمًا، حتى كاد يختنق ببذرة المانجو في حلقه... فأمامه مباشرة، على ارتفاع نحو ثمانمائة قدم فوق الحقول الخاوية، لاحت قاذفة أمريكية، (سوبر فورترس) ذات الأربعة محركات، وكانت تطير ببطء كبير لم يعهد جيم مثله في أي طائرة أمريكية أخرى طوال الحرب... فهل توشك يا ترى أن تهبط في مطار لانجهوا؟ لم يتمالك جيم أن راح يلوح للطيار الجالس في مقصورة القيادة تحت القبة الزجاجية... وحين مرت الطائرة من فوقه، اهتزت الأرض بعنفوان محرقاتها.

ثم تفتحت أبواب خزانات القنابل، كاشفة عن أسطوانات فضية توشك أن تسقط من مواضعها.. وكان جيم من الضعف بحيث عجز عن التحرك، فانتظر أن تنفجر القنابل من حوله... غير أن السماء ملئت بمظلات ملونة.. عشرات منها أخذت تسبح في الهواء فيما هو أقرب إلى المرح كأنما تستمتع بشمس أغسطس... إن المظلات الزاهية قد

ذكرت جيم بالبالونات المملوءة بالهواء الساخن التي كان الحواة الصينيون يرسلونها محلقة فوق حدائق أمهرست أفينو في أوج الاحتفال بأعياد الطفولة.. فهل أراد طيارو القاذفات (ب - ٢٩) أن يعملوا على تسليته، ورفع روحه المعنوية، إلى أن يتمكنوا من الهبوط؟

ومضت المظلات تسبح في الفضاء هابطة شطر معسكر لانجهوا... وقبل أن يستسلم جيم للضعف ويرقد نهائياً في ظل جناح الطائرة اليابانية المعطوبة، تحامل على نفسه وتقدم خلال العواصف والأقاصب واجتاز الحقل المغمور إلى ضفة إحدى القنوات... وعندما ارتقى إلى الجسر كانت آخر المظلات قد هوت في الحقول إلى الغرب من معسكر لانجهوا، فيما تباعد أزيز القاذفات في اتجاه نهر اليانجتسي.

واقترب جيم من المظلة القرمزية التي كانت من السعة بحيث تغطي بيتاً بأكمله وقد استقرت فوق الجسر.

كانت الأسطوانة التي حملتها المظلة قد انفجرت بتأثير الاصطدام بالأرض، فاقترب جيم وقرص عند فمها المنفتح... لقد تناثر فيما حوالبه كنز من الأطعمة المعلبة ورزم علب السجائر... فلم يتمالك جيم أن راح يزحف بين هذه الغنيمة وهو يمسح عينيه ليقراً بطاقات مختلف اللعب واللفائف... لحوم محفوظة، وفواكه مجففة، وأصابع شيكولاتة ونسكافيه، وسجائر لاكي سترايك وتشستر فيلد، ومجموعات من مجلات «ريدارز دايجست» ولايف وتايم وأساتر داي وإيفنج يوسف! إن مشهد كل هذا الطعام قد أربك جيم وحيره، وأثار في ذهنه فكرة الاختيار وهو لم يعرفها منذ سنين... وكانت المعلبات واللفائف

مجمدة، وكأنما خرجت لتوها من ثلاجة أمريكية كبيرة... وبدأ في تعبئة صندوق محطم بمعلبات اللحم واللبن المجفف وقطع الشيكولاتة ورزومة من مجلة «ريدارز دايجست».. وما لبث بعد أن فكر للمستقبل لأول مرة منذ أيام كثيرة، أن أضاف إلى ذلك لفافة سجائر تشستر فيلد... ولم يلبث جيم أن ترك الجسر وهو يحتضن كنزه المثلج وأخذ يخوض الحقل المغمور، متجهاً إلى حافة المطار.

وفجأة دوى عيار ناري من بندقية.. وشاهد جيم جندياً يابانياً يجري على ضفة القناة على بعد مائة ياردة من مكانه وهو حافي القدمين بكسوة ممزقة، وما لبث أن اختفى عن نظره بين العواصج والأقصاب في اتجاه ربوة المقبرة.

لم يجد جيم إلا أن يختفي بين سيقان أرز جافة قرب حفرة أحدثتها القنابل... وبعد برهة ظهر جندي ياباني ثان غير مسلح ولكن لا يحمل عتاده... وقد توقف برهة لالتقاط أنفاسه، وعندما تلفت حواليه عرف فيه جيم وجه النفر كيمورا.

كان لفيف من الرجال الأوروبيين يتبعونه على امتداد الجسر وبأيديهم هراوات من الخيزران... وكان أحد الرجال يحمل بندقية، غير أن كيمورا تجاهله ووقف يسوي عتاده، ثم استأنف سيره متجهاً إلى الحقل المغمور، فلم يقطع أكثر من عشر خطوات حتى دوى صوت عيار بندقية ثان.

لقد هوى النفر كيمورا على وجهه في المياه الضحلة... وانتظر جيم في مكمنه فيما اقترب الأوروبيون الأربعة من المظلة المنتشرة

على الأرض، وأخذ يتسمع شجارهم العصبي... كانوا من الأسرى
البريطانيين السابقين، حفاة الأقدام ممزقي البنطلونات القصيرة، وإن
لم يكونوا من نزلاء معسكر لانجهوا... وكان زعيمهم إنجليزياً متهيجاً
كانت قبضته ملفوفتين بضمادات متسخة... وبدأ لجيم أنه كان سجيناً
مدى سنوات في زنزانة تحت الأرض لفرط بياض بشرته التي بدت
في الشمس كأنها لحم قوقعة أخرجت من محارثها... ومضى يلوح
بيديه المعصوبتين الداميتين دلالة على ما يجيش في صدره من غضب
واحتياج.

وبدأ الرجال الأربعة يلفون قماش المظلة الهابطة... وعلى الرغم
من تضورهم جوعاً خلال الشهور الأخيرة، فإنهم أخذوا يعملون بسرعة
وعكفوا على الأسطوانة حتى أعادوا ملأها بما تناثر من محتوياتها
وسحبوها على امتداد الضفة.

راقبهم جيم وهم يتجهون فيما بين القبور شطر معسكر لانجهوا..
وقد شعر بإغراء اللحاق بهم والانضمام إليهم، بيد أن كل الحذر الذي
تعلمه في السنوات الماضية جعله يحاذر من تعريض نفسه للأخطار...
وكان النفر كيمورا ممدداً في المياه الضحلة على بعد خمسين قدماً، وقد
علت ظهره بقعة حمراء كأنها مظلة غارقة.

وبعد ربع ساعة عندما يقن جيم أن أحداً لا يراقبه في نطاق الحقول
المجاورة، برز من بين سيقان الأرز البرية وعاد إلى مكمنه بين الطائفة
المحطمة.

أسرع جيم دون أن يكلف نفسه عناء غسل يديه من مياه الحقل ونزع

مفتاح علبة اللحم المحفوظ وطوى به غطاءها المعدني... وفي الحال هبت رائحة نفاذة من كتلة اللحم الوردي المكتنز في العلبة، والتي بدت في ضوء الشمس مثل جرح... فدس أصابعه في اللحم ورفع قطعة إلى شفثيه... لقد امتلأ فمه بنكهة غريبة ولكن سائغة، هي مذاق الشحم الحيواني... وبعد سنوات من الأرز المسلوق والبطاطا غدا فمه يموج بمبتلات رائعة... وراح يمضغ في أناة تامة كما علمه الدكتور رانسوم، مستخلصاً كل ذرة من التغذية في كل مضغعة، إلى أن أتى على اللحم كله.

ولما شعر بالعطش بعد كل هذه الأملاح فتح علبة (كليم) ليجد فيها مسحوقاً أبيض.. فحشا فمه بالحبيبات الدسمة، ومد يده إلى حافة الحقل المغمور واغترف غرفة من المياه الدافئة رفعها إلى شفثيه... وسرعان ما استحالت إلى رغوة بدسامة الكريم كادت تخنقه، حتى اضطر أن يلفظ هذه النافورة، المتدفقة أرضاً، مشفقاً أن يتعرض للموت جوعاً لأنه نسي كيف يأكل! ثم تاب إلى عقله وقرأ التعليمات المكتوبة على العلبة، وخلط قدرًا من المسحوق في اللبن المجفف الذي طفا دسمه في الشمس مثل الزيت الطافي فوق القنوات والخلجان في المنطقة.

إن الطعام الذي تناوله جيم دوخه حتى لم يستطع إلا أن يستلقي على ظهره بين الحشائش الساخنة، وأخذ يمتص هائئاً قطعة من الشيكولاتة اليابسة الحلوة... لقد أكل أحلى وجبة في حياته، حتى لقد تكورت بطنه تحت أضلاعه وكأنها كرة قدم... ثم عمد إلى علبة اللحم الثانية وأزال

عنها الوحل، منتظرًا أن يظهر الطيار الياباني مرة ثانية، فيوفيه ما أسدى إليه من صنيع بحبة المانجو.

وعلى بعد ثلاثة أميال غربًا في قرب معسكري لانجهوا وفسيكايوي، كانت عشرات من المظلات الملونة تتساقط من طائرات (ب - ٢٩) التي كانت تجوب سماء أغسطس... ولم يتمالك وهو محاط بكل هذه الوفرة الأمريكية الهابطة في الفضاء، أن راح يضحك لنفسه سعيدًا قير العين... ثم بدأ وجبته الثانية والأهم، فأخذ يلتهم ما في بطون أعداد «ريدارز دايجست» التهامًا... وكانت بيضاء ناصعة وأبعد ما تكون شبهًا بالنسخ المتسخة التي قرأها في لانجهوا.. وكانت حافلة، بعناوين ومقتطفات من عالم لم يعرفه قط من قبل، وبعديد من الأسماء التي لم يكن يتصورها: أيزنهاور... هملر... يوثاه... فون راندستيد - إلى ألوف التفاصيل عن الحرب في أوروبا... ووجد فيها وصفًا لمغامرات بطولية كأنها في كوكب آخر، أو عالم بعيد كل البعد عن الحرب التي عرفها جيم لدى مصب نهر اليانجتسي، ذلك النهر الكبير الذي رغم كبره لا يكاد يتسع لابتلاع كل موتى الصين... وفي سعادته بهذه الوليمة الفكرية لم يتمالك أن غلبه النعاس فترة... وحتى لا تأخذه المجلات عن كل ما حوله، عاد يتذكر الضياء الأبيض للقنبلة الذرية في نجازاكي، تلك التي رأى وهجها منعكسًا عبر بحر الصين... إن هالتها الباهتة كانت لا تزال تحوم فوق الحقول الصامتة!



(٣٥)

اللفتنانة برايس

بحلول ما بعد الظهيرة كان جيم قد نال كفايته من الراحة، وأقبل على تناول وجبة ثانية... إن اللحم الدافئ الذي لم يعد مثلجًا كما كان في القاذفات (ب - ٢٩) لم يلبث أن انزلق من أصابعه إلى الأرض التربة... فسارع باسترداد كتلة اللحم وأزال عنها الذباب والوسخ، ثم ازدردها مستعينًا بما بقي من اللبن المذاب.

وراح وهو يمضغ الشيكولاتة يراقب القاذفات (ب - ٢٩) وهي تحلق عبر الإقليم على بعد ميلين إلى الجنوب الغربي، ترافقها مقاتلة من طراز موستانج كانت تدور من حولها بارتفاع ألف قدم عنها... وكانت المظلات الملونة تسبح إلى الأرض تباعًا، ولعلها كانت تستهدف فريقًا من أسرى لانجهوا المنهوكين ممن تخلي عنهم اليابانيون أثناء مسيرتهم من ناتتاو إلى الاستاد.

ثم تحول جيم بنظره شطر سماء شنغهاي... فهل هو من القوة بحيث يستطيع أن يسير الأميال القليلة الخطرة إلى الضواحي الغربية؟ ربما كان أبواه قد عادا إلى البيت في أمهرست أفينو؟ وقد يكونان جائعين بعد الرحلة من سوشوا، فيفرحان بعلبة اللحم الأخيرة ولفافة سجائر تشستر فيلد! لقد ابتسم جيم لنفسه وهو يفكر في أمه - إنه قد لا يستطيع أن يتذكر وجهها، لكن بوسعه أن يتصور إقبالها على علبة اللحم... وكتحية إضافية فسوف يتوفر لها الكثير للقراءة.

ونفض جيم على الأثر، متلهفًا لبدء مسيرة العودة إلى شنغهاي... ولم يتمالك أن ربت على بطنه المكورة، مشفقًا أن يكون ثمة مرض ينجم عن الإسراف في الطعام... وفي تلك اللحظة وقع نظره من خلال أغصان الأشجار على وجوه تتجه نحوه... كانوا ستة جنود صينيين يمرون قرب الطائرة المحطمة سالكين الطريق الدائري حول المطار... كانوا من شمالي الصين طوال القامة، أقوياء العظام، يرتدون الزي العسكري الكامل وتعلو أغطية رؤوسهم الرخوة خمسة نجوم، وكان زعيمهم يحمل مدفعًا رشاشًا أجنبي الطراز... وكان أصغر رجاله سنًا وأكثرهم نحافة، تلوح من نظراته أنه محاسب أو طالب.

وما لبث الجنود الستة أن مروا بالطائرة المهجورة على بعد عشرين خطوة من جيم وقد بدا أنهم قطعوا مسافة طويلة... وكان جيم قد أخفى علبة اللحم ولفافة علب السجائر خلف ظهره، متصورًا أنهم من الشيوعيين الصينيين، ولا شك أنهم يكرهون الأمريكيين، ولو أبصروا السجائر فقد يطلقون النار عليه قبل أن يستطيع أي بيان أو تفسير.

بىد أن الجنود نظروا إليه بغير اهتمام، ومضوا في طريقهم مسرعين حتى اختفوا بين الأشجار... فتقدم جيم وعبر سياج المطار بحثاً عن الطيار الياباني... فقد أراد تحذيره من هؤلاء الجنود الشيوعيين، الذين سيقتلونه حالما يرونه.

وفي خلال ذلك استقر عزمه على ألا يسير وحيداً إلى شنغهاي... فإن مناطق لانجهوا ونانتاو مليئة بالرجال المسلحين.

كان يتعين عليه أن يرجع أولاً إلى المعسكر، ثم ينضم إلى الأسرى البريطانيين الذين أطلقوا النار على النفر كيمورا... وحالما يتاح لهم استرداد قواهم، فقد يفضلون أن يقصدوا إلى البارات ونوادي الليل في شنغهاي، ولسوف يكون جيم بما اكتسبه من خبرة في صحبة مستر ماكستيد خير دليل لهم.

وعلى الرغم من أن أبواب معسكر لانجهوا كانت تبعد عنه بما يزيد قليلاً على الميل، فإن جيم استغرق ساعتين في اجتياز المنطقة الخلوية التي يتأثر فيها الحطام المتولد من الغارات الجوية والسيارات العسكرية المحترقة والخنادق وجثث القتلى من أفراد القوات الصينية العميلة.

وكان جيم يسير على امتداد الطريق الصامت وهو يراقب طائرة أمريكية مقاتلة تحلق آتية من الغرب على ارتفاع منخفض حتى استطاع أن يبصر قائدها في مقصورة القيادة وأن يميز مدافعها الرشاشة وهي مسددة للانطلاق... وخطر له أن الطيار قد يقتله من باب التسلية... فرفع لفافة سجائر تشسترفيلد ومجلة «ريدارز دايجست» في الهواء مبرزاً إياهما للطيار وكأنهما جواز مرور... وإذا الطيار يلوح له بيده

ويغير اتجاه الطائرة شطر شنغهاي.

إن وجود هذا الطيار الأمريكي قد رفع روحه المعنوية، فاجتاز المائة ياردة الأخيرة إلى المعسكر بثقة واطمئنان.. وكان مشهد الأبنية المقهورة وبرج الحراسة والأسلاك الشائكة باعثاً على زيادة طمأنينته... ها هو ذا عائد إلى بيته الحقيقي... وإذا كانت شنغهاي متعازمة الخطر، فربما تفارق أمه وأبوه أمهرست أفينو وتقدمان للحياة معه في لانجهوا... وربما كان من دواعي الأسف أن الجنود اليابانيين قد لا يكونون موجودين في المعسكر لحمايتهم.

وقد دهش جيم لدى وصوله إلى المعسكر إذ وجد القرويين الصينيين والفارين من الجيش قد عادوا إلى موقعهم السابق قرب الأبواب... كانوا جالسين القرفصاء في الشمس يحدقون صابرين في البريطاني الذي وقف داخل الأسلاك وقد تدلى من خاصرته الناحلتين مسدس في جرابه... لقد عرف فيه جيم مستر تولوك كبير الميكانيكيين في توكيل سيارات الباكار في شنغهاي، الذي أمضى الحرب بأسرها وهو يلعب الورق في المبنى (د)، والذي كان لا يكف عن المشاجرة مع الدكتور رانسوم لرفضه المساعدة في عملية الصرف الصحي... وكان جيم قد شاهده لآخر مرة ممدداً خارج المخفر بعد محاولته الفاشلة للسير إلى شنغهاي.

وشاهده جيم الآن ماشياً الهويناً لدى البوابة، وهو يعبث بجرح ملوث في شفته، ويراقب ما يجري من نشاط في ساحة العرض... وكان ثمة بريطانيان آخران يسحبان مظلة هابطة مع أسطوانتها إلى داخل

المخفر، فيما وقف شخص ثالث فوق السطح يرصد الإقليم بنظارات
يابانية مكبرة.

قال جيم وهو يجذب البوابة بين صلصلة سلاسلها وقفلها:

- مستر تولوك! مستر تولوك! إنك أقفلت البوابة...

حدق تولوك بامتعاض إلى جيم، وقد بدا واضحًا أنه لم يعرف
هذا الفتى ابن الرابعة عشرة الممزق الملابس، وقد ارتاب في أمر لفافة
السجائر، ثم قال:

- من أين جئت بحق جهنم؟ هل أنت بريطاني يا ولد؟

- يا مستر تولوك... إنني كنت في لانجهوا! إنني عشت هنا ثلاث
سنوات!

وعندما همَّ تولوك بالابتعاد صاح جيم:

- ... إنني اشتغلت في المستشفى، مع الدكتور رانسوم!

فعاد تولوك إلى البوابة وهو يتفرس في جيم متشككًا، وقال:

- دكتور رانسوم؟ دكتور المرض والأوساخ؟!

- هو ذاك يا مستر تولوك... وكنت أنا المكلف بإزالة الأوساخ...

لا بد لي من الذهاب إلى شنغهاي والعثور على أمي وأبي... كانت لنا
سيارة باكار يا مستر تولوك...

- كان يزيل الأوساخ؟!

ردد تولوك هذا الكلام بغلظة وهو يخرج حلقة المفاتيح من جراب

المسدس الذي كان مملوكًا للجاويش ناجاتا... ثم أضاف وما زال
مرتدًا في إدخال جيم إلى المعسكر:

- قلت سيارة باكار؟ هي سيارة ممتازة.

وفتح البوابة وسمح لجيم بالدخول... وعلى صوت الصليل
خرج البغل الإنجليزي ذو اليدين المضمدين الذي صرع النفر كيمورا
برصاصة في ظهره من داخل المخفر، وأوماً بيده نحو جيم قائلاً:

- أغلق البوابة! اقذف به إلى الخارج!

- يا برايس! أنا أعرف الفتى... إن أهله اشتروا منا سيارة باكار..

- تخلص منه! وإلا سمحنا لكل من عنده سيارة باكار بالدخول

إلى هنا!

- أصبت يا ليفتنانت... ابعدي يا فتى!

حاول جيم أن يُبقي البوابة مفتوحة بحذائه الجولف، فلكمه
الليفتنانت برايسي في صدره بيده المعصوبة.

ارتدى جيم جالسًا على الأرض متضايقًا إلى جوار الصينيين الذين
كانوا يراقبون ما يحدث... وقد تشبث بعلبة اللحم ولفافة السجائر، غير
أن المجالات الست التي كانت داخل قميصه انزلقت بين الحشائش،
فتلقفتها النسوة القرويات على الفور... وجلست هؤلاء النسوة
المتضورات من الجوع بينطلوناتهن السوداء، وقد أمسكت كل واحدة
منهن بنسخة من المجلة وكأنهن على وشك الاشتراك في مناقشة عن
الحرب!

وصفق برايس البوابة في وجوه الجميع... كان كل ما حوله يثيره:
المعسكر، وحقول الأرز البور الخاوية، وضي الشمس ذاتها - كل
أولئك كان يثير غضبه... وقد هز رأسه في وجه جيم، وما إن لمح علبة
اللحمة في يده حتى قال:

- من أين جئت بهذا؟ إن ما يسقط على أرض لانجهوا هو ملكنا!
وصرخ في وجوه القرويات، مرتاباً في مشاركتهن في هذه السرقة،
ثم أردف:

- تولوك...! إنهم يسرقون معلباتنا!

وفتح قفل البوابة منتوياً انتزاع العلبة من جيم، عندما ارتفعت صيحة
من برج المراقبة... وهبط الرجل حامل المنظار المكبر درجات السلم
وهو يشير إلى الحقول الممتدة فيما بعد طريق شنغهاي.

فقد ظهرت طائرتان من طراز (ب- ٢٩) من ناحية الغرب وهدير
محركاتها بتجاوب في أرجاء الأرض المهجورة... وعندما لاح لهما
المعسكر افترقتا، فحلقت إحداهما في اتجاه لانجهوا وقد تفتحت منافذ
قذف القنابل لتكشف عن المعلبات المعدنية، وغيرت الأخرى اتجاهها
شطر إقليم بوتانج إلى الشرق من شنغهاي.

وفيما تباعد هدير الطائرات وجيم جالس القرفصاء بجانب
القرويات، ظل برايس مع ثلاثة من البريطانيين وهم مسلحون ببندقية
وهراوات الخيزران وخرجوا من البوابة راكضين شطر الحقول
المجاورة... وفي خلال ذلك امتلأت السماء بالمظلات الملونة وأخذن

تسبح هابطة إلى الحقول على بعد نصف ميل من المعسكر.

وعندئذ تملك جيم الإغراء بمتابعة برايس ورجاله وتقديم المساعدة لهم... وأخذت المظلات تستقر على الأرض خلف سلسلة من الخنادق المهجورة... وراح البريطانيون يركضون في جميع الاتجاهات جهلاً منهم بمعالم الطريق... وارتقى برايس ربوة وأخذ يلوح ببندقيته مهتاجاً... وانزلق أحد الرجال في قناة ضحلة وأخذ يخوض بين الحشائش دائراً على نفسه، فيما راح الباقون يركضون على امتداد كثبان الوصول فيما بين حقول الأرز.

وبينما كان تولوك يراقب هذا ميؤوساً مغلوباً على أمره، لم يلبث جيم أن مر بجانبه من خلال البوابة وقد بدا عليه الانفعال المتزايد لرؤية المظلات الهابطة بأحمالها... وهنا قال له جيم:

- مستر تولوك.. هل انتهت الحرب... انتهت فعلاً؟

فأجاب تولوك وقد نسي أنه كانت هناك حرب:

- الحرب؟ من الخير أن تنتهي يا فتى... في أي وقت من الآن فإن

الحرب القادمة ستقوم!

- إنني رأيت بعض الجنود الشيوعيين يا مستر تولوك.

- هم في كل مكان... انظر حتى ترى الليفتنانت برايس يتعامل

معهم... إننا سنقبلك في المخفر يا فتى... وعليك أن تبعد عن طريقه.

وتبعه جيم عبر ساحة العرض ودخل الاثنان المخفر... كانت

أرضية غرفة الحرس المعروفة بنظافتها مغطاة بالقذر والنفايات...

وبدت التقاويم والمستندات اليابانية متناثرة بين لفائف سجائر «لاكي سترايك» الفارغة وأحذية المشاة الممزقة... وتكدست عند الحائط الخلفي لمكتب القومندان عشرات من صناديق التموين... وجلس على كرسي خيزراني بلا ظهر بريطاني عار في أواخر الخمسينيات كان يعمل «بارمان» في نادي شنغهاي اليفي منهمكاً في فصل علب اللحوم عن أكياس اللبن ولفائف السجائر... وقام بصف الشيكولاتة فوق مكتب القومندان، ثم طوح بفضاظة بحزم مجلات «ريدارز دايجست» والساترداي «إيفننج نيوز»، حتى غطت المجلات أرض المكتب كلها... وإلى جانب هذا الرجل جلس جندي بريطاني شاب بكسوته الممزقة يقطع حبال النايلون من المظلات ويلفها في ربطات محكمة، ثم يطوي قماش المظلات بخبرة ومهارة.

لقد راح تولوك يقلب النظر في مستودع الكنز هذا وهو مبهور بالثراء الذي استطاع تكديسه هو ورفاقه... وما لبث أن دفع جيم عن الباب إشفاقاً من أن تعبت أكداس الشيكولاتة بعقل الفتى.

- لا تطمع في هذا يا بني... كل ما معك من علبة اللحم.

غير أن جيم كان يحدق في المجلات المكومة على الأرض عند قدميه... كان يريد أن يتولى ترتيبها، والاحتفاظ بها ذخراً للحرب القادمة! وما لبث أن قال:

- مستر تولوك... لا بد أن أعود إلى شنغهاي الآن.

- شنغهاي؟ لا يوجد فيها غير ستة ملايين من الحمّالين المتضورين

جوعاً؟ إنهم سيسلخون جلدك قبل أن تدخلها!

- يا مستر تولوك... إن أمي وأبي...

- يا فتى! لا أمهات ولا آباء في شنغهاي! هنا كل شيء يسقط علينا

من السماء!

في هذه اللحظة دوى صوت عيار ناري من بندقية في أرجاء حقول الأرز، تبعه عياران آخران على الأثر... وسرعان ما جرى تولوك وزميله إلى خارج المحفر تاركين «البارمان» العاري لحماية كنزهم الثمين وصعدا سلالم برج المراقبة.

أخذ جيم يرتب المجلات فوق أرض مكتب القومندان، بيد أن «البارمان» صرخ فيه وطرده... فانتقل جيم إلى ساحة الزنزانات خلف غرفة الحرس... ووقف وبيده علبة اللحم يحدق إلى داخل الزنزانات الخالية وإلى حوائطها المملوطة بالدماء والملوثة بالمخلفات البشرية.

وفي زنزانة في أقصى الساحة وقع نظره على جثة جندي ياباني خلف حصير من القش مدلى فوق القضبان.

كان الجندي ممدداً على الدكة الخرسانية التي كانت هي الأثاث الوحيد في الزنزانة... وكان مهشم الرأس مثل قلب بطيخة، امتلأت بدل البذور السوداء بمئات الذباب!

راح جيم يحدق من خلال القضبان إلى الجندي مصعوقاً وقد روعه أن أحد اليابانيين الذين تولوا حراسته طوال تلك السنوات قد سجن ثم استهدف لضرب مميت في إحدى الزنزانات التي أعدها قومه... إن

جيم قد تلقى موت النفر كيمورا كحادث عابر في حقول الأرز البور، ولكن هذا الحادث الجديد الذي عكس كافة القواعد التي تحكم الحياة في المعسكر قد أقنعه بأن الحرب لا بد قد انتهت.

ولم يلبث أن ترك ساحة الزنانات وعاد إلى مكتب الحرس... وقد جلس خلف مكتب الجاويش ناجاتا وهو ترف لم يسمح له به قط من قبل وأخذ يقرأ في مجلتي لايف و«ساترداي ايفننج بوست»... ولأول مرة لم تستطع الإعلانات الجذابة والعناوين البراقة والشعارات المغرية عن السيارات أن تستهويه.. فبالرغم من الطعام الذي أكله، شعر بقصور ذهني عن إيجاد سبيل لبلوغ شغفها... لقد دب الخلل في كل شيء... فهذا هو ذا السلام قد حل، ولكنه لم ينسجم مع مجريات الواقع.

ووصلت إلى سماعه الأصوات الغاضبة للبريطانيين العائدين من حملتهم بين الحقول... إنهم لم يستطيعوا أن يظفروا رغم كل جهودهم بأكثر من حمل مظلتين.. وفيما وقف الليفتنانت برايس حارساً على البوابة والبندقية تهتز بين يديه، تولى الباقون إدخال اللفافات إلى المعسكر... أما المظلات الباقية فقد تبخرت في قلب المنطقة تحت أنف برايس، ربما بفعل سكان المقابر المستخفين!

وانهمك الرجال في إفراغ الأطعمة والسجائر تحت إشراف الليفتنانت برايس وهو منفعل ومنهك في وقت واحد، متأهب لإفراغ انفعالاته في كل من يعترض سبيله كأنما يتبغي الانتقام لنفسه لما ناله من تعذيب وهوان طوال السنوات الماضية.

وعندما لاحظ وجود جيم يقرأ المجلات خلف مكتب الجاويش
ناجاتا، صاح قائلاً:

- تولوك! هل جاء إلى هنا مرة ثانية؟ الولد ربيب السيارة الباكار؟!
- إن الفتى كان في المعسكر من قبل يا ليفتنانت... وكان يساعد
أحد الأطباء.

- إنه يتجول في كل مكان! احبسه في إحدى الزنانات!
فأمسك تولوك بذراع جيم على كره منه لكي يقوده إلى ساحة
الزنانات، قائلاً:

- إنه مشى طول المسافة من استاد نانتاو.

- نانتاو؟! الاستاد الكبير؟!

قال برايس هذا ملتفتاً إلى جيم باهتمام، وقال له:

- كم لبثت هناك يا ولد؟

فأجاب جيم: ثلاثة أيام... وأظن أنها ستة أيام... إلى أن انتهت
الحرب.

- لا يمكنه أن يحسب؟!

- لا بد أنه شاهد كل شيء هناك يا ليفتنانت.

- أراهن إنه عرف الكثير وهو دائم التجوال.. قل لي يا ولد، ماذا
رأيت في الاستاد؟ بنادق؟ مخازن؟

فأجاب جيم: سيارات.. على الأقل خمس سيارات بويك،

وسيارتان كاديلاك، وسيارة لنكولن زفير.

- انس مسألة السيارات... هل ولدت في جراح؟! ماذا رأيت غير ذلك؟

- مجموعة من السجاير والأثاث.

فتدخل تولوك قائلاً: معاطف فراء؟

- وماذا عن الويسكي الإسكتلندي يا بني؟

وعندئذ جذب برايس مجلة لايف من يد جيم قائلاً:

- إنك ستعمى عينيك بالقراءة! استمع إلى مستر تولوك؟ هل رأيت أي ويسكي إسكتلندي؟

تراجع جيم إلى الخلف جاعلاً لفائف المعلبات حاجزاً بينه وبين هذا الرجل المتقلب... فإن انفعاله بما سمع عن الغنائم في استاد نانتاو أجرى الدم في عروقه حتى بدا من خلال ضمادات يديه... وقد أدرك جيم أن الليفتنانت برايس يود لو استطاع أن ينفرد به وينهال عليه ضرباً حتى الموت، وكان ما يستهدف له جيم من هذا كفيل بتعويضه عما لقي من تعذيب وآلام!

ومهما يكن فقد رد جيم بلباقة:

- ربما كان هناك ويسكي إسكتلندي مخزون في بوفيهات غرف المائدة.

- حسن يا ولد... ما الذي رأيته غير ذلك؟

فأجاب جيم بصوت رنان:

- رأيت القنبلة الذرية تسقط فوق ناجازاكي.

ما إن سمع الرجال هذا حتى وضعوا ما بين أيديهم من معلبات الطعام والشراب، بينما حدق الليفتنانت برايس في جيم وقد أدهشه هذا التصريح، ولكنه بدا على استعداد لتصديقه... وما لبث أن أشعل سيجارة، وسمعت طائرة موستانج تحلق فوق المعسكر، عائدة إلى قاعدتها في أوكلانوا..

وخلال هذا الضجيج صاح جيم:

- إنني رأيت القنبلة الذرية!

فقال برايس وهو يشد الضمادات حول قبضتيه:

- نعم.. لا بد أنك رأيته.

وجعل يمتص السيجارة بعنف... وبنظرة صارمة إلى جيم أخذ نسخة مجلة لايف وغادر مكتب القومندان... وبينما كان هدير الطائرة يتباعد عبر حقول الأرز، كان الحاضرون يسمعون وهو يخطو في ساحة الزنانات جيئة وذهاباً، ضارباً أبواب الزنانات بنسخة المجلة الملفوفة.



(٣٦)

الذباب

هل اعتقد الليفتنانت برايس أنه قد تسمم بفعل القنبلة الذرية؟
خطر هذا السؤال لجيم وهو يمر عبر ساحة العرض متطلعاً إلى
أكشاك الثكنات وأبنية عنابر النوم الخاوية... وبدأت النوافذ مفتوحة
في ضوء الشمس، كأن سكانها قد فروا لدى مقدمه... إن ذكر غارة
نجازاكي، وما بدا من انفعال برايس بالغنائم التي تنتظره في استاد نانتاو،
قد أدى إلى تهدئة هذا الضابط السابق في شرطة نانكنج... ولقد لبث
جيم ساعة وهو يساعد الرجال في فك لفائف الأطعمة الهابطة عليهم
من السماء، ولم يعترض برايس عندما أعطى تولوك المتطوع الصغير
قطعة من الشيكولاتة... فإن صور الجوع والعنف التي قاساها برايس في
زنزانه تحت الأرض طيلة أربع سنوات كانت لا تزال تعتمل في ذاكرته.
ولم يلبث جيم أن ارتقى درجات السلالم إلى ردهة المبنى السكني
(د) ومعه علبة اللحم المحفوظ ورزمة من مجلة لايف... وفي عنابر
النوم راح يمشي الهوينا بين صفوف الأسرة الخشبية الصغيرة... وعلى
الرغم من هذا الخواء فقد بدا وكأن المعسكر على استعداد لاستقبال

قادمين جدد... وتوقف جيم عند مدخل مهجعه السالف وهو لا يكاد يدهش لرؤية الصور المقتطعة من المجلات ما تزال ملصقة على الحائط فوق فراشه... وفي الدقائق الأخيرة قبيل رحيل مسز فنسنت مع المسيرة أزال الستار عن مهجعه، شفاء لحاجتها المكتومة لاحتلال الغرفة كاملة.

وكانت تفوح في الغرفة رائحة ملحوظة وهي رائحة لم يفتن إليها من قبل طوال سنوات الحرب -رائحة مغرية وغامضة... لقد أدرك أنها رائحة جسد مسز فنسنت، وتصور لحظة أنها عادت إلى المعسكر... وما لبث جيم أن تمدد في فراش مسز فنسنت، واضعًا علبة اللحم فوق جبينه... وراح يستعرض الغرفة من هذه الزاوية، وهي مزية لم يسمح له أن ينالها أثناء الحرب... فقد بدا له مهجعه المنزوي خلف الباب أقرب شبهًا بأوكار المتسولين في شتغهاي المقامة من الجرائد والحصير... ولا بد أنه غالبًا ما كان يبدو في نظر مسز فنسنت مثل حيوان في مربضه... فلا غرابة، كما خطر لجيم وهو يتصفح مجلة لايف، إذا ضاقت مسز فنسنت به ذلك الضيق الشديد وكانت تود أن يبتعد عنها حتى إلى حد أن تتمنى موته!

رقد جيم إذن فوق مرتبتها القش مشتمًا رائحة جسدها، جاعلاً خاصرتيه وكفيه في الفراغ المتخلف عنها... ومن وجهة نظر مسز فنسنت، فلعل تلك السنوات الثلاث التي قضتها حبيسة الغرفة المجزأة، كانت بمثابة حرب أخرى - حرب نفسية مضطربة وهي حليفة زوج قعيد وصبي عليل!

إن تفكير جيم الودي العطوف حيال مسز فنسنت جعله يود لو أنهما كانا لا يزالان جنبًا إلى جنب معًا... ثم إنه افتقد الدكتور رانسوم ومسز بيرس المبشرة ومجموعة الرجال الذين كانوا يجلسون طيلة النهار على عتبات المبنى السكني.

وبدا له أنهم ربما كانوا هم أيضًا يفتقدون لانجهوا... ولعله يجيء يوم يعودون فيه جميعًا إلى المعسكر!

وما لبث جيم أن ترك الغرفة واجتاز الردهة إلى الباب الخلفي وعم شطر المستشفى، حيث وجد الستائر الخيزرانية مسدلة على النوافذ كأن الدكتور رانسوم أراد أن ينام المرضى خلال فترة بعد الظهيرة... وصعد جيم الدرجات، وما يكاد يدفع الباب حتى احتوته سحابة من الذباب كادت تخنق أنفاسه... فأخذ يهشه عن فمه بقوة ودلف إلى عنبر نوم الرجال... كانت رائحة الفساد تملأ المكان وجثث الموتى مكدسة فوق الأسرة... فإن عشرات من الأسرى الذين قضوا نحبتهم بعد عجزهم عن اللحاق بالمسيرة بدو وهو متراصون فوق الأسرة جنبًا لجنب وكأنهم ذبائح في مجزر حيواني.

اجتاز جيم العنبر المعتم وعلبة اللحم مضمومة بحرص إلى صدره وهو يلتقط أنفاسه من خلال المجلات الملفوفة حول فمه... وقد تعرف بين الموتى على عديد من الأسرى، غير أنه لم يجد بينهم الدكتور رانسوم ولا مسز فنسنت... وكان الذباب يكسو الجثث، وكأنه أدرك أن الحرب قد انتهت وصمم على استبقاء كل مزقة لحم للقحط القادم بحلول السلم!

وانتقل جيم إلى صديقه المطبخ... فسار بين النباتات الذابلة، مفكرًا فيما إذا كان يتعين عليه ربهها، والتقط الحبتين الأخيرتين من الطماطم... وعندما رفع الثمرتين إلى فمه توقف قبل أن يأكلهما... فقد تذكر مخاوفه من أن روحه قد ماتت في استاد نانتاو، حتى وإن ظل جسده باقياً على قيد الحياة... وإذا كانت روحه قد عجزت عن الإفلات، وماتت في داخله، فهل يمكن أن يؤدي إطعام جسده إلى بعث الحياة فيه من جديد؟!

* * *

جلس جيم في شرفة مبنى الجمعية العمومية وهو يفكر في ليلته الأخيرة في استاد نانتاو... وحوالي العصر وصل إلى بوابة المعسكر تاجر صيني بصحبة ثلاثة حمالين... وكانوا يحملون قدورًا من الفخار بها نبيذ الأرز مشدودة إلى ظهورهم.

وشاهد جيم عملية المقايضة تتم خارج المخفر... وكان الليفتنانت برايس قد احتاط وأغلق باب مكتب القومندان على كنز الأطعمة، وقايض فقط على مظلة واحدة وجاء بقدور النبيذ - وما إن انصرف التاجر يتبعه رجاله حاملين بالة من قماش المظلة الحريري حتى انهمك البريطانيون في معاقرة النبيذ إلى حد السكر.

قرر جيم ألا يعود إلى المخفر هذه الليلة، فقد شاهد الليفتنانت برايس يتطاول بصورة منذرة بالشر، وبدأت الجروح المتخلفة على صدره من التعذيب الماضي وقد زادت التهابًا بتأثير الخمر.

وظل جيم في مكانه بالشرفة يسرح النظر عبر مطار لانجهوا... وما لبث أن فتح علبة اللحم يحذر... من المحزن أن الدكتور رانسوم

ليس معه الآن لكي يقاسمه اللحم... وكان وهو يأكل يسمع الصرخات
المخمورة الصادرة من المخفر، وطلقات رصاص البندقية التي كان
الليفتنانت برايس يرسلها فوق رؤوس الصينيين لدى البوابة... إن هذا
المخلوق الأبرص البشرة من طول البقاء في الزنزانة تحت الأرضية أربع
سنوات والمضمد اليدين، كان يبعث الفزع في قلب جيم، وكأنه ميت
بعث من قبره لكي يضرم نيران حرب جديدة!

وعاد جيم يسرح الطرف في خريطة المطار حيث كان يجد السكينة
التي افتقدها مع أمثال برايس وطغمته... وتذكر الطيار الياباني الفتى
الذي رآه يتقدم بين العواسج والأقصاب ممسكاً بيده عصا الخيزران
وهو يتفقد الطائرات المعطوبة بحثاً عن طائرة تصلح للتحليق تحقيقاً
للمرسالة الانتحارية الغربية، فتملكه حنين بالغ للتحليق في الجو استجابة
لتلك النوازع الغلابة التي كانت تجيش في صدره منذ نعومة أظافره.



(٣٧)

غرفة محجوزة

عقب الفجر مباشرة استيقظ جيم من نومه على صوت أوائل طائرات الاستطلاع الأمريكية المقاتلة... لقد أمضى ليلته نائمًا في فراش مسز فنسنت... وبعد ساعة بدأ إسقاط الأغذية إلى معسكرات أسرى الحرب المجاورة لشنغهاي، وكانت أسراب طائرات (ب-٢٩) لا تكف عن التحليق فوق حقول الأرز الخاوية.

وبانتهاء الحرب الفعلية لم تعد القاذفات الأمريكية التي أصبحت توزع الأغذية بدل القنابل تدقق كثير في تحديد المناطق المستهدفة بعملياتها تلك، ولهذا شعر كل من تولوك والليفتنانت برايس بكثير من الامتناع إذ كانت الطائرات تسقط حمولاتها فوق الحقول المكشوفة حول المعسكر، ثم تطوي منافذها وتعود الهوبنا إلى قواعدها بعد أداء عمل اليوم.

ترى متى يصل الجيش والأسطول الأمريكي إلى شنغهاي؟ كان جيم يتفحص من سطح المبنى السكني (ج) صفحة النهر الهادئ على بعد ثلاثة أميال شمالاً... لم يكن ثمة شك في أن الأمريكيين التزموا جانب الحذر لعدم التوغل في نهر اليانجتسي، خوفًا من أن يكون

قادة الغواصات اليابانية ربما قرروا عدم الاستسلام... لكن إلى حين وصولهم، فقد رأى جيم أن من أشد الخطر أن يسعى للبحث عن أمه وأبيه - فقد كانت شنغهاي كلها والمناطق المحيطة بها بمثابة مناطق مضطربة لا يسودها الحرب ولا السلم، وفراغ كبير لا يلبث أن يملأه أي واحد من أمراء الحرب وكبار القادة في الصين.

وقد انتظر جيم حتى خرج برايس ورجاله من المعسكر للبحث عن مزيد من المظلات التموينية التي تسقطها الطائرات، فهبط من المبنى السكني وقصد إلى المخفر، حيث كان تولوك مستعداً لقبوله في غياب برايس... وفي مكتب القومندان أخذ جيم ما حلا له من علب اللحم المكسدة إلى جانب الحائط، وبعد أن تناول وجبة سريعة من اللحم واللبن المجفف جلس إلى مكتب الجاويش ناجاتا يوضع الشيكولاتة ويشغل بترتيب المجلات الأمريكية.

وبعد أن خرج تولوك من المخفر بعض الوقت لسبب الجماعات المتزايدة من الجوعى الصينيين خارج أبواب المعسكر، انتهز جيم الفرصة وصعد إلى برج المراقبة... فأبصر برايس وفرقه المغيرة يفتشون مناطق البحيرات والخلجان إلى الغرب من المعسكر... وفي غضون ذلك انضموا إلى جماعة من أسرى الحلفاء قادمين من هانججاو، وأخذ الرجال وهم مسلحون يركضون على حوافي خنادق المدفعية المضادة للدبابات وهم يطلقون النار في أرجاء الحقول المترامية.

وفي هذا الوقت كان واضحاً أن الأسرى البريطانيين السابقين لم يكونوا هم وحدهم الذين أخذوا يجوبون الإقليم اقتناصاً لأي شيء...

فإن الفلاحين الصينيين بدأوا يعودون إلى قراهم التي هجروها قبل نهاية الحرب... وأخذت عصابات من الحمّالين تطوف بالمنطقة مجردين السيارات والمركبات اليابانية المحترقة من الإطارات ومن كل ما يمكن نزع واستلابه... وذهبت طوائف من جنود الكومنتانج الشيوعية المنشقة التي فرت من صفوف الفرق الصينية العميلة تجوب الطرقات. مدركة لمصيرها إذا وقعت في أيدي رفاقها من القوات الوطنية السابقة، ولكن أغرتها بالتقدم إلى شنغهاي وضواحيها النجيدات الغذائية الأمريكية الهابطة من الجو.

وعندما ظهر الليفتنانت برايس حوالي الظهر وهو متشح كبشة بالمظلة القرمزية التي كان يجرها رجاله، جمع جيم مجلاته وعاد إلى المبنى السكني (ج)... فأمضى ساعة في ترتيبها حسب الأسماء والتواريخ، ثم شرع في القيام بجولة في المعسكر... وفي هذه المرة تجنب المستشفى وتسلق من بين الأسلاك الشائكة وراح يتجول في المنطقة الممتدة بين المعسكر ومطار لانجهوا، على أمل أن يعثر على السلحفاة التي أطلق سراحها في الأسابيع الأخيرة للحرب.

بيد أن القناة المجاورة للسياج لم تضم سوى جثة طيار ياباني.. وكانت أقسام من المطار وهي الثكنات وبرج المراقبة تحتلها الآن فرقة من قوات الجنود الوطنية.. وأما اليابانيون من قوات الطيران فإنهم، لأسباب خاصة بهم، لم يحاولوا الهروب، وأقاموا في الحظائر والورش المدمرة، وفي كل يوم كان الجنود الوطنيون يأخذون عددًا قليلًا من اليابانيين ويقتلونهم في المنطقة الخلوية الجنوبية الشرقية من المطار...

والواقع أن مشهد الطيار الياباني الصريع وجثته الطافية على وجهها في القناة قد مس من نفس جيم وترًا حساسًا كما مسته مشاهد جثث البريطانيين المتوفين في مستشفى المعسكر... ومنذ ذلك الحين قرر أن يبقى في حِمى المعسكر حيث الأمن والأمان... فكان ينام ليلاً في فراش مسز فنسنت، ويمضي أيامه في فرز المعلبات الأمريكية والشيكولاتة وترتيب مجموعات المجلات، التي استطاع أن يجمع منها الآن مكتبة كبير كدسها بنظام فوق الأسرة الخالية في غرفته.

بيد أنه استمر يجمع المجلات من مكتب القومندان، عاملاً في نفس الوقت على إخفاء معلبات إضافية من اللحم واللبن بين طياتها، لتكون بمثابة احتياطي طويل الأمد أصبح يحرص الآن على أن يحسب حسابه... فقد لاحظ أن المعونات الغذائية الأمريكية الهابطة من الجو غدت الآن تقل شيئاً فشيئاً، ولا بد أن تصل إلى نهايتها عاجلاً أو آجلاً... ثم إنه بعد أن استرد قوته أصبح قادراً على البحث والتنقيب بين أرجاء المعسكر، ولذلك لم يكن هناك حد لسروره عندما عثر يوماً على مضرب تنس وعلبة كريكات تجت أحد الأسرة... في المبني السكني (د).

* * *

وفي صباح اليوم الثالث، فيما كان برايس ورجاله واقفين بالمنظار المكبر فوق سطح المخفر ينتظرون بصبر نافذ المعونة من الطائرات الأمريكية، وصلت سيارة أوبل قديمة إلى باب المعسكر كان يجلس في مقصورة القيادة بها اثنان من البريطانيين عراة الصدر كانا في فترة سابقة من أسرى معسكر لانجهوا، بينما جلست زوجتهما الصينيتان

مع أطفالهم وأمتعتهم في الجانب الخلفي للسيارة وكان جيم قد شاهد الرجلين وهما من رؤساء العمل في أحواض بناء السفن، أثناء فحصهما لمحركات سيارات الكاديلاك في استاد نانتاو صبيحة اليوم الذي أعلن فيه انتهاء الحرب... وقد استطاع الرجال بطريقة ما الوصول إلى شنغهاي والانضمام إلى أفراد أسرتهما الذين لم يعتقلهم اليابانيون... وبعد أن وجد الجميع أنهم معدمون في المدينة المعادية، استقر عزمهم على العودة إلى معسكر لانجهوا.

وكان القادمون قد جمعوا أولى غنائمهم، إذا بدت أسطوانة أغذية مما تلقىه المظلات مستقرة مثل قنبلة في أرضية السيارة... ووقف جيم يراقب من نافذة بازي في المبنى السكني (أي) وهو يتسم راضياً، تولوك والليفنتانت برايس وهما يهبطان من سطح برج المراقبة ويتقدمان إلى مدخل المعسكر ولكن دون أن يبديا أي محاولة لفتح البوابة... ثم دارت مناقشة حامية بين برايس وأسرى لانجهوا السابقين، الذين راحوا يشيرون في غضب إلى المبنى (أي) المهجور حالياً إلا من فتى في الرابعة عشرة من عمره وقف يضحك لنفسه في نافذة الطابق العلوي!

وأخذ جيم ينقر بقبضتيه فوق الحافة الخرسانية ثم لوح بيده إلى الرجال القادمين وزوجاتهم الصينيات الغاضبات... ها هم أولاء بعد ثلاث سنوات من محاولة الابتعاد عن المعسكر قد عادوا الآن أدرأجهم عند أبوابه، على استعداد لمواجهة الحرب العالمية الثالثة! إنهم في نهاية المطاف قد بدأوا يدركون الحقيقة البسيطة التي عرفها جيم على الدوام، وهي أنهم في داخل لانجهوا أحرار آمنون!

ثم أخذت الأبواب تفتح، بعد أن عقدت صفقة بين الطرفين... ذلك أن الليفتنانت برايس قد راقته السيارة الأول، وفي مدى دقيقة واحدة كان البريطانيان وأسرتهما يتسابقون عبر ساحة العرض شطر المبنى السكني (أي)، وفي أعقابهم أولى طلعات طائرات المoustang الصباحية محلقة فوق المعسكر والمنطقة كلها.

وإذا كان المتسولون الصينيون المرابطون حول مدخل المعسكر قد رفعوا أيديهم إلى وجوههم تفاديًا للروائح الغازية العنيفة التي تملأ الفضاء في أذيال الطائرات، فإن جيم جعل يستنشق تلك الروائح هائناً، إذا تغيث في تلافيفها كل أفكاره عن المستشفى والطيارين واليابانيين الصرعى في القناة القائمة وراء الأسلاك الشائكة... أجل! فقد حان الوقت لنسيان الموتى، بعد أن أخذت الحياة تدب في المعسكر من جديد ثم إن أيام اللحوم المعلبة واللبن المجفف والشيكلات قد جعلته أوفر قوة، وإن لم يكن كفواً بعد لمواجهة المسيرة الطويلة للعودة إلى شنغهاي... ولسوف يعود أناس آخرون إلى المعسكر، وربما لحقت به أمه وأبوه هنا... وحتى مع تناقص المعونات الغذائية التي كانت تلقيها الطائرات الأمريكية، فلسوف يبقى مصدر مستمر للطعام... ولم يتمالك جيم أن أطل بنظره على المطابخ الصامتة خلف المخفر ومجموعة العربات المعدنية التي علاها الصدا... وإذا هو يفكر في حبة بطاطا باشتياق!

وكان لحذائه وضع رنان في الردهات الخالية وهو يجتازها ثم يهبط في السلالم الحجرية.. وفيما كان يسرع الخطى إلى الخارج سمع دوران محرك السيارة الأول، ثم شاهد تولوك وزميله منهمكين

في تحميل السيارة بعلب الطعام واللفائف ... وما إن أبصره تولوك حتى
أوماً إليه يستدعيه قائلاً:

- يا جيم! إلى أين أراك تذهب؟!

- إلى المبني (ج) يا مستر تولوك.

قال جيم هذا لاهثاً وهو يستند إلى السيارة... ولمح الليفتنانت
برائيس في مدخل المخفر وهو منهمك في حشو بندقيته بالرصاص...
ثم استطرد جيم قائلاً:

- أريد أن أحجز غرفة لوالدي، فربما يحضران إلى لانجهوا...
وسأعمل على حجز غرفة لك يا مستر تولوك.

فوضع تولوك يده على رأس جيم لتهدئة ما آنسه من انفعاله، قائلاً:
- نعم يا جيم... لقد حان الوقت للبحث عن والديك.. إن الحرب
قد انتهت فعلاً.

- لكن ماذا عن الحرب القادمة يا مستر تولوك؟ سمعتك تقول إن
هذه الحرب ستبدأ عما قريب!

فأخذ تولوك بيد جيم يساعده على ركوب السيارة، قائلاً:

- يا جيم... لا بد من التفكير في تصفية مخلفات الحرب الحالية
قبل أن تفكر في بداية حرب جديدة! إنك ستركب معنا في السيارة، فإننا
عائدون إلى شنغهاي!

(٣٨)

الطريق إلى شنغهاي

راحت السيارة تميل من جانب إلى جانب على الطريق المؤدي إلى شنغهاي، مطوحة بجيم إلى لفائف قماش المظلات الحريري الملقاة على أرضية السيارة حتى لم يجد إلا أن يتعلق بصناديق المعلبات والسجائر المكدسة من حوله، مستمعاً في نفس الوقت إلى الحوار الزاعق بين تولوك والليفتنانت برايس فوق جلبة محرك السيارة المنطلقة بأقصى سرعتها.

ولمح جيم من خلال النافذة الخلفية لمقصورة القيادة تولوك وهو جالس ممسكاً في يد بالبندقية وباليد الثانية عنق قدر نبيذ الأرز وهو يتمايل برأسه فيما يشبه الطرب.

والواقع أن جيم شعر بالسرور إذ وجد الرجلين في حالة انتعاش مما خفف عنه الإحساس بأخطار القيادة في الطريق الوعر... ومضت السيارة تتطاول في الدروب الزراعية وعلى ضفاف القنوات في أثر المهابط التي كانت تتساقط عندها مظلات المعونة الغذائية، أملاً في الظفر بمزيد من البضائع الأمريكية، لكي تباع في السوق السوداء بمدينة شنغهاي.

ومهما يكن فقد تبين في النهاية أن آخرين سبقوهم في الاستيلاء على مغانم المظلات الهابطة حتى لقد أمضوا نصف ساعة وهم يجوبون بالسيارة حقول الأرز المهجورة دون أن يظفروا بمظلة واحدة مع محمولها من الأغذية... ولم يتمالك برايس أن لوح ببندقته مهددًا متوعدًا بين أرجاء عالم منبسط من القنوات الصامتة.

ومن حسن الحظ أن غضب برايس لم يدم طويلًا، إذ وجه السيارة من جديد شطر الطريق الرئيسي المؤدي إلى شنغهاي، حيث كان جيم يؤمل أن ينتظر الفرصة السانحة عند الوصول إلى مداخل المدينة للقفز من السيارة لدى أول تقاطع للطرق.

ومع ذلك فإن برايس لم يلبث أن تملكته نزوة مفاجئة وانحرف بالسيارة في درب موحل يؤدي إلى استاد نان تاو... وسمع جيم صوت تولوك وهو يحتج، ولكن بعد قليل أدير نبذ الأرز بين الطرفين عبر عجلة القيادة، وتابعت السيارة وجهتها الجديدة عبر حقول مليئة بالخنادق ومرابض الدبابات المحطمة.

أما جيم فقد استلقى بين لفائف أقمشة المظلات وكان يدرك طول الوقت أن الاستاد الأولمبي سيكون مبعث إغراء لا يمكن مقاومته... والواقع أنه منذ عودته إلى معسكر لانجهوا لم ينقطع إلحاح البريطانيين عليه بالأسئلة والاستفسارات عن الغنائم المكدسة في مدرجات الاستاد... وقد اضطر جيم إلى إسباغ مزيد من المبالغات على ذكرياته عن الاستاد لكي يضمن استمرار حصوله على المعلبات والمجلات المكدسة في مكتب القومندان... وهكذا أفضت مبالغاته إلى إلهاب

خيال برايس، وقد فات الآن أوان التراجع!

وعند مشارف الاستاد توقفت السيارة في رحبة بين مريضين للدبابات، وبعد أن احتسى تولوك وبريس مزيداً من نبيذ الأرز هبطا من مقصورة القيادة وأشعلا سيجارتين ثم وقفا يحدقان إلى الاستاد بنظرات تنم عن المكر... وما لبث برايس أن نقر على جانب السيارة ببندقيته، ونادى بصوت متهمكم:

- شنغهاي يا جيم!

فرد تولوك بصوت مخمور:

- مهلة قصيرة يا جيم! سننقل فقط صندوقاً من الويسكي الإسكتلندي وبعض معاطف الفراء للفتيات المنتظرات في ملاهي نانكنج!

- إنني لم أر أي معاطف فراء ولا ويسكي... فقط موائد طعام وكراسيها..

وعندئذ أزاح الليفتنانت برايس المتكلم جانباً، قائلاً:

- موائد طعام؟ هل تظن أننا جئنا إلى هنا للطعام؟

فحاذ جيم عن اتجاه ماسورة البندقية المسددة إلى رأسه قائلاً:

- كان الموجود دواليب فضيات ودواليب ملابس.

فقال تولوك وهو يتأرجح بين الاثنين:

- دواليب ملابس؟ يمكن أن يكون هذا هو المطلوب يا ليفتنانت،

فانحاز برايس إلى الهدوء قائلاً:

- صح... قلت لك إنه ولد ناصح!

واجتاز الرجلان الطريق ودخلا ساحة وقوف السيارات، بينما تخلف جيم ووقف بين صفوف سيارات النقل وهو يفكر في مستر ماكستيد... ترى هل لا يزال ممدداً بين الحشائش المصبوغة بالدماء؟ لم يتمالك أن شعر بالتألم بعد أن نال من الطعام كل هذا القدر الوفير، وتذكر أنه لو باع حذاءه وقتها لنال من الطعام ما كان يمكن أن يُبقي على حياة مستر ماكستيد... ولقد بدا الاستاد في نظره الآن كالحا مثيراً للغم والانقباض... فهنا قد شاهد الضياء المترامي عن الوهج الذري في نجازاكي، ذلك الضياء الذي لا تزال آثاره ماثلة في كل مكان فيما بين لانجهوا والاستاد الأولمبي.

ولم يلبث جيم أن جلس على جانب السيارة وهو يهش الذباب عن وجهه بمجلة لايف، وأخذ يتصفح المجلة حتى استرعت نظره صورة فوتوغرافية لمشاة البحرية الأمريكية وهم يرفعون العلم فوق قمة ربوة (مونت سورتباتشي) بعد معركتهم للاستيلاء على (ايوجيما)، حيث أبدوا بطولة نادرة.

ثم توقف عن تصفح المجلة عندما لاحظ وجود رجال مسلحين يجرون خارجين من نفق المدخل أثر قيام إحدى قاذفات (سوبر فورتريس) بإحدى طلعاتها لإلقاء المعونة الغذائية في حراسة طائرات المستانج... ظناً منهم بأن الطائرة ستقصف الاستاد... كان أحدهم أوروبياً ملتجئاً مرتدياً سترة جلدية لطيار أمريكي، يتبعه رجلان آخران

يحملان بندقيتين قصيرتين... ثم جاء في أثرهم رجل صيني عاري الصدر يحمل مسدسًا ممنطقًا حول وسطه، متقدمًا لفيًا من الحمّالين يحملون عصيًا خيزرانية.

وبدا لجيم أن هؤلاء جميعًا كانوا هاربين من مطاردة سرية من الجنود الوطنيين لهم، برز أفرادها من النفق شاهرين بنادقهم، وقد توقفوا لإطلاق دفعة من الرصاص على الهاربين.

عندئذ فتح جيم باب سيارة النقل ودلف إلى مقصورة القيادة... وعلى بعد خمسين قدمًا من مخرج النفق وقع نظره على تولوك ممددًا بين الأتربة... وظهر الليفتنانت برايس يجري مارًا بجثته شطر صف سيارات النقل، وما لبث أن وثب من فوق السياج المحيط بساحة الانتظار وأطلق العنان لساقيه، متوغلًا في حقول الأرز المغمورة.

وأطلق الضابط الصيني عيارًا أخيرًا في اتجاه برايس المتخبط في غمار المياه، بينما عمد رجاله إلى البحث عن جرحى بين أفراد الهاربين أثر إغارتهم على الاستاد، وفي النهاية قفلوا راجعين إلى حمى الاستاد، بينما ظلت جثة تولوك هامة في الشمس ودمه ينزف في الأتربة الطباشيرية.

في خلال ذلك كانت المظلات الزرقاء والقرمزية تتهاوى فوق منطقة هانججاو... وبعد فترة فتح جيم باب مقصورة القيادة من الناحية الأبعد عن الاستاد وانسل إلى الأرض... ثم أنشأ يركض في اتجاه السياج الخارجي محجوبًا عن العيان بصفوف سيارات الذخيرة المترصة.

وعندما وصل إلى موقف سيارة الأوبل التي جاءوا بها، ألفاها قائمة في مكانها بين مرابض الدبابات، إذ تخطى الليفتنانت برايس عن السيارة

ومحمولها من أقمشة المظلات وصناديق الأغذية.

ووقف جيم يتطلع من النافذة إلى لوحة القيادة... ترى هل يستطيع أن يقود السيارة إلى شنغهاي؟ فقد كان من أشد الخطر أن يسلم نفسه إلى الجنود الوطنيين في الاستاد؛ إذ سيطلقون النار عليه فوراً، موقنين بأنه أحد أفراد الفريق المغير على الاستاد.

وبعد أن فكر ملياً في أمر تولوك الذي لقي مصرعه قبل أن تكتمل عيناه برؤية سيارات الكاديلاك البيضاء في ناتاو، استقر عزمه في النهاية على الاتجاه إلى شنغهاي سيراً على الأقدام.

وفيما كان يهتم بالتسلق إلى السيارة من الباب الخلفي لاختيار مجموعة من المعلبات والمجلات، إذ سمع وقع أقدام قرب السيارة، وقبل أن يستدير شعر بشخص يمسكه من كتفيه، بقبضات عنيفة تنهال على مؤخرة رأسه وتقفز به إلى أرضية السيارة.

جلس جيم بين صناديق المعونة وهو يشعر بالدم يسيل من أنفه وفمه وينسكب من خلال يديه إلى لفائف المظلات... ولما رفع رأسه أبصر الصيني العاري الصدر ذا المسدس الممنطق حول وسطه الذي خرج من الاستاد ركضاً... وقد راح يحدق في جيم بتلك النظرة الجامدة التي أنس جيم مثلها من قبل في ملامح الطاهي في بيته بأهرست أفينو قبل أن يهم بذبح دجاجة... ومن خلفه وقف حمال صيني متلهفًا للاستيلاء على محمول السيارة وبيده عصا الخيزران.

وعلى جانبي الجسر كان رجال مسلحون يتقدمون تحت قيادة الأوروبي الملتحي لابس سترة الطيران الجلدية، بعضهم من الحمالين

المزودين بالعصي الخيزرانية، وبعضهم الآخر من الأوروبيين والأمريكيين الذين ارتدوا خليطاً من الملابس وأحزمة الذخيرة وزى البوليس الصيني... وقد استخلص جيم من علائم التضور من الجوع البادية على أجسامهم أن معظمهم من المعتقلين السابقين.

وعندما رفع الحمال عصاه امتص جيم دمه النازف وهتف بصوت خرج محشرجاً من خلال أنفه المورم:

- أنا أسير بريطاني! من معسكر لانجهوا!

لكن الرجال المسلحين تجاهلوه وجلسوا على الجسر يدخنون سجائرهم، فيما راح الأوروبي لابس سترة الطيران يتمشى حول السيارة... وكان الجميع يتطلعون إلى السماء مرتقبين، ثم إلى الطريق المهجور الممتد فيما وراء الاستاد... إنهم جاءوا معهم بالزمن الوائي الراكذ الذي كان الطابع الساري في المعتقلات... كانت وجوههم مشدودة كالحة، وبدا كأنهم برزوا من أغوار كهف أرضي سحيق!

- من لانجهوا!

ردد جيم هذه الكلمة فيما كان الحمال ذو العصا مركزاً نظراته عليه... كأن جيم يعلم أنه لدى أدنى إشارة فلسوف يتقدم الحمال نحوه ويهشم جمجمته... وكان الصيني العاري الصدر الذي ضربه وأسأل دمه يفحص السيارة خصوصاً إطاراتها الخلفية.. وأراد جيم أن يسترعي اهتمام الأوروبيين فأشار إلى الاستاد قائلاً:

- هناك في نانتاو: سيارات لنكولن زفيرا، وسيارات بويك!

وكاديلاك!

- ما هذا الكلام عن سيارات الكاديلاك؟

صدر هذا السؤال من رجل ضئيل الجسم فضي الشعر ذي لهجة أمريكية مخنثة تقدم شطر السيارة مسلحًا ببندقية معلقة في كتفه... ولكن أحدًا لم يستمع إليه، وما لبث أن أشعل سيجارة لإخفاء السكوت عن الرد عليه... وبدأ لهب الثقاب متراقصًا على خديه المعفرين بالبودرة، والكاشفين عن عيين حذرتين معهودتين.

لم يتمالك جيم أن هتف وهو يمسح الدم عن أنفه:

- بازي! هذا أنا يا بازي! جيم! جيم ربيب شنغهاي.

راح المضيف البحري السابق يحدق في جيم... وبعد لحظة تفكير هز رأسه على نحو متحفظ، وكأنه عرف الفتى ابن الرابعة عشرة ولكنه ما عاد يهمه... وجعل يتفحص صناديق المعونة ويتحسس حرير المظلات... وما لبث أن انتحى جانبًا لكي يفسح الطريق للحمال حتى يهوي بعصاه.

- بازي!

والتقط جيم المجلات المبعثرة ومسح بأصابعه الدم عن أغلفتها ثم رفعها تحت نظرات الغضب المنبعثة من عيني الصيني العاري الصدر المسلح بالمسدس، وأخذ يناشد بازي قائلاً:

- يا بازي! هذه مجلات لايف و(ريدارز دايجست)...! إنني

حجزت الأعداد الأخيرة لك! بازي! إنني تعلمت الكثير كما أوصيتني! إنني كنت دائماً تحت رعايتك! ولن أنسى أفضالك أبداً!

(٣٩)

قطاع الطرق

تقدمت السيارة مسرعة على امتداد بحيرة تخالطها الزيوت، مارة بهيكل لأحد زوارق الطوربيد... وفي جلسة جيم بين بازي والفرنسي الملتحي في مقعد السيارة البويك الخلفي راح يراقب رشاش المياه وهو يتواثب بين العجلات، كاشفاً عن جثث اليابانيين القتلى الممدودة في المياه الضحلة.

وحاول جيم أن يتطلع من فوق منكبه إلى الأفق مستشرفاً شنغهاي، بيد أن رضوض رقبته حالت دون أن يدير رأسه... وعندئذ وكزه الفرنسي بطرف البندقية التي كانت بين ركبته قائلاً:

- أنت يا ولد! اهدأ في مكانك! هل تحب دمًا أكثر من أنفك؟!

فقال بازي وهو يلف ذراعه حول جيم:

- يا جيم... لا يوجد متسع هنا لكي تلف وتدور... ما عليك إلا أن تجلس بهدوء وتتفهم معنى كلامنا! ركز نظرك في المجلة لكي تبقى متنبهاً!

- صح يا بازي... سأبقى متنبهاً.

كان جيم يعرف أن التزام هذا التنبه أهم شيء في ظروفه الراهنة... فأسند قدميه إلى صناديق الذخيرة فوق أرضية السيارة وعض على شفتيه حتى برقت عيناه... وكان يجلس بجانب الفرنسي من ناحية الباب الأيمن الحمال ذو العصا الخيزرانية الذي كاد أن يقتله قبلما تدخل بازي... وجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق الصيني استراليان من معسكر سيكاواي.

لقد جلس سبعتهم محشورين في سيارة البويك الملطخة بالأوحال والتي كان يستخدمها أحد القادة الصينيين المتعاونين مع اليابانيين طوال الحرب... وكانت مقاعد السيارة مبقعة إلى ذلك بآثار القيء والدماء الجافة التي أضيف إليها الدم النازف من أنف جيم... وفضلاً عن الأسلحة والعصى التي جاءوا بها، كانت السيارة مكدسة بصناديق الذخيرة وعلب السجائر الأمريكية وقدر نبيذ الأرز وزجاجات البيرة التي كان الرجال يملأونها على الدوام ببولهم طوال الطرقات الريفية شطر المناطق الجنوبية الشرقية لشنغهاي.

ثم توقف الركب وقد غاصت عجلات السيارة البويك في مياه البحيرة المغطاة بالزيت... وكانت تسبقهم سيارة نصف النقل اليابانية مقلّة أكثر من عشرة رجال من عصابة قطاع الطرق والنهبين... وكانت هذه السيارة وهي تدرج فوق مجاز ضيق من أحجار البناء تكاد تنوء بحملها من الأسطوانات الهابطة بالمظلات وبالمنهوبات من المخازن العسكرية اليابانية في نانتاو، فضلاً عن مجموعة من مراتب النوم المطوية

ودرجات وماكينات خياطة من الأسلاب التي استولوا عليها من القرى
الريفية جنوبي لانجهوا.

ولم تلبث السيارة البويك أن تابعت سيرها صعودا في المجاز
الحجري في أثر سيارة النقل خلال سحب الأتربة التي كانت تثيرها
عجلاتها.

وامتد الطريق إلى تيه من حقول الأرز والقنوات، حتى لقد تساءل
جيم في نفسه إن كانت لدى عصبة قطاع الطرق هؤلاء أي فكرة عن
الوجهة التي يقصدون إليها... ومع ذلك فعلى مسافة ثمانمائة ياردة
لاحت سيارة نقل ثانية تنهب الأرض خلال الحقول المهجورة... كانت
هذه سيارة الأوبل القديمة المستولى عليها في الملعب الأولمبي،
وكانت تقل الأفراد الخمسة الباقين من أفراد العصابة... وكانوا قد
غادروا القاعدة البحرية في نانتاو عقب الفجر، غير أنهم أفلحوا بطريقة
ما في الالتقاء بزملائهم هؤلاء.

وانتقل جيم بنظره إلى الصيني المسلح العاري الصدر وهو واقف
خلف مقصورة القيادة يصدر الأوامر صارخًا للحمّال القائم بالقيادة...
كان جيم يخشى هذا الضابط السابق في الجيش الصيني العميل الذي
كال له تلك اللكمات الموجهة فوق مؤخرة رأسه مسببًا له رضوضًا
في عظامه... إن وجود بازي وحده هو الذي أنقذ حياته، غير أن هذه
المهادنة قد تكون موقوتة... فإن الكابتن سونج هذا لم يكن يعير أي
اهتمام لبازي أو لغيره من أفراد العصابة الأوروبيين، وكان يعد جيم
مجرد كلب يمكن أن يقضي عليه بالموت إذا لزم الأمر... وما كادت

تنقضي ساعة على وقوع جيم بين براثن هذه العصابة حتى بعثوا به إلى ربوة للقبور تشرف على قرية قرب هانججاو، مثل كلب صيد يتشمم الطريق مستطلعاً، وليكون أول هدف لنيران مباغته... وقد يشب جيم بين القبور المعفنة وما زال مشدوهاً والدم ينزف من أنفه إلى أن توقف إطلاق النار وعاد قطاع الطرق من القرية التي هاجموها ظافرين بغنائمهم من الدراجات ومراتب النوم المطوية وأكياس الأرز... وعندما تحقق جيم من أن ذلك الكابتن سونج هو الزعيم الحقيقي لعصابة قطاع الطرق حاول أن يكون نافعاً له بخدماته، غير أن الكابتن سونج لم يرد أن يقوم له جيم بأي خدمات... إن الحرب قد غيرت الصينيين... فقد أصبح الحمالون المشردون وجنود الجيش الصيني العميل الفارون ينظرون إلى الأوروبيين نظرة مغايرة تماماً لما عهده جيم قبل الحرب، وكأنهم قد صاروا ولا وجود لهم على الإطلاق، حتى على الرغم من أن البريطانيين قد ساعدوا الأمريكيين في دحر اليابانيين.

وتوقفت السيارات عند تقاطع طرق... فوثب الكابتن سونج من سيارة الأوبل وتقدم إلى سيارة البويك... فما كان من بازي إلا أن أمسك بذراع جيم... إن بازي كان على استعداد لكي يراه صريعاً، غير أن الأوصاف المغرية للغنائم التي تنتظر قطاع الطرق في أشياء نانتاو والتي كان يدلي بها جيم هي التي أمسكت على بازي اهتمامه به.

وقد ثارت عاصفة من الأتربة حول السيارات الثلاث عندما استدارت وسلكت طريقاً على امتداد قناة معطلة... وبعد مسيرة نصف ميل توقفوا فوق قنطرة حجرية مؤدية إلى قرية مهجورة... فهبط الكابتن

سونج مع اثنين من رجاله من سيارتهم، وتبعهم الفرنسي من سيارة البويك والجمال ذو العصا... وجلس الاستراليان في مقدمة السيارة يحتسيان الشراب من قدر النبيذ متجاهلين ما يجري... وكان الكابتن سونج في المعتاد يستدعي جيم ويكلفه بالبحث والتنقيب في أبنية القرية، غير أن القرية بدت مهجورة بعد أن استهدفت للسلب والنهب مرارًا على أيدي عصابات قطاع الطرق في المنطقة.

وقال جيم لبازي:

- هل نحن عائدون إلى شنغهاي يا بازي؟
- عاجلاً يا جيم... لا بد لنا أولاً من أخذ بعض المعدات الخاصة..
- معدات اخترتموها في القرى؟ معدات للمجهود الحربي؟
- تمام يا جيم... معدات تركتها لنا المقاومة السرية هنا بينما كنت أنا أعمل في الخفاء مع (الكومنتانج)... أنت لا تريد أن يستولي الشيوعيون عليها، أليس كذلك؟
- راح كلاهما يجاري صاحبه في هذا التمويه... وتطلع جيم إلى ناحية القرية المهجورة قائلاً:
- لا بد أنه يوجد هنا كثير من الشيوعيين، هل انتهت الحرب يا بازي؟

- انتهت يا جيم... لنقل إنها انتهت فعلاً.
- بازي! وهل الحرب القادمة بدأت حقيقة؟

- هذا أسلوب في الحوار يا جيم... يسرني أنني علمتك أساليب كثيرة!

- لكن لا يزال هناك الكثير من الأساليب التي لم تعلمها بعد يا بازي... إنني أود أن أعود إلى شنغهاي... ربما لو حالفني الحظ أرى أمي وأبي اليوم.

- شنغهاي؟ هذه مدينة خطيرة يا جيم... أنت تحتاج إلى أكثر من الحظ في شنغهاي... سوف ننتظر إلى أن نرى الأسطول الأمريكي يربط في الميناء النهري.

- هل العم سام سيكون هنا قريبًا يا بازي؟
- سيكون هنا بالتأكيد.

لقد شفت نبراته عن قلة الحمس لتوقع انضمامه إلى مواطنيه الأمريكيين... وسأله جيم بالحاح عن كيفية فراره من معسكر لانجهوا، ولكن بازي بدا ماكراً مراوغاً... ومهما يكن مما حدث له، فإن ما حدث بعد الفرار قد أصبح لا يهمه في شيء... وظل كسابق حاله: الرجل الضئيل المشغول دائماً بيديه وبشرته، المتجاهل لكل شيء سوى اقتناص المنفعة العاجلة... وكانت نقطة القوة الوحيدة فيه هي أنه ما كان يسمح لنفسه قط بأن يستسلم للأحلام، إذا ما كان يستطيع أن يتقبل شيئاً كقضية مسلمة، في حين كان الدكتور رانسوم على نقيضه، يواجه الأمور على علاتها... ومهما يكن فإن الدكتور رانسوم قضى نحبه فيما يرجح أثناء مسيرة الموت من لانجهوا في حين ظل بازي على قيد الحياة... ومع ذلك فما هو ذا الآن، ولأول مرة، وقد تخلى بازي

عن حذرهِ طمعاً في المغنم التي لوح بها جيم في الاستاد الأولمبي،
والتي راح جيم يغذيها مما يهيئ لبازي أن يقتني ثروة طائلة يعود منها
ظافراً غانماً إلى الولايات المتحدة! وقد تصور جيم أن بازي قد سمع
شيئاً قبيل الرحيل من المعسكر من خلال الراديو السري عن المسيرة
الوشيجة إلى منطقة إعدام الأسرى في قلب الريف، فقدم رشوة إلى
أحد الحراس الليليين لإخفائه في أحد مخازن نانتاو، مما هيا له النجاة
والإفلات من الموت.

وجعل جيم يدلك أنفه المرضوض فيما قعد الرجال المسلحون
فوق القنطرة ومعهم قدور نبذ الأرز... وعلى الرغم من طول سنوات
سوء التغذية في المعسكرات فإن قلة من الأسرى السابقين اهتموا
بتناول الطعام المعلب المكس في سيارات النقل... وإنما راحوا
يحتسون الشراب فرادي في حرارة الشمس، وهم لا يكلمون بعضهم
البعض إلا لماماً... وقبيل حلول الليل عندما عادوا إلى القاعدة البحرية
السابقة في نانتاو، تفرق معظمهم مع نصيب كل منهم من منهوبات
النهار إلى مخابئهم المختارة في مفاوز المنطقة، على وعد بالتجمع
في صباح اليوم التالي كأنهم عمال مصانع... ونام جيم في السيارة
البويك في ساحة تحف بها هياكل الطائرات البحرية المحترقة، في
حين ظل بازي والفرنسي الملتحي يعاقران الشراب طوال الليل في
كائنين القاعدة.

وقد عاد الفرنسي الملتحي من طوافه بالقرية المهجورة ووقف لدى
نافذة بازي قائلاً:

- لا شيء! ولا حتى فضلات آدمية.

فقال بازي متقرّزاً:

- كان بإمكانهم أن يتركوها لنا! لماذا لا يرجع الصينيون إلى قراهم؟

فقال جيم:

- هل يعرفون أن الحرب قد انتهت؟ لا بد أن تخبرهم يا بازي.

- ممكن... لا يمكننا الانتظار إلى الأبد يا جيم... هناك جيوش ضخمة تتحرك نحو شنغهاي... حوالي ستة جيوش مختلفة للكومنتانج.
- وهذا قد يجعل من الصعب عليك أن تجمع المعدات التي أشرت إليها؟

- هو ذاك... سنذهب الآن إلى هذه القرية الشيوعية؟... وبعدها سأصحبك إلى والدك... ويمكنك أن تقول له إنني كنت أراك خلال الحرب، وإنني علمتك الكثير.

- أنت فعلاً كنت ترعاني يا بازي.

فجعل بازي يحدق فيه متأملاً، وقال:

- صح... إنك ستبقى معنا... سيكون شيئاً محزناً جداً إذا تعرضت للاختطاف.

- هل يوجد هنا مختطفون كثيرون يا بازي؟

- مختطفون وشيوعيون... ناس لا يريدون أن يعرفوا أن الحرب

انتهت... تذكر هذا يا جيم.

- صدقت..

وأراد جيم أن يشغل بازي بموضوع مختلف، فأضاف:

- ... يا بازي هل رأيت انطلاق القنبلة الذرية؟ إنني شاهدت
وهجها فوق ناجازاكي وأنا في استاد ناتاو.

- ماذا يا بني؟!

لقد حرق فيه بازي متعجباً من هدوء لهجة هذا الفتى المجروح
الأنف، وما لبث أن تناول خرقة من حافة النافذة الخلفية مسح بها أنف
جيم، قائلاً:

- ... هل رأيت القنبلة الذرية؟!

- ... طوال دقيقة كاملة يا بازي... ضوء أبيض غطى شنغهاي كان
أقوى من الشمس.

- ربما يكون بإمكانني يا جيم أن أعمل على نشر صورتك في مجلة
(لايف) تذكراً لهذه المناسبة.

- أيمكنك هذا حقاً يا بازي؟

إن فكرة ظهور جيم في مجلة لايف قد أبهجتهم ولم يتمالك أن مسح
الدم عن فمه وحاول أن يسوي قميصه الممزق احتمالاً لظهور مصور
فوتوغرافي فجأة في المكان.

ولدى إشارة من الكابتن سونج عاد قطاع الطرق إلى سياراتهم...
وفيما تركوا القرية واستأنفوا الرحلة شطر القرية كان جيم يتخيل

صورته الفوتوغرافية منشورة بين صور دبابات تايجر ومشاة البحرية الأمريكيين... إنه أمضى الآن أربعة أيام مع عصابة قطاع الطرق التي ينتمي إليها بازي، وقد خطر له أن والديه ربما يظنان أنه قضى نحبه في مسيرة الموت التي قامت من لانجهوا... ولعلهما يجلسان قرب حمام السياحة في أمهرست أفينو ويتصفحان آخر عدد من مجلة لايف، فيتعرفان على وجه ابنهما بين صور كبار القادة البريين والبحريين!

أخذوا يمرون بالطرف الشرقي لمطار لانجهوا... وما لبث جيم أن مال بجانب بازي وأطل من النافذة على الخليجان وحقول الأرز لرؤية جثث جنود المطار الذين كانت وحدات الكومنتانج التي احتلت جزءاً من المطار تعدمهم بلا رحمة.

وسمع بازي يقول له:

- هل تحب الطائرات والطيران يا جيم؟

- إنني سوف أكون طياراً يا بازي يوماً ما... وسأصبح أُمي وأبي إلى جزيرة جاوه... وإنني فكرت كثيراً في هذا.

- هذا حلم جميل لك أن تحلم به.

ودفعه بازي جانباً، وأشار إلى الطائرة المحطمة بين الأشجار:

- ... يوجد طيار ياباني هناك... إنهم لم يأخذوه بعد.

وفك بازي صمام أمان البندقية، فيما أطل جيم من النافذة باحثاً بين صف الأشجار... وما لبث أن وقع نظره على الوجه الشاحب للطيار

الفتى بين أجنحة الطائرة المحطمة... فسارع يقول:

- هو طيار أعزل... هل تحب يا بازي أن أزودك بمعلومات أوفر عن الاستاد؟ فيه معاطف فراء كما أعتقد، ولا بد أن مستر تولوك قد شاهدها قبل إطلاق النار عليه - فضلاً عن المئات من صناديق الويسكي الإسكتلندي. ومن حسن الحظ أن بازي ما لبث أن رفع زجاج النافذة بعد أن هبت على السيارة البويك روائح كريهة منبعثة من الحفر المجاورة مختلطة بالروائح العطنة من خنادق الدبابات وسحب الأتربة المثارة.

وقبل الغروب... وصلوا إلى البلدة الشيوعية القائمة عند النهر على بعد ميلين إلى الجنوب من لانجهوا... وكانت البلدة قريبة من مصنع للفخار بدت قمائنه المقبوة ومداخنه الحجرية شامخة بالنسبة إل أبنية البلدة الرثة المؤلفة من طابق واحد... وقال له بازي يطمئنه:

- لا بأس يا جيم.. سوف تحقق حلمك يوماً من الأيام.

وقبل أن يضع جيم المجلات على حافة النافذة فتح الكابتن سونج الباب بعنف وأخرج جيم من السيارة عنوة وأخذ يدفعه بغلظة في الطريق دفعاً وهو ينخسه بمسدسه... وقد توقفت سيارتا النقل والسيارة البويك قرب الجسر المجاور لخط سكة حديد شنغهاي - هانجتاو... وترجل الرجال المسلحون إلى الحقل الجاف وأخذ بعضهم يفتحون جرابات ذخيرتهم وينظفون مواسير بنادقهم، بينما راح البعض الآخر يدخلون السجائر ويحتسون النبيذ من القدور الفخارية التي وضعوها على غطاء السيارة البويك... كان كل واحد منهم معيناً بنفسه، ووقفوا صامتين في الشمس الغاربة.

وعندما أحس جيم أن الكابتن سونج كف عن دفعه وتركه مبتعداً وحده أخذ يركض على الأرض الصلبة حتى وصل إلى نهاية الجسر وتوارى بين عيدان متكاثفة من الأرز البري.. وعلى مبعده خمسين ياردة كان الكابتن سونج قد اجتاز الحقل، وأخذ يرتقي أرض الجسر الرخوة... وتبعه رجاله الحمالون المسلحون بالعصي وفي صحبتهم بازي والفرنسي... وظهرت مجموعتان من الرجال المسلحين تجتاز الحقل التالي، في حين جلس الاستراليان ومنشق من أفراد الكومنتانج على جانب السيارة البويك يحسسون النبذ.

وظل جيم مخبئاً عن العيان حيناً إلى أن سمع قصف مدفع بحري أرسل طلقة واحدة عبر النهر، حين ربط في وسط المجرى المائي زورقان مسلحان تابعان للوطنيين، فسقطت القذيفة في ساحة مصنع الفخار مشيرة سحابة من الغبار الأحمر... وسمعت أصوات أسلحة نارية صغيرة آتية من النهر إلى الجنوب، حيث كانت كتيبة من جنود الكومنتانج تهبط إلى البر من صندل بحري.

وأخذت سفينة صينية مدرعة تتقدم في القناة فيما وراء جسر السكة الحديدية وقد اعتلى قنطرة قيادتها ضباط صينيون في ملابس أمريكية أنيقة وخوذات فولاذية وهم يتفحصون البلدة وما حولها من رقاع مزروعة بالخضر من خلال مناظيرهم الميدانية.. وما لبث أقرب الزورقين المسلحين أن أرسل طلقة مدفع ثانية، فأدى انفجارها فوق أسطح البيوت إلى هرج شديد، إذ هرع مئات من الصينيين كمنل هارب من أصيص زهور مهشم، إلى الهرب خلال مسالك البلدة الضيقة

حاملين فوق رؤوسهم لفافات المراتب المطوية والملابس.

ومضت السفينة الصينية المدرعة تتقدم بامتداد القناة... واستطاع جيم أن يتبين رواء كسيهم وأشرطتهم الأمريكية وخاصة أحذيتهم القتالية... بل إن كتيبة الجنود القائمين فوق سطح السفينة أسفل قنطرة القيادة كانوا مزودين بالوفير من العتاد الجيد وأجهزة الراديو... ولاحقاً في وسط السفينة سيارة ليموزين سوداء ترفرف فوق مقدمتها راية جنرال من قوات الكومنتانج.

وكان في مقدمة السفينة مدفع أتوماتيكي، ودون سابق إنذار فتح رجاله النار على البلدة، فكانت القذائف تتلاحق فوق رؤوس القرويين الهاربين ثم تتفجر فوق الأسطح والبيوت... وبإشارة من قنطرة القيادة حول الرجال فوهة المدفع شطر كفر صغير على بعد مائة ياردة من البلدة... وفي خلال ذلك كانت القذائف الأولى الصادرة من الزورقين المسلحين تنهال على الطريق الترابي الذي تجاوره الجحور السكنية الواطئة.. كما أخذ الجنود الوطنيون الذين هبطوا من الصندل النهري يركضون عبر حقول الأرز قانصين سكان البلدة الفارين.

ثم أخذت القذائف تتوالى من كل جانب حتى تهاوت البيوت المبنية من الطين واختفت بين سحب الدخان والأنقاض المتطايرة... وعلى الطريق المجاور للكفر تراصت عشرات من جثث القرويين بين لفائف مراتبهم المطوية وملابسهم، وكأنما قرر سكان البلدة أن يمضوا ليلهم نائمين في العراء.

لم يتمالك جيم أن قوس يديه حول أنفه وفمه، محاولاً منع نفسه من الصراخ... لقد راح يراقب النيران والحرائق المتواصلة أدنى منه والحقول المغطاة بالدخان الذي كانت تتخلله بروق المدافع البحرية وضرام البيوت المحترقة قرب مصنع الفخار... وكانت القمائن والمدخن تنوهج في مغيب الشمس وكأنما أوقدت الأفران القديمة من جديد، لكي تستمد وقودها من جثث القرويين الصرعى بين أرجاء رقع الأرض المزروعة بالخضر هنا وهناك... واستمع جيم إلى عجيج محركات السفينة الصينية المدرعة وهي تبتعد إلى أقصى القناة كدقات قلب سقيمة تحمل الموت والدمار عبر الأراضي الصينية، فيما وقف جنراتها المتأنقون يحجبون أعينهم خلف مناظيرهم الميدانية وهم يحسبون أبعاد الأهداف ومرامي الهلاك والخراب.

وبدأت عصابة قطاع الطرق تنسحب من جوار الخط الحديدي... وأنشأ الكابتن سونج وأتباعه الحمّالون يهبطون الجسر عائدين إلى السيارات... وإذا جيم يقول لبازي:

- يا بازي... هل يمكننا أن نعود إلى لانجهوا؟

- نعود إلى المعسكر؟

قالها المضيف البحري السابق وهو يطرف بعينه خلال الأتربة المثارّة في الهواء... كان في الواقع مشدوهاً أثر الدوي القاصف لانفجار مستودع للذخيرة، وقال وهو يحدق في المشهد الرهيب عن كذب كمن يفيق من حلم:

- هل تريد أن نعود إلى المعسكر يا جيم؟

- علينا أن نستعد يا بازي.. متى سيصل الأمريكيون؟

ولأول مرة بدا بازي وقد استعصى عليه الرد... واستلقى بين
فلنكات الخط الحديدي منعقد اللسان، وما لبث أن أشار شطن
الشمال وصفر انتصاراً... فعلى بعد عشرة أميال، وعبر سطح النهر
القائم، لاحت صواري وأعالي سطح طراد أمريكي في الشمس
الغاربة وهو يحتل موقعه قرب الأبنية المكتبية والفنادق على ضفاف
الميناء النهري.



الطيّارون المتهاوون

طوال الصباح ظل قصف نيران المدفعية يجتاح النهر صادراً من نوتانج... وانبعثت أعمدة دخان الحرائق المشتعلة في المستودعات والمخازن تحجب المياه حتى شاطئ نانتاو... وكان جيم في مقعد السيارة البويك المستقر بين المسطحات الموجلة يراقب وهج نيران المدفعية من خلال النافذة التربة.. وكانت قطع المدفعية الأمريكية التي جلبتها القوات الوطنية تواصل قصفها المدوي في غير هوادة ولا توقف، كاشفة ومضات نيرانها عن برج غواصة أخذت تبرز من مياه النهر على مسافة مائة ياردة.

ثم لاح سرب مؤلف من ثلاث قاذفات أمريكية يقترب من ناحية الشمال الغربي... وعندئذ توقف قصف المدافع... وظهر زورق طوربيد مدعم بأكياس الرمل. أخذ يشق مياه النهر استعداداً لجمع ما تلقيه الطائرات... وأخذت المظلات تتهاوى تباعاً من القاذفات (ب-٢٩) هابطة على الأرض... ولم تكن أسطواناتها محملة بالمعلبات والألبان والسجائر والمجلات، ولكن بالذخائر والمتفجرات لجنود

الكومنتانج.. وكانت الكتائب تعززها المدفعية ماضية في دحر آخر الوحدات الشيوعية التي ظلت منشبة بمواقعها بين أطلال مستودعات بوتانج... وعلى رصيف الحاجز البحري كانت جثث الجنود الشيوعيين مكومة كأنها أكداس حطب للوقود.

واستطاع جيم في فترة السكون التي تلت ابتعاد القاذفات أن يسمع هدير المدفعية من هانججاو والمناطق الريفية إلى الغرب من شنغهاي... فقد أخذت ثلاثة جيوش للوطنيين على الأقل تطبق على المدينة، متنافسة فيما بينها للسيطرة على المطارات وأحواض السفن وخطوط السكك الحديدية وخاصة مجمعات الأسلحة والذخائر التي خلفها اليابانيون.

وكان عشرات الألوان من الفلاحين الصينيين قد اكتسحهم اكتساحاً زحف هذه الجيوش المتنافسة المتسابقة وراحت طواوير اللاجئ تهميم على وجوهها في أرجاء الريف الواسع، محاولة الاحتماء بين الحقول والقرى المنهوبة، وقد صدها عن الالتجاء إلى شنغهاي زحف وحدات جيوش الوطنيين.

كان هؤلاء اللاجئون، مع عصابات الحمالين الجياع المسلحين بالمدى والفؤوس هم أشد ما كان يخشاه جيم... بل إن بازي وعصابته أخذوا يتحاشونهم بأي ثمن، مؤثرين البقاء بعيداً من أي معركة من المعارك الدائرة... وعند أطراف نانتاو الشرقية، فيما بين أحواض السفن والقاعدة البحرية - كانت توجد منطقة أرصفة بحرية ومستودعات وثكنات مهجورة رأت ميليشيات الكومنتانج واللاجئون الفلاحون أنها

شديدة القرب من ساحات القتال عبر النهر عند بوتانج... على هذه المنطقة المهجورة وقع اختيار بازي وأفراد عصابته الستة الباقية لتكون ملاذاً لهم بين الدشم الخرسانية ومستودعات الفحم، دون أن يبقى لديهم شيء سوى السيارة البويك والأمل في بيع أنفسهم لجنرال من الوطنيين. وحتى السيارة ذاتها بدا أنها ستكون هدفاً سهلاً لمدفعية الكومنتانج... وفي هذا قال بازي لجيم عندما هموا بترك السيارة في مكانها بين مسطحات الطين:

- اجلس يا جيم أمام عجلة القيادة... تظاهر بأنك تقود هذه السيارة الضخمة.

- أيمكنني هذا حقاً يا بازي؟

وأمسك جيم بعجلة القيادة فيما وقف الرجال على الشاطئ الأسود قرب السيارة وأخذوا يعدون أسلحتهم... وكانت وجوههم تتوتر لدى القصف المتواصل عبر المياه... بينما أضاف جيم:

- هل يشملنا هذا يا بازي؟

- أصبت يا جيم... تذكر تلك السنوات التي قضيناها في لانجهوا... فلدينا استثمارات لا بد أن نحافظ عليها.. إن الوطنيين يريدون الاستيلاء على شنغهاي ويستبعدون أي مصالح أجنبية.

- هل يشملنا هذا يا بازي؟

- أنت ونحن يا جيم... أنت جزء من الجاليات الأجنبية ذات المصالح... وعندما نعود سيكون لك معطف فراء وصندوق من

الويسكي الإسكتلندي لوالدك.

وراح بازي يحرق شطر المستودعات المدمرة والجثث المكسدة فوق الحاجز البحري، وكأنما شاهدها محملة بكنوز الشرق وعلى وشك الشحن إلى سان فرنسيسكو... والواقع أن جيم خامره الأسف لحال بازي، وشعر بإغراء لتحذيره من أن الاستاد ربما كان خاويًا في الغالب، وأنه قد جرد على أيدي قوات الكومنتانج من الأشياء القليلة ذات القيمة التي نجت من تأثيرات المطر والشمس... بيد أن بازي كان قد ابتلع الطعم، ويوشك الآن أن يجري ملهوفًا كشطر الشصي... وإذا حالفه الحظ ونجا بعد الهجوم على الاستاد، فقد يلقي بالبندقية ويمشي عائداً إلى شنغهاي... وفي غضون أيام قلائل ربما يعمل ساقياً في فندق كاثاي، مليئاً في تلطف طلبات الضباط الأمريكيين الذين يهبطون إلى الشاطئ من الطراد المرباط في الميناء.

وعندما ذهب بازي مع بقية الرجال واختفوا بين أطلال المستودعات القائمة على رصيف الميناء، عكف جيم على تصفح المجلات الملقاة بجانبه فوق مقعد السيارة... لقد أيقن الآن أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت، لكن هل بدأت الحرب العالمية الثالثة؟ لقد شعر وهو ينظر إلى الصور التي تمثل هبوط قوات الحلفاء إلى البر في أوروبا يوم النصر، وعبور نهر الراين، والاستيلاء على برلين -أنهم كانوا جزءاً من حرب أصغر، أو مجرد «بروفة» للصراع الحقيقي الذي بدأ هنا في الشرق الأقصى بإلقاء القنبلتين الذريتين فوق نجازاكي وhiroshima... لقد تذكر جيم الضياء الذي انتشر فوق الأرض، ظلاً لشمس أخرى... ألا

أنها هنا، عند مصاب الأنهار الكبرى في آسيا، سوف تدور رحى الحرب الأخيرة التي تقرر مستقبل الكوكب الأرضي.

لم يلبث جيم أن مسح دمه من فوق عجلة القيادة عندما بدأ القصف مجدداً من شاطئ بوتانج... لقد ظل أنفه ينزف متقطعاً على مدار أربعة أيام... والآن ابتلع الدم وأخذ يراقب الطريق المكشوف الذي كان يمتد من الأرصفة البحرية شطر الاستاد البعيد... وعلى مسافة مائة ياردة من سيارة البويك، بدا له اثنان من أفراد الميليشيا الصينيين يتسلقان إلى مقدمة الغواصة الراسية لدى الشاطئ متجاهلين الحرب الدائرة عبر النهر، ويتجهان فوق سطحها إلى البرج.

وعمد جيم إلى فتح باب السيارة... فقد حان الوقت للرحيل قبل أن يتنبه أحد أفراد الميليشيا إلى وجود السيارة... وانحنى فوق المعبات والسجائر وشرائط الذخيرة المكدسة على أرضية السيارة واختار منها علبة لحم وقطعة شيكولاتة ونسخة من مجلة لايف... وعندما غاب الصينيان خلف برج الغواصة هبط إلى الأرض الرخوة وقرص برهة خلف حائط ثم جرى مسرعاً شطر رصيف تابع للشرطة النهرية في شنغهاي... وعلى مسافة ميلين إلى الشمال كانت منطقة المساكن والمستودعات في المدينة القديمة، وقامت فيما وراءها مكاتب الشركات الكبرى في شنغهاي ذاتها... غير أن جيم تجاهل هذه جميعاً وولى وجهه من جديد شطر مطار لانجهوا.

* * *

اندفع دخان من الاستاد الأولمبي - خيط رفيع أبيض تغذيه شعلة واحدة، وكان بازي وعصابته قد أشعلوا نارًا للزينة بين الأثاث المختزن... وكان القصف المدفعي من يونانج وهانجوا قد توقف، ولم يسمع جيم سوى طلقات متقطعة لرصاص البنادق صادرة من الاستاد.

ولكي يحتمي جيم من الخطر فقد ترك الطريق الخلوي المكشوف وأخذ يسير بين قصب السكر البري الذي كان يغطي الأراضي البور قرب الطرف الشمالي لمطار لانجهوا... وكان ستار من الأشجار وخزانات الوقود الصدئة تفصله عن مهابط المطار والحظائر المدمرة... وجعل يتبع سياج الأسلاك الشائكة متحاشيًا أسراب الذباب المحتشدة بين العواسج والحشائش البرية المتطاولة.

وعلى جانبي الدرب الذي راح يسلكه تمددت جثث اليابانيين المقتولين بالرصاص أو طعنات السونكي... وقد توقف قرب قناة ري صغيرة ضحلة شاهد فيها جنديًا من سلاح الطيران ملقى موثق اليدين خلف ظهره ومئات من الذباب تلتهم وجهه وقد حفت به كقناع صخاب... ولم يلبث أن دفع الذباب عن وجهه بالمجلة وتقدم بين أعواد قصب السكر، فوق نظره على عشرات من اليابانيين القتلى ممددين بين العواسج وكأنهم هبطوا من السماء أثناء تحليقهم الجوي في طريقهم إلى قواعدهم الجوية بأرض الوطن.

وتخطى جيم جزءًا مهدمًا من سور الأسلاك الشائكة مارًا بطائرة هاوية بين الأشجار... وبعد مسيرة بين الحشائش التي كانت تكسو

حوافي المطار الشاسعة وقع نظره في داخل أحد الحظائر المدمرة على مجموعة من اليابانيين ينتظرون في الظل وهم يتسمعون طلقات البنادق الصادرة من الاستاد، غير أنهم تجاهلوا جيم وهو يسير عبر المطار.

وراح جيم ينظر إلى المدرج الخرساني تحت قدميه، فوجد سطحه مشققاً بصورة سيئة وملطخاً ببقع البترول وقد تناثرت فيه آثار الإطارات وخدوش العجلات... أما الآن وهو يقدر أن الحرب العالمية التالية قد بدأت أو هي وشيكة الوقوع، فعمّا قريب سيعد مدرج جديد.. وعندما وصل إلى نهاية الرقعة الخرسانية مشى خلال الأعشاب شطر الطرف الجنوبي للمطار، حيث أخذت الأرض ترتفع فيما يشبه الرىبى المكونة من ردم أنقاض البناء، ثم تتدرج إلى واد صغير بدا مغطى بالأتربة، وإن شقته قناة ضحلة لاحت فيها قبلة لم تتفجر، كأنها سلحفاة كبيرة نامت وهي تحاول أن تدفن رأسها في المياه الموحلة.

وعندما خطر له أن تموجات طائرة ماستانج تحلق على ارتفاع منخفض قد تؤدي إلى تحريك مفجر القنبلة أسرع بالابتعاد عن المكان إلى أن وصل إلى موضع آمن، فجلس على ضفة القناة قرب حافة المياه وأخرج علبة اللحم لكي يأكل قبل أن تفلت منه بين الحشائش... وبدأ فغسل العلبة في المياه لكي يزيل عنها الأوساخ، فسقطت من أنفه نقطة دم إلى المياه، وسرعان ما هاجمتها ألوف الأسماك الضئيلة التي لا يزيد حجمها على رأس عود ثقاب... وعندما سقطت نقطة دم ثانية حدث في المياه صراع عنيف بدا أنه يشمل أمماً بأسرها من الأسماك الدقيقة التي راحت تتقاتل بضراوة مثيرة للذهول... ولم يتمالك جيم أن انحنى

فوق المياه وبصق بلغماً من لثته الملتهية، سقط مثل قبلة أعماق بين الأسماك، ففزعت الأسماك الضئيلة، وما هي إلا ثانية أو نحوها حتى خلت منها المياه تماماً.

وعندما فتر اهتمام جيم بالأسماك استلقى بين الحشائش وأخذ يتصفح إعلانات المجلة وهو يسمع قصف المدافع الذي كان يتزايد صادرًا من سيكاواي وهانججاوا فيما كانت جيوش الوطنيين تطبق على شنغهاي... لا بد له أن يستكمل وجبته ثم يبذل جهدًا أخيرًا للعودة إلى شنغهاي... لقد أيقن أن بازي وعصابته قطاع الطرق لم يتتوا قط أن يعودوا إلى السيارة البويك، وأنهم تركوه في تلك المنطقة لكي يبعد عنهم أي جنود صينيين ربما كانوا يتبعونهم إلى النهر!

وفجأة لمح جيم بين الحشائش رأسًا يومئ إليه مرتين.. فتمدد مكانه جامدًا وقد احتبست في حلقة آخر قطعة من الشيكولانة ورؤعه ما رأى... كان شخص ما ممددًا بين أعواد الغاب على بعد أقدام قليلة منه، وركبته تكادان تلامسان حافة المياه... وما لبث الرأس أن أومأ إليه مرة أخرى وكأنما يحاول أن يطمئنه... فمد جيم يداً وأزاح الحشائش لفحص وجه ذلك الكائن... إن الخدين المستديرين والأنف الرخو والملامح التي انطبعت عليها آثار الحرمان لطفولة نشأت في ظل الحروب - كانت كلها لآسيوي تحت العشرين، ابن قروي جاء إلى هذه البقعة لصيد السمك... كان الفتى ممددًا على ظهره، محاطًا بجدار من الحشائش والأقصاب، وكأنه يشاطر جيم سريرًا ذا أربعة أعمدة ويتسمع هادئًا إلى أفكاره.

جلس جيم من رقدته رافعاً المجلة إلى ما فوق رأسه... وجعل ينتظر من خلال أسراب الذباب صوت أقدام بين الحشائش المتطاولة... ثم بدأ الكيان يتحرك يسيراً ساحقاً الحشائش... وكأنما كان من الكسل بحيث لا يستطيع أن يوقف نفسه، فإن هذا الفتى المتراخي أخذ ينزلق إلى المياه.

لم يجد جيم إلا أن ينهض على ركبتيه بكل الحذر الذي تعلمه طوال سنوات الحرب، ثم نهض قائماً وتقدم خطوات بين الحشائش والأقصاب... واستعان بكل ما يملك من هدوء وأطل على هذا الكيان الناعس.

كان أمامه جسد الطيار الياباني الشاب، في زي الطيران ملطخاً بالدم، وبشعار فريق الهجوم الانتحاري.



(٤١)

بعثة الإنقاذ

كاد جيم ييأس.

لقد راح يسوي الحشائش بيديه، حتى جعل لنفسه موضعًا صغيرًا بجانب الياباني.

كان الطيار ممددًا في كسوته، وإحدى يديه تحت ظهره... لقد قذف به إلى أسفل المنحدر في اتجاه القناة، وانحشرت ساقاه من تحته... وقد لامست ركبته اليمنى المياه، التي بدأت تغرق فخذ كسوته، وعلقت برأسه سيقان الحشائش من أثر السقطة.

أخذ جيم يحدق في الطيار، مسرورًا لأول مرة من تزامم أسراب الذباب كحائل بينه وبين الجثة... كان وجه الياباني طفوليًا إلى حد بالغ، وكأنما عاد في موته إلى سنه الحقيقي، صبيًا غضًا في قرية ريفية يابانية... وكانت شفتاه منفرجين عن أسنان غير منتظمة، وكأنما كان يتوقع أن تُلقى فيهما بضعة من سمك من يد أمه.

في حال أقرب إلى الشلل لم رأى هذا الطيار الصريع جعل جيم يراقب ركبتي الفتى وهما تنزلقان إلى المياه... وما لبث أن جلس

الفرصاء على المنحدر يقلب صفحات مجلة لايف ويحاول التركيز على صور تشرتشل وأيزنهاور... لقد طالما وضع كل آماله في هذا الطيار الفتى، مستسلماً لذلك الحلم العاثر المستحيل في أن يطير الاثنان معاً مفارقين هذه الأرض، مخلفين لانجهوا وشنغهاي والحرب كلها إلى الأبد وراءهما... شد ما كان محتاجاً إلى هذا الطيار لمساعدته في النجاة بحياته من الحرب- ذلك التوأم التخيلي الذي اختلقه صورة من نفسه بعد أن راقب وجوده من خلال الأسلاك الشائكة... وما دام الياباني قد مات، فقد شعر جيم أن جزءاً من نفسه قد مات... إنه أخفق في إدراك الحقيقة التي عرفها ملايين الصينيين منذ مولدهم... وهي أنهم ميتون على أي حال، وأن من خداع النفس والتعلق بالأوهام الاعتقاد بغير هذا. أخذ جيم ينصت إلى قصف المدفعية في هانججاو وسيكاواي... وكان صوت الأسلحة الصغيرة يتجاوب فوق المطار فيما كان بازي وعصابته يحاولون اقتحام الاستاد... وميلاً من جيم إلى تجاهلهم فقد عكف على قراءة المجلة، بيد أن أسراب الذباب المحمومة حول الجثث على امتداد القناة ما لبثت أن اكتشفت جثة الطيار الفتى، فقام جيم وأمسك بكتفي الياباني ثم جذبه من تحت إبطيه وأبعده عن المياه، وأخيراً سحبه إلى رقعة الأرض الضيقة المستوية.

وعلى الرغم من وجه الطيار الممتلئ فإنه بدا خفيفاً إلى حد كبير... كان جسده المتضور جوعاً في مثل صبية معسكر لانجهوا الذين كان جيم يتصارع معهم وهو أصغر سناً.. وكان وسط كسوته وبنطلونه غارقين في الدماء... فقد تلقى طعنات بالسونكي أسفل الظهر وفي

الفخذين والعجز، ثم قذف به من الضفة مع غيره من طاقم الطيران.

قعد جيم مقرّفاً قرب الجثة وفتح علبة اللحم... متى أكل فيمكن أن يستخدم العلبة في حفر قبر للياباني... وبعد أن يفرغ من دفنه فله أن يقصد إلى شنغهاي سيراً على القدمين دون نظر لأي اعتبار آخر... وإذا تهيأ له لقاء أبويه فسيخبرهما أن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت، وأنه يتعين عليهما أن يعودا إلى معسكرهما في سوشاو.

وغسل جيم يديه في القناة واستخدم غطاء العلبة في اقتطاع شريحة صغيرة من اللحم رفعها إلى فمه، بيد أنه لفظ المضغّة في المياه... إن اللحم المختلط بالشحم بدا له حيّاً، كأنما اقتطع من لحم حيواني يتنفس.. ها هي ذي رثاه وكبده تخفق في العلبة، فما زال القلب يغذيها ويحركها... ثم اقتطع جيم شريحة أخرى ووضعها في فمه... ها هو ذا يشعر بخفقها بين شفتيه، مشفوعاً بالخوف الذي يستحوذ على المخلوق في اللحظات التي تسبق الذبح!

انتزع جيم الشريحة من شفتيه وجعل يحدق في اللحم الدسم... إن اللحم الحي لا يصلح أن يكون طعاماً لمن هم موتى أو في حكم الموتى... وهكذا لفظ المضغّة مرة أخرى بين الحشائش قرب الياباني... ومال جيم فوق الجثة وراح يمسح على الشفتين المبيضتين بسبابته، مستعداً لدس مضغّة من اللحم في فم الطيار الصريع.

لقد أطبقت الأسنان على أصبع جيم، قاطعة الجلد... فترك علبة اللحم تقع متدحرجة خلال الحشائش إلى القناة... وأسرع بانتزاع يده، شاعراً بأن جثة هذا الياباني توشك أن تجلس وتلتهمه... وبغير تفكير فيما يعمل قرص

وجه الطيار ثم تراجع عنه صارخاً فيه من خلال أسراب الذباب.

ثم انفتح فم الطيار في تقلص صامت... وتركزت عيناه على السماء الحارة بنظرة غير مبصرة، ولكن أحد أجفانه ارتعش عندما حطت ذبابة على إنسان العين... وكان أحد جروح السونكي في ظهره قد نفذ إلى بطنه من الأمام، فبدا دم جديد يتسرب من حوله... واختلج كتفاه الضيقان بين الحشائش المهصورة من ثقله، في محاولة لبث الحياة في ذراعيه الهامدين.

راح جيم يحدق في الطيار الفتى، باذلاً قصاره لاستيعاب المعجزة التي حدثت أمامه... بملامسة الياباني قد رده إلى الحياة... بفتح أسنانه عنوة قد هيأ فينة قصيرة في مماته وأتاح فرصة لعودة روحه.

وقف جيم منفرج الساقين فوق المنحدر المبتل ومسح يديه في بنطلونه الممزق... وتكاثر الذباب من حوله أفواجا ولدغ شفثيه، بيد أنه لم يعره التفائاً... لقد تذكر كيف ناقش مسز فيلبس ومسز جيلمور عن عودة الروح إلى الميت، وما أكدته بإصرار من أن المسألة بعيدة كل البعد عن المعجزات وأنها شائعة الحدوث... فكل يوم كان الدكتور رانسوم يعيد أناساً معدودين أمواتاً بتدليك قلوبهم.

نظر جيم إلى يديه، رافضاً أن يأخذه الروح بما بدا له من تأثيرهما... ثم بسط كفيه نحو الضوء التماساً لدفع الشمس... لأول مرة منذ ابتداء الحرب سرى فيه دفق الأمل... إذا كان قد رد إلى عالم الأحياء هذا الياباني الميت، ففي وسعه أن يبعث الحياة في كيانه هو، وفي ملايين الصينيين الذين لقوا حتفهم خلال الحرب والذين لا يزالون

حتفهم في القتال الدائر من أجل شنغهاي، من أجل مغنم موهوم في الاستاد الأولمبي... وبوسعه أن يرد بازي إلى عالم الأحياء إذا قتله حرس الكومنتانج دفاعاً عن الاستاد- لكن ليس الآخرين من عصابة قطاع الطرق، ولا الليفتنانت برايس ولا الكابتن سونج... وبوسعه أن يعيد إلى عالم الأحياء أمه وأباه، والدكتور رانسوم، ومسز فنسنت، والأسرى البريطانيين في مستشفى لانجهوا... وبوسعه أن يرد إلى عالم الأحياء ملاحى الطائرات اليابانية الراقدين في الخنادق حول المطار ومن يكفي من الفنيين لإعادة إنشاء سرب من الطائرات!

وانبعثت من الطيار الياباني شهقة يسيرة... ومالت عيناه إلى جانب وكأنما في محاولة للدوران مثل أعين أولئك المرضى الذين كان الدكتور رانسوم ينشط قلوبهم في اللحظات الأخيرة... كان يكاد يتعلق بالحياة، غير أن جيم كان يعرف أنه يتعين عليه تركه قرب القناة... كانت يدها وكتفاه ترتعدان، بعد أن كهربتهما الشحنة التي سرت فيها - وهي ذات الطاقة التي غدت بالقوة قنبلة ناجازاكي التي شهد جيم انفجارها... وبدا لجيم أنه يرى مسز فيلبس ومسز جيلمور وهما تعودان إلى عالم الأحياء، منصبتين إليه في إشفاق وحيرة وهو يشرح لهما كيف أنقذهما... وبوسعه أن يتصور الدكتور رانسوم وهو ينفض التراب عن كتفيه، ومسز فنسنت وهي تنظر خلفها مستنكرة إلى القبر!

امتص جيم الدم والصدید من بين أسنانه وسارع بابتلاعهما... ثم هبط إلى مياه القناة الضحلة وغسل وجهه... فهو يريد أن يبدو في أحسن صورة عندما تفتح مسز فنسنت عينيها وتبصره من جديد... ومسح يديه

المبتلئين على وجتتي الطيار الياباني... لا مفر له الآن من أن يتركه، لكنه
- مثل الدكتور رانسوم - ليس أمامه سوى ثوان قلائل يدخرها من أجل
كل واحد من الموتى النافدي الصبر!

* * *

لاحظ جيم وهو يركض في الوادي شطر المعسكر أن قصف
المدفعية في بوتانج وهانججاو قد توقف... وفي داخل المطار
توقف طابور من سيارات النقل قرب الحظائر، وأخذ رجال مسلحون
بخوذات أمريكية يرتقون سلالم برج المراقبة... وحلقت فوق لانجهوا
مجموعات من طائرات موستانج في تشكيلات متقاربة ودوي محركاتها
يصم الآذان... ولوح جيم للطائرات وهو يجري في اتجاه سور الأسلاك
الشائكة حول المعسكر... لقد عرف أن الطائرات الأمريكية قدمت
للهبوط في المطار، مستعدة لنقل الذين ردهم هو إلى عالم الأحياء!
ومن ناحية المدافن إلى الغرب من المعسكر وقف ثلاثة صينيين حاملين
فؤوسهم بين التوايت المتأكلة - هم أوائل من لقوا حتفهم في الحرب
وقد غضوا إليه الآن لتحيته... وصاح جيم نحو اثنين من الأوروبيين
من نزلاء المعسكر كانا يصعدان حافة بركة ومع كل منهما قسبة صيد
السمك، وجعلا يحدقان نحوه ويردان على نداءه وكأنهما في دهشة من
وجودهما على قيد الحياة ويديهما قسبة الصيد!

وتسور جيم السياج وجرى إلى مستشفى المعسكر... كان ثمة
رجال يحملون مجارف واقفين في المقبرة، مظللين أعينهم بأيديهم من
ضوء النهار غير المعهود لديهم... فهل يا ترى قد رفعوا التراب عنهم

وحرروا أنفسهم من القبور؟ وعندما اقترب من عتبة المستشفى حاول أن يسيطر على ارتعاشه... وقد فتحت الأبواب المصنوعة من الغاب وعلى الأثر هرب سرب من الذباب إلى الهواء الخارجي، بعد أن أذنت أيام ولائم الذباب بالنهاية؟ وجد أمامه رجلاً أحمر الشعر في كسوة أمريكية جديدة وعلى وجهه قناع جراحي أخضر ويده قبلة بها مطهر قاتل للحشرات.

- دكتور رانسوم! إنك عدت إلى عالم الأحياء يا دكتور رانسوم! كل شيء على ما يرام... كل إنسان عائد إلى عالم الأحياء... سأذهب إلى مسز فنسنت لكي أعيدها إلى..!

ومر بجانب الدكتور رانسوم إلى الظلام، بيد أن الطبيب أمسك بكتفيه قائلاً:

- اثبت يا جيم! خطر لي أنك قد تأتي إلى هنا.

ورفع القناع عن وجهه وضم رأس جيم إلى صدره وأخذ يفحص لثته، متجاهلاً الدم الذي كان يلوث قميصه العسكري، وأضاف:

- ... إن والديك في انتظارك يا جيم... يا للمخلوق المسكين! لن تصدق أبداً وأنت في هذه الحال أن الحرب قد انتهت!



القسم الرابع

المدينة المروعة

بعد ما تقدم بشهرين، وعشية الرحيل إلى إنجلترا، تذكر جيم كلمات الدكتور رانسوم وهو يهبط من سقالة باخرة الركاب «أراوا» ويضع قدميه على أرض الصين للمرة الأخيرة... كان يرتدي قميصًا وربطة عنق من الحرير، وبدلة رمادية من قماش الفلانيل من متاجر شركة سانسير الكبرى، وفي طريقه توقف متأدبًا لإفساح الطريق أمام زوجين إنجليزيين لكي يهبطا من السقالة الخشبية... وعن كذب منهم كان طريق شغهاي الشهير المعروف باسم «الباند» -حافلًا بالحركة والضجيج والأبهة... كان الألوف من الصينيين يملأون الساحة في هذه الليلة الزاهرة، يتدافعون بين مركبات الترام وسيارات الليموزين، وسيارات الجيب والنقل العسكرية الأمريكية، وقوافل عربات «الريكشة» وعربات اليد، وحيث كان البريطانيون والأمريكيون من الهيئات الرسمية يدخلون إلى الفنادق ويخرجون منها على امتداد «الباند» وهم في حركة دائبة... ولدى الأرصفة الجانبية قرب الباخرة «أراوا»، كان البحارة الأمريكيون

يتجهون إلى اليابسة من الطراد الراسي في وسط النهر، وما إن يهبطون من قوارب الأتراك حتى تتلقاهم عصابات النشالين وسائقو العربات والبغايا وكاسرة الحانات والباعة الجائلون لتسويق زجاجات الويسكي المحلي وتجار المصوغات والأفيون والفراء والحرير.

واندفع البحارة الأمريكيون الشبان مبتعدين عن قادة القوات الصينية ورجال الشرطة العسكرية الصارخين... وحاول البحارة أن يبقوا متلازمين ويشقوا طريقهم في غمار الجمهور المتلهف للترحيب بهم على أرض الصين، ولكن قبل أن يبلغوا تقاطع خطوط الترام اكتسحتهم قافلة من ركاب العربات المحاصرين لفتيات البارات والمتبادلين للبدءات مع القوادين الصينيين راكبي سيارات باكوار ما قبل الحرب القادمين من جراجات الشوارع الخلفية في طريق ناتكين.

وكانت تطل على هذه المشاهد البانورامية لليل شنغهاي ثلاث شاشات سينمائية أقيمت فوق سقالات على امتداد «الباند»... فرغبة من الجنرال الوطني الذي اختير حاكمًا عسكريًا للمدينة في التعاون مع الأسطول الأمريكي، تم الاتفاق على إقامة هذا العرض السينمائي المتواصل لنشرات الأخبار المصورة عن مسارح الحرب في أوروبا والباسيفيك لتزويد سكان شنغهاي بلمحات من عالم الحرب التي انتهت وشيكًا.

وما إن هبط جيم آخر درجات سقالة الباخرة المهتزة حتى تطلع إلى المشاهد السينمائية المترافقة التي كانت تبدو باهتة في الأضواء الباهرة المنبعثة من واجهات الفنادق والنوادي الليلية... وكانت أصوات

الأشرطة السينمائية المتضخمة بمكبرات الصوت تدوي مثل الحرب متفرجاً على نشرات الأخبار المصورة في قبو كاتدرائية شنغهاي، وها هو ذا الآن يختتمها في ظل هذه المشاهد المعادة المتكررة: - طلائع الجنود الروس يزحفون بين أطلال ستالنجراد بمدافعهم الرشاشة.. مشاة الأسطول الأمريكي يصوبون قاذفات اللهب على اليابانيين المدافعين عن إحدى جزر الباسيفيك - مقاتلات السلاح الجوي البريطاني تنسف قطار ذخيرة ألمانيًا في أحد أحواش السكك الحديدية... وعلى فترات عشر دقائق بين العروض كانت الشاشات تمتلئ بالأحرف الصينية يتلوها مشاهد جيوش الكومنتانج الجرارة وهي تؤدي التحية للقائد الأعلى تشيانج كاي شيك وهي في سرادق العرض في نانكنج... وكانت القوات الوحيدة التي حرمت من العرض هي قوات الشيوعيين الصينيين، التي أجليت عن شنغهاي والمدن الساحلية.

وخلال الشهرين اللذين أمضاهما جيم منذ عودته إلى بيته في أمهرست أفينو، تردد جيم مرارًا على دور السينما التي أعيد فتحها في شنغهاي... وقد تماثل أبواه ببطء من معاناة السنوات التي قضياها في معتقل سوشاو، وامتد الوقت أمام جيم لكي يطوف بأرجاء المدينة... وبعد تردد على عيادة طبيب الأسنان الروسي في القسم الفرنسي، كان جيم يأمر يانج سائق الأسرة لكي يذهب به في سيارة لنكولن - زفير إلى إحدى داري السينما الكبيرتين «جراند» أو «كاثاي» لكي يستمتع بالجلوس في جوها الرطيب ويشاهد نوعًا خاصًا من العروض السينمائية الحربية.

وكان يانج يعجب من حرص جيم على مشاهدة تلك الأفلام مرارًا وتكرارًا... وكان جيم يعجب بدوره كيف أمضى يانج سنوات الحرب كوصيف خاص لأحد جنرالات الجيوش الصينيين العميلة، أو كجاسوس لحساب قوات الكومنتانج، أو كمترجم لليابانيين! والواقع أن يانج ظهر على المسرح يوم وصول والدي جيم وهو يقود سيارة الليموزين وباع السيارة على الأثر لوالده وأعاد تسجيل نفسه سائقًا لها... وقبل فترة وجيزة استقل يانج بأداء أدوار صغيرة في اثنتين من شركات الإنتاج السينمائي الكبيرة في شنغهاي... وفي جلوس جيم لمشاهدة الأفلام في دار كاثاي كان يخامر الشك في أن السيارة كانت تؤجر وقتيًا في إخراج بعض الأفلام.

ومهما يكن فإن جيم كانت استهوته كثيرًا تلك الأفلام التي تنتجها هوليوود... وبعد استكمال علاجه لدى طبيب الأسنان وشفاء لثتيه، فقد بدأ يتعافى ويزيد وزنه... وفي غرفة الطعام التي كان يجلس فيها وحده كان يتناول وجبات مضاعفة، وفي الليل كان ينام ملء جفونه في غرفة نومه الخاصة في الطابق العلوي في أمهرست أفينو، ذلك البيت الذي كان من قبل مقره وملاذه، ولكن بدا له الآن كبيت مؤقت مثل تلك البيوت التي يصورونها في استوديوهات شنغهاي.

وفي الأيام التي قضاها في أمهرست أفينو كثيرًا ما فكر في مهجعه في غرفة مسز فنسنت في معسكر لانجهوا... وفي نهاية شهر أكتوبر أمر يانج أن يقوده إلى المعسكر... فاتجهوا خلال الضواحي الغربية لشنغهاي، ووصلوا سريعًا إلى أولى نقاط التفتيش المحصنة التي تحرس

مداخل المدينة... وهناك كان الجنود الوطنيون في دباباتهم الأمريكية يردون على أعقابهم المئات من الفلاحين المعدمين ممن لا يملكون أرضاً ولا أرزاً، محاولين إيجاد مأوى في شنگهاي... وكانت تجمعات من المساكن المبنية بالطين والمدعمة حوائطها بإطارات سيارات النقل وصفائح الكيوسين تغطي الحقول قرب الاستاد الأولمبي المحترق في نانتاو حيث كان الدخان لا يزال يتصاعد من مدرجائه ومقاصيره، حتى أصبح علامة إرشاد للطيارين الأمريكيين الذين يحلقون عبر بحر الصين من قواعدهم في اليابان وأوكيناوا.

وراح جيم في سيرهما على امتداد السور يحدق إلى مغار لانجهوا الذي أصبح حلماً تهفو إليه النفوس... فهناك عشرات من طائرات السلاحين البحري والجوي التابعة للولايات المتحدة رابضة فوق الحشائش وقد بدت من فرط جديتها وبريقها كأنها معدة للتسليم في معرض كبير أقيم في طريق نانكنج.

وكان جيم يتوقع أن يرى معسكر لانجهوا مهجوراً، بيد أن هذا المعتقل السابق كان أبعد عن هذا؛ إذ دبّت فيه الحركة والنشاط من جديد، وحفت به أسلاك شائكة مجددة... وعلى الرغم من أن الحرب قد انتهت منذ قرابة ثلاثة شهور، فقد ضم المعسكر أكثر من مائة من الرعايا البريطانيين كانوا لا يزالون يقيمون في أرجائه تحت حراسة مشددة... وقد حلت عائلات كاملة بالعنابر السابقة في المبنى السكني «أي»، حيث أقاموا سلسلة من الغرف جدرانها من الورق المقوى لصناديق التموين الأمريكية وأسطوانات المعونة الهابطة بالمظلات وما

لا يحصى من مجلة «ريدارز دايجست» الجديدة... وعندما حاول جيم في بحثه عن مهجع بازي انتزاع إحدى المجلات من حائط مزعزع سمع من ينتهره بغلظة ويصده عن التطفل.

فلم يجد إلا أن يترك السكان لما هم فيه وأشار إلى يانج أن يقوده إلى المبنى السكني «ج»... كانت غرفة أسرة فنست الآن مسكنًا لامرأة صينية تعمل في خدمة زوجين بريطانيين مقيمين عبر الممشى... وقد رفضت المرأة أن تفتح الباب أكثر من فرجة صغيرة، فعاد إلى السيارة وأمر يانج أن يطوف به في جولة أخيرة في المعسكر.

لقد وجد المستشفى ومقبرة المعسكر قد أزيلا بالحريق ولم يبق مكانهما سوى الرماد، مع محاولة لتسوية الأرض وكأنما يوشك أن يقام ملعب كبير للتنس... ووقف يحدق من خلال الأسلاك إلى المطار وإلى المدرج الخرساني المنبسط... وبدأت خضرة كثيفة عشوائية تكسو حطام الطائرات اليابانية.

وفيما أخذ يانج يقود السيارة متوترًا في طريق العودة إلى أمهرست أفينو، متكدرًا على نحو ما من هذه الزيارة إلى لانجهوا - كان جيم يفكر في الأسابيع الأخيرة للحرب... في مشارف هذه النهاية غدا كل شيء مشوشًا... فقد كان يتصور من الجوع، ولعله خولط في عقله ومسه شيء من الجنون... ومع ذلك كان موقنًا أنه قد شاهد وهج القنبلة الذرية التي ألقيت على مدينة ناجازاكي حتى على بعد أربعمئة ميل من بحر الصين... وأهم من هذا أنه شهد بداية الحرب العالمية الثالثة، وأدرك أنها واقعة من حوله لا محالة.

وفي خلال الأسابيع التي سبقت إبحاره وأمه إلى إنجلترا في الباخرة «أراوا»، ذهب جيم يفكر كثيرًا في الطيار الياباني الفتى الذي بدا له أنه رده إلى عالم الأحياء... إنه لم يستطع أن يجزم الآن أنه كان نفس الطيار الذي أعطاه حبة المانجو التي اقتات بها وهو متضور جوعًا... إن الفتى كان فيما يرجح يعالج سكرات الموت، وقد أدت تحركات جيم بين الحشائش إلى صحوة عابرة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة... على كل حال فهناك أحداث كثيرة تقع في كل مكان، ومن يدري لعل آخرين تحدث لهم أمثال هذه الظاهرة... أما مسز فنسنت وزوجها فقد توفيا أثناء المسيرة من الاستاد بعيدًا عن شنغهاي، في قرية صغيرة إلى الجنوب الغربي... لكن جيم ربما كان بوسعه أن يمد يد المساعدة للأسرى الذين كانوا في مستشفى المعسكر... أما بازي، فلعله لقي حتفه أثناء مهاجمته للاستاد، بالقرب من الغنائم التي كان يتوق للاستحواذ عليها... أم لعله هو والليفتنانت برايس يدوران في أرجاء حوض نهر يانجتسي في سيارة البويك، انتظرًا للحرب الثالثة تحقق لهما أطماعهما؟!

إن جيم لم يخبر أبويه بشيء من هذا، ولا هو سعى إلى لقاء الدكتور رانسوم، الذي ربما خامرته الظنون في أن جيم قد اختار البقاء في لانجهوا بعد الهدنة، ليلهو بلعبة الحرب والموت... ولقد تذكر جيم عودته إلى بيته في أمهرست أفينو، ومشهد أمه وأبيه يبادرانه بابتسامة واهنة وهما جالسان في مقعديهما في الحديقة... كان مجلسهما قرب حوض السباحة الجاف ومن حولهما تطاولت حشائش الحديقة حتى لتكاد تبلغ الكتفين، فذكرته بالأقصاب والعواسج المتطاوله التي رقد

بينها الطيارون اليابانيون صرعى... ولقد هم جيم أن يقصص على أبويه كل ما فعله هو والدكتور رانسوم لإسعاف المرضى والمحتضرين، بيد أن أبويه كانا في شبه عالم آخر قوامه حربهما الخاصة... فعلى الرغم من كل محبتهما له، بدا وكأنهما طعنا في السن وبعدا عنه في مكان سحيق.

* * *

سار جيم عبر الرصيف البحري عن كذب من الباخرة «أراوا»، متطلعا إلى شريط الأخبار المصورة المعروضة من فوق رؤوس جماهير المساء... إن الشاشة الثانية المواجهة لفندق بالاس كانت الآن بيضاء، غابت عنها صور معارك الدبابات والجيش التي تؤدي التحية، وأعقبها مسطح قائم الزوايا ذو ضوء فضي معلق في هواء الليل، كأنه نافذة في عالم آخر.

وفيما أخذ الفنيون العسكريون يعملون على إصلاح جهاز العرض السينمائي في برجهم المقام فوق السقالة، سار جيم عبر خطوط الترام وقد كف الصينيون عن التطلع إلى الستارة ريثما يتم إصلاح الخلل... وسارع جيم بنفض كم سترته عندما اصطدم به حمال يجر «ريكشة» بها اثنتان من فتيات الحانات مرتديتان معاطف الفراء، بدا وجهاهما المعفران بالمساحيق كأنهما قناعان غريبان في الضوء السائد.

ومهما يكن فإن رؤوس المتفرجين الصينيين المتطلعة ما لبثت أن تحولت إلى مشهد آخر... فقد تجمهر جمع منهم أسفل درجات مدخل نادي شنغهاي عندما خرج لفيف من البحارة الأمريكيين والبريطانيين من الأبواب الدوارة ووقفوا لدى أعلى الدرج وهم يتحاورون فيما

بينهم ويشيرون مخمورين شطر الطراد المرابط قرب «الباند»... ووقف الصينيون يراقبونهم عن كثب وكأنهم مشهد «كوراس» مسرحي... وعندما استثار هذا الفضول الصامت لفيف البحارة راحوا يستهزئون بالصينيين ويسخرون منهم... ثم بإشارة من أكبر البحارة سنًا، إذا هم يفكون أزرار بنطلوناتهم ويبولون علانية فوق درجات مدخل النادي.

لقد راح الصينيون يراقبون هذا المشهد دون تعقيب فيما كانت حلقات البول تتجمع وتشكل مجرى فوارًا أخذ يسيل إلى الطريق... وعندما وصل إلى مكان الصينيين تراجعوا خطوات دون أن تفصح وجوههم عن شيء... ولم يتمالك جيم أن جعل يتصفح الوجوه من حوله، وجوه خليط من الكتبة والحمالين والفلاحات، مدرغًا تمامًا كنه تفكيرهم ومشاعرهم... لسوف يأتي يوم تعاقب فيه الصين بقية العالم وتنزل بهم قصاصها ذريعًا ومروعًا.

وفي هذه الأثناء أتم عارضو الشرائط الأخبارية إصلاح أفلامهم، وبدئ من جديد عرض معركة جوية فوق رؤوس الجمهور المحتشد... وبعد أن انساق البحارة في غمار قافلة من عربات «الريكشة» قفل جيم عائداً إلى الباخرة «أراوا»... كان أبواه يستريحان في صالون المسافرين فوق السطح العلوي، وقد أراد جيم أن يقضي أمسية أخيرة مع أبيه قبلما يبحر هو وأمه إلى إنجلترا في اليوم التالي.

